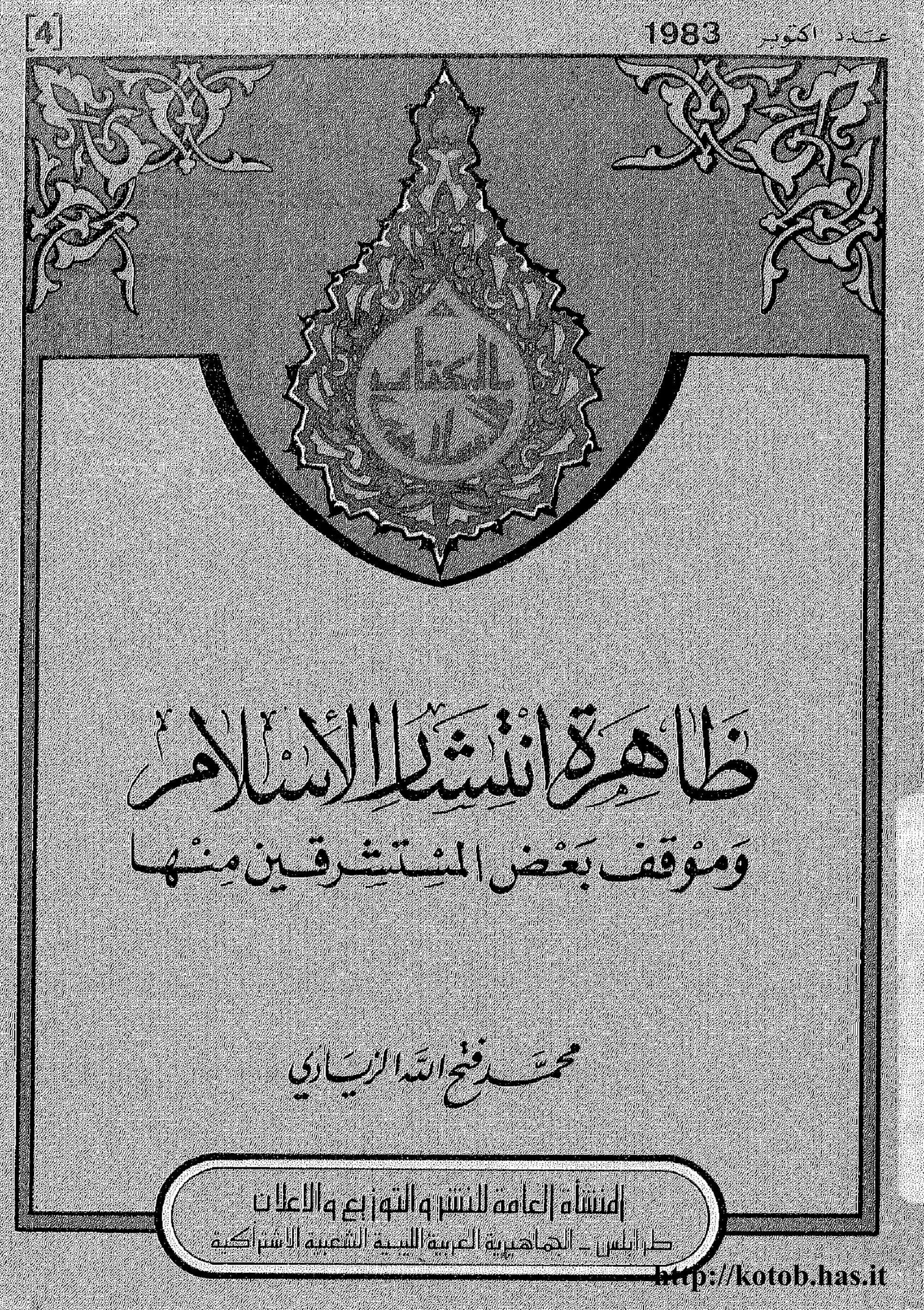

عدد اكتوبر 1983
[4]
ظاهرة انتشار الإسلام
وموقف بعض المستشرقين منها
محمد فتح الله الزيادي
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
http://kotob.has.it


ظاهرة انتشار الإسلام
وموقف بعض المستشرقين منها



[4]



اكتوبر
1983

محمد فتح الله الزيادي

ظاهرة انتشار الإسلام
وموقف بعض المستشرقين منها

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى

1392 و.ر 1983 م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

صندوق البريد 959

بسم الله الرحمن الرحيم

أُذِنَ للذينَ يُقاتلونَ بأنّهُم ظُلِموا وان اللهَ
على نصرِهِم لقدير . الذينَ أُخرِجوا من ديارِهم
بغيرِ حقٍّ الّا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دفعُ
الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهدّمت صوامعُ وبيعٌ
وصلواتٌ ومساجدُ يذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا
ولينصرنّ اللهُ من ينصرُه إنّ اللهَ لقويٌّ عزيز

الآية ٣٩ من سورة الحج

يا أهلَ الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله وانتم
تشهدون (٧٠) يا أهلَ الكتاب لمَ تلبسونَ الحقَّ بالباطلِ
وتكتمونَ الحقَّ وأنتم تعلمون (٧١)

الآية ٧١ من سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

[للأستاذ الدكتور محمد الدسوقي]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسل الله اجمعين . وبعد فإن الدارس المنصف لتاريخ الرسالات الالهية يلاحظ ان كل الرسالات التي سبقت الاسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم قد أوتيت من قِبَل أهلها والمؤمنين بها . فدخلها على أيديهم التحريف والتبديل في الأصول والفروع ، ولكن الاسلام لم يُؤت من قِبل أهله وإنما من قبل غير المؤمنين به ، بيد أن ما قام به هؤلاء من محاولات مضادة تتغيا تقويض الإسلام لم تؤثر في هذا الدين ذاته ، فمصدره الأساسي وهو القرآن الكريم لم ينله ما نال الكتب السابقة وظل محفوظاً من التغيير والتحريف ، وسيبقى كذلك إلى يوم الدين ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

والذي لا مراء فيه أن تلك المحاولات المضادة كان لها أثرها السَّيء بين المسلمين أنفسهم وبين غيرهم أيضاً .

أما المسلمون فقد تأثر بعضهم بما صدر من آراء تبغي تشويه الاسلام وزعزعة ثقة المسلمين بأنفسهم ، وكانت جهود نفر منهم في مقاومة تلك الآراء لا تسلم من الأفكار غير الاسلامية ، واثمر هذا في تاريخ الفكر الاسلامي القديم والحديث تراثاً يضطرب بالنظريات والاتجاهات التي تبعد قليلاً أو كثيراً عن روح الاسلام وأصالة مبادئه وتعاليمه .

أما الأثر السيِّء للمحاولات المضادة بين غير المسلمين فتبدو في النظر إلى الاسلام نظرة كريهة ، وفي اعتبار المسلمين امة وثنية ، وقد نجم عن ذلك العزوف عن الايمان بهذا الدين ، على الرغم من حاجة الناس إليه في العصر الحاضر ، عصر افلاس الحضارة المادية في أن تكفل للبشرية الأمن النفسي والتعاون العادل ، ومناصرة المظلومين ومناهضة القاسطين .

ويعد الاستشراق من أخطر الظواهر المضادة للاسلام ، فما عرف التاريخ الانساني عبر مراحله المتباينة أن طوائف من أمم مختلفة تنوعت ثقافاتها ولغاتها وأعرافها التقت كلمتها واتحدت اهدافها حول العكوف على دراسة دين لا تؤمن به لا تريد من ذلك معرفة الحق من الباطل ، وإنما تريد العمل دون كلل من أجل تشويه الاسلام وحضارته الانسانية الرائعة .

إن تيار الاستشراق يندفع بقوة منذ هزم صلاح الدين الصليبيين في « حطين » وهو في اندفاعه لا يحمل غير الغثاء والزبد الذي يذيع بين المسلمين الفساد والضرر ، وقد ينتهي بهم الى غربة كاملة عن دينهم ما لم يقفوا أمام هذا التيار سدا منيعاً يحول بينه وبين ما يسعى اليه . صحيح أن بعض المستشرقين قال كلمة الحق ، ولكن هؤلاء كانوا كصوت خافت وسط عاصفة عاتية فلم يكن لموضوعيتهم وصدقهم مع أنفسهم تأثير ذو بال ، وظل التيار الاستشراقي بغثائه مندفعا حتى الآن نحو غايته الفاسدة .

وكانت الفتوحات الاسلامية من أهم القضايا التي شغلت الفكر الاستشراقي ، وقد كان لهذا الفكر وما يزال موقفه العام من تلك الفتوحات ، إنه موقف الاتهام الباطل والحكم الجائر بانها ظاهرة استعمارية ، وليست فتوحات في عالم القصيدة وبناء الشخصية الانسانية بناء متكاملا يستجيب لسنة الفطرة ، فهو يجمع بين الروح والمادة والفردية والجماعية والدنيا والآخرة .

وهذه الدراسة التي قام بها الاخ محمد فتح الله الزيادي محاولة جادة لمناقشة الفكر الاستشراقي في الفتوحات

الاسلامية ، لقد عرض لآراء المستشرقين وفق تصنيف موضوعي لها، وتناولها بالنقد العلمي الذي لا يعرف التحامل ، ولا يبخس الناس شيئاً ، ولا يضيره أنه لم يستقرىء كل الآراء ، فذلك أمر لا سبيل إليه ، ويكفيه أنه جمع منها مااستطاع الوقوف عليه، وتمكن به من أن يلقي ضوءاً كاشفا حول موقف الاستشراق من الجهاد في سبيل الله .

وأطمع أن تكون هذه الدراسة بداية لدراسات تعرض للفكر الاستشراقي من جميع أقطاره ، كي لا يصل إلى غايته أو يحقق مآربه .

إن الأمة الاسلامية اليوم في جهاد فكري لا يقل ضراوة عن الجهاد المسلح ، بل إن ذلك الجهاد هو الخطوة السديدة لأن يؤتى بذل الدم أكله في النصر واعلاء كلمة الله في دنيا الناس .

والله يتولانا جميعا بهدايته وتوفيقه .

د . محمد الدسوقي
كلية التربية : جامعة الفاتح

طرابلس في 8 / 3 / 83 .

المقدمـة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان معلم هذه الأمـة الأول ومرشدها الى سواء السبيل ، اللهم صل وسلم وبـارك عليه وعلى أصحابه الذين حملوا مشعل نور الرسالة الاسلامية من بعده ، وساروا بها الى مشارق الأرض ومغاربها ينيرون بها قلوبا مظلمة ويرشدون بها عقولا ضالة ويقيمون بها حياة عادلة هانئة .

وبعد :

فمنـذ أن بعـث لله سيدنـا محمـداﷺ مبلغـا بالدعـوة الاسلامية وداعيا اليها ، وهذه الدعوة تتعـرض لشتـى ألـوان المعارضة والمقاومة ، وقد تعددت مظاهر هذه المعارضة وتنوعت عبر فترات التاريخ الاسلامي ، واختلفت باختلاف الظروف والأحوال والبيئـات ، فبينما كانـت ايذاء شخصيا ومناوشـات متنوعة في العهد المكي ، كانت مجابهة مسلحة وصداما قويا في فترة ما بعد الهجرة ، وبينما كانت بين المسلمـين وبـين قريش

وحلفائها في الفترة الأولى ، نراها تتسع بعد تأسيس الدولة الاسلامية لتشمل أعظم قوتين في ذلك الوقت الفرس والروم ، وهكذا استمر الصراع بين الدولة الاسلامية وبين المعاندين والمكابرين في كل عصر من عصور التاريخ الاسلامي ، الى أن أطل القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري والذي شهد تفجر أكبر صراع بين المسلمين وبين المسيحيين الذين شنوا حربا تحمل الصليب شعارا لها وتتحرك من حقد صليبي كنسي سافر ، وكان الهدف من الحروب الصليبية هو الاستيلاء على أماكن المسلمين المقدسة وتدميرهم وابادتهم حتى لا يقف الاسلام كما يظنون حجر عثرة أمام تقدم وانتشار المسيحية ، هذا بالاضافة الى الأطماع الاستعمارية التي حركت نبلاء أوربا وجعلتهم يتحالفون مع الكنيسة ، ويتظاهرون بحماية الصليب ، وما كانوا في الواقع يريدون إلا السيطرة على الأرض ، والاستحواذ على كنوز الشرق ، ولكن حملاتهم هذه باءت بالفشل وبقي الاسلام قويا شامخا يتقدم وينتشر بين أمم العالم في سرعة مذهلة ، وبمجهودات بسيطة لا ترقى الى ما ينفقه المسيحيون على حملاتهم التبشيرية ولا تقاس بها .
وبانتهاء الحروب الصليبية تغيّر أسلوب المجابهة للاسلام ،

وأصبح يعتمد الحرب الفكرية التي تعتمد على التشويه والتشكيك في محاولة لتنفير الناس من اعتناق هذا الدين وبالتالي وقف تقدمه وانتشاره . ولقد تحمّل المستشرقون وأعوانهم مهمة تحقيق هذا الهدف ، وذلك عن طريق دراسة الاسلام فكرا وثقافة وحضارة ، ثم الكتابة عن هذا الدين واظهاره في قالب يبرز المفهوم الغربي ويخفي ما عداه من المفاهيم .

من هنا تبدو خطورة عمل المستشرقين وأبحاثهم ، ومن هنا أيضا تبدو ضرورة اليقظة والانتباه منّا نحن المسلمين ، الذين يجب علينا أن نتتبع أبحاث الغربيين التي تمتلىء بها الصحف والمجلات والكتب يوميا ، ونتقبّل ونشكر ونشجّع ما كان صحيحا ، ونرفض وندحض ما كان باطلا كاذبا .

من هذا المنطلق فقط كان اختياري لهذا الموضوع الذي نال من سهام المستشرقين ورماحهم الكثير ، وقد تفضل كثير من علمائنا بالرد على جزئيات مختلفة في هذا الموضوع ، ولكنها كانت كلها تأتي عرضا وفي ثنايا أبحاث أخرى ربما في كثير من الأحيان لا ينتبه القارىء لها ، ولذلك فقد اخترت هذا الموضوع مع علمي بأنه موضوع واسع ولا سبيل الى حصر كل الآراء التي صدرت عن المستشرقين فيه لكثرتهم من جهة

ولتعدد جنسياتهم وعقائدهم ولغاتهم من جهة أخرى ، ولكن الموضوع مع صخامته وصعوبة استقراء الآراء فيه لا تكاد اتجاهات المستشرقين حوله تخرج عما انتهت اليه هذه الدراسة ، وكانت الآراء التي أثبتها هنا أمثلة ونماذج ولعلها تغني عن سواها مما يدور في فلكها .

وقد اتبعت في دراسة هذا الموضوع خطة تقوم على تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة . ففي التمهيد تحدثت عن عالمية الدعوة الاسلامية ، وذلك لأن ايمان المسلمين بأن دينهم ورسالتهم ليستا للعرب وحدهم وانما هما للعالم أجمع هو الذي دفعهم الى تحمل المخاطر والأعباء ومواجهة الجيوش وترك الأهل والمال والولد ، مستهدفين قبل كل شيء تكسير كل حاجز يقف أمام وصول الدعوة الاسلامية الى شعوب الأرض ، وفي التمهيد أيضا بيّنت أن بعض المستشرقين لا يسلمون بعالمية الدعوة الاسلامية ، وقد أوردت عددا من آرائهم وحاولت تفنيدها ، ولما كان المستشرقون وحركتهم الاستشراق يحتلون نصيبا وافرا في هذه الدراسة فقد خصصت الفصل الأول لدراسة تاريخ الاستشراق ، ومفهوم الكلمة ، ودوافع هذه الحركة وأهدافها ووسائلها وتطورها عبر مراحل تاريخها ، ثم انتقلت في الفصل

الثاني الى توضيح وجهة النظر الاسلامية حول الحرب والفتوح الاسلامية ، وقد قسمت هذا الفصل الى مبحثين ، **الأول** : وفيه تحدثت عن الظروف والأحوال التي سادت العالم قبل ظهور الدعوة الاسلامية وما لذلك من أثر في إقبال الناس على اعتناق الاسلام ، **والثاني** : وفيه تحدثت عن فكرة الحرب ونظرة الاسلام اليها والى مسبباتها ، وبيّنت أيضا الأسباب التي ساعدت الاسلام على الذيوع والانتشار ، وقد أخذت في دراسة هذا الفصل بالايجاز والاجمال دون الاسهاب والتفصيل .

وفي الفصل الثالث عرضت آراء نفر من المستشرقين في انتشار الاسلام وحركة الفتوح الاسلامية ، وحاولت تفنيدها والرد عليها ، وقد أومأت آنفا الى أن حصر الآراء في هذا الموضوع أمر متعذر إن لم يكن مستحيلا ، وأضيف إلى ما أسلفته أني اعتمدت على ما كتب من آراء المستشرقين أو ما ترجم منها الى العربية أو الانجليزية ، الأمر الذي فقدت معه الكثير من تلك الآراء التي لم تحظ بالترجمة الى هاتين اللغتين ، وإذا أضفنا الى العائق الأول عائقا آخر وهو النقص الكبير في المراجع وخصوصا الدوريات منها ، فإن الهوة تتسع والأمر

يزداد صعوبة ، ذلك أن استقصاء وحصر آراء المستشرقين في مثل هذه الظروف يصبح أمرا مستحيلا .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على مراجع متنوعة ، منها ما يتصل بالتاريخ ومنها ما يتصل بالفقه والحديث والتفسير ، ومنها ما يتصل بآراء المستشرقين وهي مبثوثة في دراساتهم ومؤلفاتهم .

وفي الخاتمة أثبت أهم النتائج التي استطعت الوصول اليها ، وقدمت بعض المقترحات التي تتعلق بدراسة غير المسلمين للاسلام .

والله ولي التوفيق

محمد فتح الله الزيادي
طرابلس 15- 2- 1982 م

تمهيد

عالمية الدعوة الاسلامية
وموقف المستشرقين منها

لـكل دين من الأديان أو عقيدة من العقائـد ـ سماويّـة كانت أو أرضيّـة ـ أهداف تسعى الى تحقيقها ، وغايات تنشد من أتباعها الوصول إليها . . . . ، والدين الاسلامي كغـيره من الأديان السماوية التي سبقته يتفق معهـا في وحـدة الأديان ومنبعها الأول وهو كونها من عند الله سبحانه وتعالى ، وأنهـا ترمي كلها الى سعـادة البشرية ، وتخليصهـا من كل شوائـب الوثنية ، وطوعا لذلك فان الاسـلام ليس بالـدّين الجـديد ، وإنما هو استمرار وتجديد للوحي الذي أنزله الله على نوح ومن بعده على بقية الأنبياء ، واذا كان النـاس في زمننـا هذا يرون أمامهم أديانا مختلفة فإنما يرجع ذلك الى تحريف أتبـاع الأنبياء لهذه الأديان بعد وفاة هؤلاء الأنبياء [1] .

واذا كان الاسلام يتّـفق مع بقيّـة الديانات التي سبقته في وحدة الأديان ومصدرها الإلـهي ، فانه يختلف معها في كونـه الدّين النّـهائي الخاتم لجميع الأديان ، كما أن نبيّـه محمدا ﷺ هو الخاتـم لجميع النبيين ، واذا كان ذلك كذلك فإن الـدين

---

(1) من مقال بعنوان (مهمة الـدين الاسلامـي في العالـم) ـ محمـد فريد وجدي ـ مجلة الأزهر ـ العدد 4 ـ ربيع الثاني 1352 هـ/ القاهرة .

الاسلامي يعتبر هو الغاية القصوى لكل الأديان التي سبقته ، وقديما قال علماء الأخلاق : إن الغاية تتصور من المبدأ وتكون هي الباعث على السير اليها ، ولذلك أراد لله أن يؤمن جميع الأنبياء بخاتمهم ، وأن يكلفوا أتباعهم بالايمان به ، حثا لسير الجماعة البشرية الى الكمال المنشود [1] .

ولم يكن الاسلام خاتما للدّيانات السّابقة فحسب ، بل إنه انفرد أيضا بخاصّية أخرى لم يتميّز بها أيّ دين سابق له ، وهذه الخاصّية تتمثل في كونه دينا عامّا أنزله الله على سيدنا محمدﷺ ، ليقوم بتبليغه الى الناس كافّة ، عربا وعجما ، بيضا وسودا ، انسا وجنّا ، وتبعا لهذه المهمّة فان الاسلام اختلف عن غيره من الديانات الأخرى بأنّه دين صالح لكل زمان ومكان ، وأنّه مساير لكل العصور مهما اختلفت نواحي الحياة فيها ، وهذا كما أومأت آنفا شأن الدين الذي اقتضت ارادة الله سبحانه وتعالى أن يكون غاية لكل الأديان التي خلت قبله .

وقبل الكلام عن عالمية الدعوة الاسلامية تجدر الاشارة

---

(1) من مقال بعنوان (الاسلام وحده هو دين الانسانية الراشدة) ـ د . الشامي محمد السيد ـ مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد 2 ـ سنة 1974 م ـ ص 59 ـ ليبيا .

الى أن لقب العالمية والانسانية أصبح شعارا يطلق على كل دعوة جديدة، بهدف تحسينها لدى الشعوب ـ وخاصّة النامية منها ـ حتّى تكون دافعا لاعتناقها والسير في ركابها ، وهي فكرة يتبناها الاستعمار الغربي ، خدمة لمآربه وتحقيقا لأغراضه ، فهي فكرة حقّ أريد بها باطل . ولكن اطلاق صفة العالميّة على الدعوة الاسلاميّة ليس محض خيال ، أو ادّعاء يقصد به خدمة أغراض أخرى ، بل إنّه حقيقة واقعة تثبتها المعجزة الخالدة وهي القرآن ، كما تثبتها الأدلّة العقليّة والنقليّة التي سأحاول الحديث بإيجاز عنها في السطور التّالية .

إنّ العقيدة التي يمكن أن نطلق عليها صفة العالميّة هي : (العقيدة العامّة الشاملة الفطريّة الواضحة التّي تسعى لسعادة الانسان كفرد والانسانيّة كمجموع)[1] ، وطوعا لهذا التعريف يجب أن تكون العقيدة عامّة وشاملة وواضحة ، تراعي في الانسان فطرته وقدراته وامكاناته ، وتسعى لتوجيهه في حياته كفرد ، ولتوجيهه الى كيفية التّعامل

---

(1) من مقال بعنوان (نظرة في عالميّة العقيدة) ـ أبو جهاد ـ مجلة حضارة الاسلام ـ العدد 1 ، 2 ـ السنة 8 ـ ربيع الأول والثاني 1387 هـ/ يونيو يوليو 1967 م ـ ص 129 .

مع بني جنسه ، ومع جميع ظواهر الكون الأخرى حتى تتحقق في النهاية سعادة الانسانية أفرادا وجماعات . فالعقيدة يجب أن توضّح للانسان فكرة الوجود ، وجود الخالق ووجود المخلوق حتى تلبى حاجة الانسان الملحّة في معرفة خالقه ، والتي تساءل الانسان عنها منذ أن خلق ، كذلك يجب أن تهتم العقيدة الموصوفة بالشمولية بجميع جوانب الانسان الروحية والماديّة ، وإغفال جانب والاهتمام بجانب آخر ليس من سمات العقيدة الشاملة ، وهو جمود فكري وعقلي لا مبرّر له ، واذا كان المراد من العقيدة هو الاهتمام بالانسان وضبطها لسلوكه فان أهم ميزة يجب أن تنعت بها هي ألاّ تكون نظرية بحتة لا تتّصل بالواقع ولا تتفاعل معه ، لأن ذلك يجعلها بعيدة عن الواقع العملي ، وغير ميسورة التطبيق [1] .

واعتمادا على ما تقدّم يمكن أن نقرّر أن العقيدة الاسلامية هي عقيدة شاملة وعامّة ، ذلك لأنها خاطبت في الانسان فطرته التي خلق عليها ، وحققت له نظاما دقيقا لحياته ، وأجابت عن كل تساؤلاته الروحيّة والعقليّة ، واهتمت بتربية عقله وفكره ووجدانه ، أي أن العقيدة الاسلاميّة تميّزت

---

(1) نظرة في عالمية العقيدة ـ أبو جهاد .

بثلاثة مبادىء أساسيّة :

1 ـ تفسير روحي لحقيقة العالم .

2 ـ تحرير روحي لذات الفرد .

3 ـ إقامة نظام من المبادىء العالميّة توجّه تطوّر المجتمع الانساني على صعيد روحي ومادّي معا[1] .

واذا أردنا جلاء الأمور وتأكيد عالميّة الدعوة الاسلامية ، فان المقام يحتّم علينا توضيح ثلاثة أمور لها علاقة وطيدة بهذه المسألة : ـ

1 ـ طبيعة المعجزة التي أيّد الله بها نبيّه محمدا ﷺ .

2 ـ الأصول العامة التي قرّرها الاسلام .

3 ـ طبيعة الخطاب في الآيات القرآنيّة .

أمّا الأمر الأول فإن الأنبياء الذين بعثهم الله قبل سيدنا محمد ﷺ كانت معجزاتهم ـ بوجه عام ـ حسيّة ، فهي وإن تباينت من حيث صورتها جمع بينها المظهر المادي المشاهد ، فمعجزة عيسى كانت إبراء الاكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله ، ومعجزة موسى كانت انقلاب العصى حيّة تلقف ما

---

(1) الاسلام صرورة عالميّة ـ زاهر عرب الزغبي ـ الهيئة المصرية للتأليف ـ 1971 م ـ القاهرة .

يأفك به سحرة فرعون ، وكانت أيضا انفلاق البحر وخروج يد موسى من جيبه بيضاء للناظرين ، وكانت معجزة ابراهيم في نجاته من الحرق الخ . فتلك المعجزات كانـت كلهـا حسّـية ذات أثر مادي مرئي ، وكانت أيضا معجزات شخصيّـة ترتبط بحياة النّـبي وتؤكّد صدقـه في حال حياتـه ، فاذا توفّـاه الله أصبحت خبرا يروى وتاريخا يسطّـر ، هكذا كانت معجزات الأنبياء الذين خلوا قبل بعثة محمـد ﷺ ، ولـكن حـين ظهـر الاسلام كانـت معجزتـه من نوع آخـر ، حيث أيـّد الله نبيّه محمدا ﷺ بمعجزةالقرآن الخالدة، التي حفظها الله من التغيير والتبديل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] ، وقد تميّزت معجزة القرآن بأنها معجـزة غـير شخصيّة ، بمعنى أن وجودها ليس مرتبطا بوجود النبي فها هو القرآن الكريم لا زال بيننا سليما كما أنزلـه الله على نبيّه على الرغـم من مرور مئـات السنوات على وفـاة الرسـول عليه السّـلام[2] ، كذلك تميّزت معجزة القرآن الكريم بأنها معجزة عقليّة تحض العقل الانساني على النّظر والتدبّر واتّخاذ هذا وسيلة للايمان الصادق ، ومن ثم

---

(1) الآية 9 من سورة الحجر .

(2) في الثقافة الاسلامية ـ د . محمد الدسوقي ـ منشورات جامعة الفاتح ـ طرابلس/ ليبيا ـ ط 2 ـ سنة 1977 م .

كان نفـي الاكراه في الـدين آية من آيات احتـرام العقـل الانساني ، وعدم إكراهه على الايمان دون اقتناع وتصديق ، ولعل مرد ذلك الى أن العقل الانساني وقت نزول القرآن كان قد بلغ درجة من الاستعداد لتقبّل تلك المعجزة الخالدة ، فضلا عن أن تميّز هذه المعجزة بالعقلانيّة يوحي بأنها جاءت للنـاس قاطبة ، لأن العقل صفة انسانيّة وقدر مشترك بين أبناء البشرية قاطبة .

وفي الأمر الثاني أقول : إن الأصول العامّـة التي شرعها الله لعباده في هذا الدين تنبىء على أنّـه الدين النهائي ، وأنّـه الدين الذي أراد الله أن يكون دين البشريّـة كلها ، ذلك لأن هذه الأصـول تميّـزت بأنّـهـا أصـول ترسىء دعائـم المجتمـع السعيد الذي تتحدّد فيه العلاقة بين الانسان وخالقه ، وبـين الانسان وأخيه الانسان ، ومن أهم هذه الأصول : ـ

1 ـ تنـزيه مقـام الألـوهيّـة من كل ما شابهـا من خرافـات وأباطيل ، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ، ولـم يكن له كفـؤا أحـد ، وهـو وحـده مسيّـر الـكون ومدبّـره ، إليه وحده نتوجه بالعبادة والشكر ، لا نخشى أحدا غيره ولا تنحني جباهنا إلاّ له ، لا وسيط بيننا وبينه ،

اليه الملجأ والمآب .

2 ـ تربية ضمير المسلم على الاخلاص في كل حركاته وسكناته لله تعالى يقدم أعماله كلّها دون أن يطلب جزاء أو شكورا ، ودون الخوف من عقاب أحد فردا كان أو دولة ، يقدم أعماله وهو عالم بأنه سيقف بين يدي خالقه خمس مرات كل يوم يراجع فيها حساباته مع ربّه ، يطلب منه العفو والمغفرة عن الخطأ ، وينال منه الرضا والقبول عن العمل الصالح[1] .

3 ـ تقرير المساواة العامة بين جميع أفراد البشر ، فلا سيّد ولا مسود ، ولا حاكم ولا محكوم ، بل الكل في نظر الاسلام سواء ﴿ **يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾[2] وبهذه المساواة الكاملة محيت كل السلطات التي تعارف عليها الناس قبل ظهور الاسلام ، فالسلطة

---

(1) من مقال بعنوان : (الأهداف الكبرى لرسالة الاسلام) ـ د. مصطفى السباعي ـ مجلة حضارة الاسلام ـ عدد 1 ـ سنة 7 ـ ربيع الأول 1386 هـ/ 19 يونيو 1966 م ـ ص 11.

(2) الآية 13 من سورة الحجرات .

الرّوحيّة المتمثّلة في رجال الدين والتي طالما سامت الناس ألوانا من الخسف وألبستهم لباس الذل لم يعد لها محل في المجتمع الاسلامي ﴿ **إني قريب أجيب دعوة الدّاعي اذا دعان** ﴾[1] ، والسلطة الحكوميّة المتمثّلة في السادة والزعماء والقياصرة الذين كانوا يتوارثون السلطة ويحتكرونها بينهم ،لم يعد لها وجود في المجتمع الاسلامي أيضا ، بل الكل يتشاورون في كل ما يلم بأمور حياتهم ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[2]؛ ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾[3]، وهكذا اعترف الاسلام بحرية الانسان وكرامته وحقه في العيش عزيزا لا يخضع لسلطان أحد إلاّ سلطان الخالق عزّ وجلّ .

4 ـ تحميل الانسان كافة المسئوليات الملقاة على عاتقه ، واشعاره بعظم الرسالة التي كلّف بها ، وأنه مجازى على كل ما يقدمه خيرا أو شرا ، وأن مناط سعادته في الدنيا والآخرة مرهون بما يقدمه من عمل ، حيث لا تنفع يوم القيامة شفاعة ولا قرابة ولا وساطة ، ﴿ **كل نفس بما كسبت**

---

(1) الآية 186 من سورة البقرة .

(2) الآية 38 من سورة الشورى .

(3) الآية 159 من سورة آل عمران .

رهينة ﴾[1] ﴿ وأن ليس للانسان إلاّ ما سعى ﴾[2] .

5 - يقرر الاسلام أن العقل مناط التكليف ومصدر التمييز بين الحق والباطل ، وأنّـه قسطاس الحكم وفيصل التفرقة بين المشتبهات ، وبما أن الناس جميعـا يتفقـون في مقتضيات الفطرة ويختلفون في الغرائز الطبيعية ، فان ذلك يجعلهم محتاجين لحكم ومقوّم ، ولا سبيل لأن يكون الحكم غـير العقل ، ولذلك حثّ الحـق تبـارك وتعـالى على تكميلـه بالنظر والتفكر والتدبّـر ﴿ إنّا أنزلناه قرآنا عربيّـا لعلّـكم تعقلون ﴾[3] . ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون ﴾[4] ، وبهذا الأصل حرَّر الاسلام العقول من أسر الخرافات والأساطير البالية ، وأمر المسلم بأن ينمّـي عقله بالتفكّر في ملكوت الله وخلقه ، ففي ذلك سعـادة وتربية للنفس ورقي بها الى أعلى الدرجات .

ولا شك أن اهتمام الاسلام بالعقل ، ودعوته الى تنميته بالتفكير والتدبّـر راجع الى كون الاسلام دينا عاما لجميع أفراد

---

(1) الآية 38 من سورة المدّثر .

(2) الآية 39 من سورة النجم .

(3) الآية 2 من سورة يوسف .

(4) الآية 43 من سورة العنكبوت .

البشرية ، وصالحا للتطبيق في كل زمان ومكان ، واذا كان الأمر كذلك فان الاسلام قد قرّر أحكاما عامّة وشرع تشريعات مجملة ، ثم ترك تفصيلها وتقنينها للمجتهدين في كل عصر حتى يستطيعوا تكييف الاطار العام الذي رسمه الاسلام مع مقتضيات كل زمان ، وكمثال على ذلك قرّر الاسلام مبدأ عاما للحكم الاسلامي يقوم على الشورى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[1] ، ثم ترك تطبيق ذلك المبدأ مفتوحا بحيث يمكن تكييف ذلك المبدأ مع كل عصر ، وقد رأينا عبر مراحل التاريخ الاسلامي تطبيقات متعدّدة لهذا المبدأ لا تزال خاضعة للتغيير حتّى يومنا هذا .

وحين يترك الاسلام للعقل حرية الاستنباط والاجتهاد فان ذلك يجب أن يكون في اطار الدائرة العامة التي رسمها الاسلام حين قرّر أصولا للشريعة الاسلامية لا يمكن المساس بها ، في حين ترك المجال مفتوحا في إعمال العقل في الفروع التي تندرج تحت هذه الأصول ، فالعقل لا يمكن له أن يناقش في كون المسكر حراما ، ولا يمكن له أيضا أن يعترض على علّة تحريم الخمر ، ولكن يمكن للعقل أن يناقش ماهية الأنواع التي

---

(1) الآية 38 من سورة الشورى .

يمكن أن تكون مسكرة ، فتلك مسألة تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، فما هو مذهب للعقل الآن لم يكن موجوداً في عصر النبي ﷺ ، ولو ترك الاسلام الانسان رهين النص لأجاز الكثير من مسكرات العصر الحديث وهو بالطبع أمر لا يقرّه الاسلام ولا يرتضيه لأتباعه . ولقد أدرك الرسول ﷺ أهمية العقل ودوره في استنباط الأحكام ، فكان أن شجّع أصحابه على الاجتهاد في المسائل التي تجدّ عليهم ، ومن ذلك ما رواه البغوى عن معاذ بن جبل أن الرسول ﷺ لمّا أرسله الى اليمن قال : كيف تقضي اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله ، قال : فان لم تجد في كتاب الله ، قال : فبسنّة رسول الله ، قال : فان لم تجد في سنّة رسول الله ، قال : أجتهد رأي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله على صدره وقال : الحمد لله ~~الذي وفق رسول الله~~ الذي وفق رسول رسول الله لما يسر رسول الله لما يرضي رسول الله [1] . وفي هذا دليل واضح على أن المسلمين يجب أن يجتهدوا في الأمور التي تجدّ في حياتهم ، والتي لم يرد فيها نص واضح ، ومن هنا عرفت الشريعة الاسلامية قاعدة تغيرّ الأحكام بتغيرّ الزمان ، وعرفت

(1) رواه الامام أحمد في صحيحه ـ ج 5 ـ ط . دار صادر والمكتب الاسلامي ـ بيروت ـ ص 242

أيضاً المصالح المرسلة والعرف كمصدرين من مصادرها التشريعيّة .

وحين يقول الأصوليون بأن الأحكام تتغيّر تبعا لتغيّر الأزمنة والأمكنة ، فهم إنما ينطلقون من قاعدة أن الأحكام الشرعيّة أتت لجلب النفع للناس ودفع الضرر عنهم ، ومن المسلّم به أن حاجة الناس ومصالحهم تتغيّر من زمن الى زمن ومن مكان الى آخر ، ولا سبيل لتحقيق هذه المصالح إلاّ بالاجتهاد الذي يمكن عن طريقه تكييف الأحكام وفقا لمقتضيات البيئة ، وكمثال على تكييف الأحكام بما يستجد من ظروف أذكر ما حدث في شأن الطلاق ، حيث أن القرآن حدّده بطلقتين **﴿ الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾**[1] ، والرسول ﷺ أنكر على من طلّق امرأته ثلاثا بلفظ واحد حين قال : (تلعب بكتاب الله وأنا بين ظهرانيكم)[2] ، ومع أن الاجماع المستند على النص استمر على هذا الحكم الاّ أن سيدنا عمر رضي الله عنه عدّل هذا الحكم ، وأمر بامضاء الطلاق بالثلاث تأديبا لمرتكبه وذلك حين استهتر

---

(1) الآية 229 من سورة البقرة .

(2) أعلام الموقعين ـ ابن القيم ـ جـ 3 ـ ص 48 .

الناس واستهانوا بأمر الطلاق[1] . هذا وهناك الكثير من الأمثلة على تبديل الأحكام تبعا لتبدّل الظروف لا يتسع المقام لذكرها ، ولكن ما يهم في هذه الناحية هو أن اتاحة الاسلام الفرصة لتكييف الأحكام مع مختلف البيئات والأزمان انما يرجع الى كونه دينا عاما جاء للبشرية كلها على اختلاف أجناسها ، وتنوّع بيئاتها .

6 ـ الترخيص للانسان بأن ينال نصيبه من الدنيا بشرط أن يكون ذلك من طريق حلال وهذا المبدأ من شأنه أن يراعي فطرة الانسان التي فطر عليها ، بعكس تلك الدعوات التي تحاول أن تسير بالانسان الى زهد مطلق من شأنه أن يتعارض مع الفطرة الانسانية ، وهو مالا يساير مبدأ مراعاة الواقع الذي أومأت سابقا الى أنّه من شروط العقيدة العالميّة﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾[2] ،﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك**﴾ [3] .

---

(1) معالم الشريعة الاسلامية ـ د . صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1975 م ـ ص 60 وما بعدها .

(2) الآية 32 من سورة الأعراف .

(3) الآية 77 من سورة القصص .

إن الشريعة الاسلامية وهي تخاطب البشرية قاطبة لا يمكن أن تغفل مبدأ الواقعيّة في التشريع ، فلقد تعاملت هذه الشريعة مع الانسان على أساس أنّه روح وجسد ، وأنّه كما يجب على المسلم أن ينّقي نفسه من الدنس والشوائب التي قد تفسد عليه علاقته بربّه أو علاقته بأخيه المسلم ، كذلك يجب عليه أن يهتم بجسده وما يتطلّبه من أكل وشرب ونكاح واستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها ، ولكن يجب أن يكون كل ذلك في اطار ما أحل الله لهذا الجسد من متاع الدنيا . إن الدعوات التي تتجاهل الجسد واحتياجاته تقع في خطأ قاتل ، وذلك لأنّها تنحرف بالانسان عن طبيعته لتجعل منه ملاكا سابحا في اجواء بعيدة عن واقعه وطبيعته التي خلقه الله عليها ، وفي مثل هذا الخطأ وقعت كثير من الدعوات القديمة ، وكان من نتيجة ذلك أن وقف تطوّر العقل البشري ، وتعطلت حضارة الانسان الماديّة .

7 ـ يقرّر الاسلام أن الدين انما شرع لخير الناس وسعادتهم لا لتسخيرهم واذلالهم ، فما العبادات التي فرضها الله تعالى على عباده ، والسنن التي أمر الرسول بها الآ وسائل لفوائد روحانيّة ودنيويّة تأتي من ورائها ، وليست هي مقاصد

تطلب لذاتها ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[1] ﴿ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾[2] ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمّ نعمته عليكم ﴾[3] .[4]
وهكذا فإن التاريخ البشري لم يشهد شريعة أرسخ قواعد في العدل ولا أبعد مدى في المساواة واحترام الحقوق ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعيّة وأشمل لعناصر التطورات الانسانيّة من الشريعة الاسلامية ، كيف لا وهي الشريعة التي أرادها الله لأن تكون صالحة لكل العصور والبيئات .

أمّا الأمر الثالث والأخير الذي يؤكد بوضوح أن الدين الاسلامي هو دين البشرية كلها ، وأن محمدا ﷺ هو رسول

---

(1) الآية 45 من سورة العنكبوت .
(2) الآية 27 من سورة الحج .
(3) الآية 6 من سورة المائدة .
(4) دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدي ـ ج 5 ـ مادة اسلام ـ ط 3 ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ 1971م ـ

للناس أجمعين ، فهو طبيعة الخطاب في الآيات القرآنيّة ، حيث نجد أن خطاب هذه الآيات يتناول الناس أجمعين ، ولا يخص قوما دون آخرين ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ [1] فلفظ الناس له دلالة على الجمع من معناه جمع انسان وانسانة ، أي أن هذا اللفظ يتناول كافة أفراد البشر دون النظر الى جنس أو لون ، فلو كانت الدعوة الاسلامية خاصة بالعرب وحدهم لكان الخطاب بيا أيها العرب افعلوا كذا ، ولا داعي لاستعمال لفظ الناس الذي يتجاوز الأمّة العربية ليشمل كل مخلوق على هذه البسيطة ، وما دامت الدعوة الاسلاميّة لا تخصّ العرب وحدهم بل هي دعوة عالمية فإن الخطاب بيا أيها الناس جاء في كثير من الآيات القرآنيّة ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾[2] ﴿ وما أرسلناك إلاّ كافّة للناس بشيرا ونذيرا ﴾[3] (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا ﴾[4]، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : (هذا خطاب للأحمر والأسود

---

(1) الآية 1 من سورة النساء .
(2) الآية 79 من سورة النساء .
(3) الآية 28 من سورة سبأ .
(4) الآية 158 من سورة الأعراف .

والعربي والعجمي ﴿إنّي رسول الله اليكم جميعا﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنّه خاتم النبيّين وأنّه مبعوث الى الناس كافّة كما قال الله تعالى ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي اليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ وقال تعالى : ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة أنّه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله الى الناس كلهم)[1] ويقول الرازي في تفسيره لهذه الآية أيضا : (هذه الآية تدل على أن محمدا عليه الصلاة والسّلام مبعوث الى جميع الخلق وقال طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية وهم أتباع عيسى الأصفهاني : إن محمدا رسول صادق مبعوث الى العرب وغير مبعوث الى بني اسرائيل ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية لأن قوله يا أيها الناس خطاب يتناول كل الناس ثم قال إني رسول لله اليكم جميعا وهذا يقتضي كونه مبعوثا الى جميع الناس وأيضا فما يعلم بالتواتر من دينه أنّه كان يدعي أنّه

---

(1) تفسير القرآن العظيم ـ إبن كثير ـ ج 3 سورة الأعراف ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط 2 ـ 1970 م ـ ص 235 .

مبعوث الى كل العالمين فإما أن يقال أنّـه كان رسولا حقا أو ما كان كذلك فإن كان رسولا حقّـا امتنع الكذب عليه ووجـب الجزم بكونه صادقا في كل ما يدّعيه فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنّـه كان يدّعي كونه مبعوثا الى جميع الخلق وجب كونه صادقا في هذا القول وذلك يبطل قول من يقول انّـه كان مبعوثا الى العرب فقط لا الى بني اسرائيل)[1] ، وهكذا يتضـح من خلال الكثير من الآيات القرآنيّـة أن سيدنا محمداﷺ رسول الى الناس كافـّة في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن رسالته تعم كل مكلف مهما كان لونه أو جنسه .

وقد ورد أيضا في الحديث الصحيح ما يؤيّـد صحة بعثته ﷺ الى الناس كافّة فقد روى الامام البخاري : (حدّثنا محمد ابن سنان قال: حدّثنا هشيم قال: حدّثنا سيار هو أبو الحكم قال : حدّثنا يزيد الفقير قال : حدّثنا جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : أُعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي . نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأ يمّا رجل من أ مّتي أدركته الصلاة فليصل وأحلّت لي

(1) التفسير الكبير ـ فخر الدين الرازي ـ ح 4 سورة الأعراف ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط 2 — 1978 م ـ ص 302.

الغنائم ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافّة وأُعطيت الشفاعة)[1] ، وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار)[2] ، وروى مسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الاّ موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[3] .

موقف المستشرقين من عالمية الدعوة الاسلاميّة

هناك الكثير من المستشرقين الذي ينكرون أن يكون الاسلام دعوة عالمية؛ ويرى هؤلاء أن سيدنا محمداﷺ بعث الى العرب وحدهم ، وأن الرسالة الاسلامية كانت للأمة العربية دون غيرها ، ومن هؤلاء المستشرق (وليم موير)

---

(1) فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج 2 ـ طبعة مصطفى الحلبي ـ 1959 م ـ القاهرة ص 79 .

(2) صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ ج 1 ـ ح 240 ـ دار احياء الكتب العربية . القاهرة ـ ط 1 ـ 1955 م ـ ص 134 .

(3) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ ج 15 ـ ص 51 .

الذي يقول : (إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد ، وأن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنّه فكر فيها فقد كان تفكيره تفكيرا غامضا ، فان عالمه الذي كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب ، كما أنّ هذا الدين الجديد لم يهيأ إلاّ لها ، وأن محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث الى أن مات ألاّ للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالمية الاسلام قد غرست ، ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا الى الظروف والأحوال أكثر منه الى الخطط والمناهج)[1] ، ويقول المستشرق (كيتاني) : (لم يتخط محمد بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلك الوقت الى هذا الدين)[2] ، ويقول المستشرق (كارل بروكلمان) : (ولقد بعث محمد الى العرب قبل كل شيء ، ولكن كان على دينه الاسلام أن يعمل لاحياء ملّة ابراهيم الخالصة ، التي حرفها اليهود والنصارى ، ونشرها في أرجاء العالم كله . وليس من الميسور

---

(1) تاريخ الاسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ ج 1 ـ ط 9 مكتبة النهضة المصرية ـ 1975 م ـ القاهرة ـ ص 169 .

(2) الاسلام في قفص الاتهام ـ شوقي أبو خليل ـ ط 3 ـ دار الفكر ـ دمشق ـ 1977 م ـ ص 49 .

أن نقرر على وجه الدقة ما اذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية)[1] .

هذه هي بعض آراء الـذين تكلمـوا في هذه القضية ، وهي بالطبع تدل على رأي جمهور المستشرقين ، ومع هذا فمنهم من كان ينظر الى الأمور أحيانا بروح علمية خالصة بعيدة عن التعصب العرقي والمذهبي ، ومن هؤلاء توماس ارنولد الـذي يقول : (لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها . ولما لم يكن هنـاك غـير إلـه واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة . ولكي تكون هذه الدعوة عامة ، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب ، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي (قيل)[2] أن محمدا بعث بها في السنة السادسة من الهجـرة (688م) الى عظماء وملـوك ذلك

---

(1) تاريخ الشعوب الاسـلامية ـ كارل بروكلمان ـ ط 6 ـ دار العلـم ـ بيروت ـ 1974 م ـ ترجمة نبيه فارس والبعلبكي .

(2) تجدر الاشارة هنا الى أن ارنولد يحاول التشكيك في صحة الكتب التـي أرسلها الرسولﷺ الى الملوك ، وذلك عن طريق حكايتها بقيل التي تفيد التضعيف ، وهو يتبع في ذلك الكثير من المستشرقين الذين لا يعترفـون بصحة هذه الكتب .

العصر . . . . . ، على أنه إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت اليهم ضربا من الخرق ، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء . وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الاسلام) [1] . هذا رأي من الآراء العلمية المحضة التي كتبت في هذا الموضوع ، ولئن لم نعتبر هذا ردا على أولئك المستشرقين الذين يرون أن الدين الاسلامي هو دين العرب ، فان هناك الكثير من الباحثين المسلمين الذي ناقشوا آراء موير وكيتاني وغيرهم وفندوها ، ومن ذلك ما رد به أحدهم على موير حيث يقول : (ومن الغريب أن يشك وليم موير في صحة دعوى عموم الرسالة ، وأن يبني شكه هذا على أن محمدا ما كان يعرف غير الجزيرة ، وأنها كانت عالمه الذي لم يفكر في سواه ، وأن هذا الدين لم يهيأ إلا لتلك البلاد ، وأن محمدا منذ أن بعث الى أن مات لم يوجه دعوته الا للعرب دون غيرهم ، فهل خفيت على ذلك المؤرِّخ صلة قريش بدول ذلك العهد ، وما أتاحته لها التجارة من دربة وخبرة بشئون هذه

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ تر . حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين ـ ط 3 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1970 م ـ ص 48 ، 49 .

الأمم وأحوالهم ، وأن محمدا بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة ببلاد الشام ؟) ، ثم يقول بعد أن يذكر قصة تجارة محمد مع خديجة وهجرة النبي الى المدينة : (هل يبعد على هذا الرجل أن يرنو بناظره الى ما وراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانه إن كان من محبي السلطة والحكم ، أو ليفيض عليها من فضل الله الذي عمّر الجزيرة وملأها عدلا وأمنا ودعة وحبا)[1] .

وإذا أمعنا النظر في آراء موير فإننا لا نرى دليلا يؤيدها ، ولا حقيقة تثبتها ، فقوله إن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لبلاد العرب قول مغاير للحقيقة ، فتعاليم الاسلام ومبادؤه وأهدافه التي أوردت بعضا منها آنفا تدل على أنه الدين الصالح لأن يعتنقه كل أفراد البشرية لما يجدون فيه من سماحة وسهولة تجعل الانسان ينعم بالسعادة في حياته وبعد مماته ـ إن اتبع هذه التعاليم وطبقها ـ وآيات القرآن الكريم أيضا تفنّد ما يحاول أن يقرره موير من اختصاص الدعوة الاسلامية بالعرب حيث يقول الباري جل وعلا : ﴿ قل يا ايها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ﴾[2] ﴿ وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا

---

(1) تاريخ الاسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ ص 169 .
(2) الآية 158 من سورة الأعراف .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1] . وأمـا أن محمـدا ﷺ لم يوجه دعوته منذ أن بعث الى أن مات إلا الى العرب وحدهم ، فهذا قول تبطله السيرة النبوية التي تؤكد أن نبيناﷺ قد أرسل الرسل ومعهم الكتب الى زعماء وملوك البلاد المجاورة للجزيرة العربية يدعوهم فيها الى الاسلام ويتوعدهم إن هم لم يتبعوا رسالته ، وينقذوا شعوبهم من ضلال الشرك الـذي يعيشـون فيه ، ومما يبطل قول موير أيضا ما روى أن رسول الله ﷺ قال متنبئـا : «إن بلالا أول ثمار الحبشـــة ، وإن صهيبـا أول ثمار الروم» ، وفي ذلك دليل على أن الرسول عليه السلام كان على يقين من أن الرسالة الاسلامية ستعم جميع الأجناس ، وأنهـا ليست مقصورة على الجنس العربي فحسب ، وقـد كان هذا القول في زمن لم يكن المسلمون يعلمون فيه شيئا عما يتعلـق بحياة الفتح والغزو .

وهناك بعض المستشرقين الـذين يرون أن مسألـة عالمية الاسلام أمر من الأمور التي لم يصل فيها الباحثـون الى رأي قاطع ، ومن هؤلاء المستشرق النيوزيلاندي (سونـدرس)الذي يرى أن هناك آيات تفيد أن محمـدا صلـوات الله عليه قد أراد

---

(1) الآية 38 من سورة سبأ .

لدينه أن ينشر على الناس كافة ، كما أن هناك آيات أخرى تفيد بأنه مكلف بتبليغ العرب وحدهم ويستدل على هذا بقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾[2] ويعلق على هاتين الآيتين بقوله : إن ما تفيده هاتان الآيتان يدعو الى التساؤل عن القرآن العربي هل يخاطب به أناس لا يتكلمون العربية ؟. والحقيقة أن الانسان يقف متسائلا أمام تساؤل سوندرس ، إذ كيف يريد أن تكون لغة الرسالة الموصوفة بأنها عالمية وانسانية إن لم تكن مقصورة على لغة الرسول ؟ إنه بذلك يمنع أن تكون هناك دعوة عالمية وانسانية الا اذا كان صاحبها يتكلم بجميع لغات البشر [3]. ثم بماذا يفسر هذا المستشرق اقبال الكثير من العجم ، من فرس وروم وغيرهم على اعتناق الاسلام وتعلم العربية ، والنبوغ فيها وفي علومها المختلفة ، وفي الكثير من العلوم الاسلامية الأخرى ، هل هم بذلك طفيليون على الاسلام ؟ وهل هم غير مكلفين بالدعوة التي اعتنقوها ؟.

---

(1) الآية 7 من سورة الشورى .

(2) الآية 46 من سورة القصص .

(3) الاسلام دعوة عالمية ـ عباس محمود العقاد ـ ط 1 ـ دار الكتاب اللبناني بيروت ـ 1974 م .

إن الحقيقة التي يثبتها التاريخ القديم والحديث هي أن المسلمين من غير العرب استشعروا عظمة هذه الدعوة وسماحة مبادئها ـ منذ أن وصلتهم الطلائع الأولى التي بشرت بهذه الدعوة وحملتها الى كافة أرجاء المعمورة ـ ، فاشرأبت نفوسهم الى هذه الرسالة الخالدة ، فآمنوا بها وأقبلوا على تعلم الوسيلة التي بها يستطيعون فهم أوامر هذه الرسالة ونواهيها وهي اللغة العربية ، ومن هؤلاء من دانت الأمة الاسلامية لآرائهم كأبي حنيفة [1] والبخاري [2] وسيبويه [3] وغير هؤلاء كثير .

---

(1) هو النعمان بن ثابت التيمي ولد سنة 80 هـ/ 699 م وتوفي سنة 150 هـ/ 767 م . ولد ونشأ بالكوفة ، وهو أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة . انظر :
أ ـ تاريخ بغداد ج 13.
ب ـ النجوم الزاهرة ج 2 .
ج ـ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية .

(2) هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ، ولد في بخاري سنة 194 هـ/ 810م وتوفي سنة 256 هـ/ 870 م ، صاحب أوثق كتاب في السنة وهو المسمى باسمه ، انظر :
أ ـ تذكرة الحفاظ ج 2 .
ب ـ تهذيب التهذيب ج 9 .
ج ـ طبقات الحنابلة ج 1 .

(3) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، ولد في شيراز سنة 148 هـ/ 765 م وتوفي سنة 180 هـ/ 796م ، انظر :
أ ـ ابن خلكان ج 1 .
ب ـ البداية والنهاية حـ ـ 10 .
ج ـ تاريخ بغداد ج 12 .

غير أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن أبينه هو أننا حين نقرر عالمية الدعوة الاسلامية لا يمكن أن ننسى بحال من الأحوال أن هناك علاقة وطيدة بين الاسلام والعروبة ، ذلك أن مشيئة الله اقتضت أن يتحمل العرب وحدهم مسئولية القيام بالدعوة الى الاسلام ونشره بين شعوب العالم ، يقول المولى جل وعلا : ﴿ **الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾[1] ، فالناس الذين اصطفاهم الله للقيام بمسئولية النهوض بالدعوة الاسلامية هم العرب الذين اصطفى الله من بينهم من شرفه بأن يكون مبلغ هذه الدعوة ورسولها . ولا بد أن نقرر أيضا أن الأرض العربية - أقصد الجزيرة العربية - هي المكان الذي اقتضت مشيئة الله ان يكون مسرحا للدعوة الاسلامية ، ومكانا لتجميع البشر عليها ، ومن هذه الجزيرة انطلق العرب بالاسلام ، وانساحوا في الأرض يحملون أرواحهم على أكفهم لنشر دين الله بين الناس دون إكراه لأحد على الايمان ، وقد انتشر الاسلام في فترة زمنية وجيزة في رقعة فسيحة من الأرض ، حيث بلغ انتشار هذا الدين في نهاية القرن الأول

(1) الآية 75 من سورة الحج .

الصين شرقا ، وعبر المضيق ليدخل أوربا غربا[1] .

هذه هي اذا رسالة الاسلام الخالدة التي بعث الله بها نبيه محمدا ﷺ ليبلغها الى الناس أجمعين ، وقد كافح الرسول كفاحا مريرا في سبيل أن تصل دعوته الى كل أذن داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وقد حمل أصحابه معه راية الكفاح الى أن انتقل الى جوار ربه ، ثم استمروا من بعده يحملون راية الكفاح الأولى بنفس العزيمة والاخلاص ، واستطاعوا بتلك النفوس المطمئنة أن ينتقلوا بالدعوة الاسلامية من الجزيرة العربية وينشروها في معظم بقاع الأرض التي مكنهم الله من الوصول اليها .

ولقد أثار موضوع انتشار الاسلام ـ الذي سيكون موضوع هذا البحث ـ ردود فعل عنيفة لدى جميع الأمم والشعوب ، نظرا للسرعة التي اتسم بها ، الأمر الذي جعل أصحاب الديانات الأخرى والمذاهب السائدة ينظرون اليه وكأنه النار التي اشتعلت في هشيم بال فأتت عليه حتى لا تكاد تُبقي فيه شيئا ، وهكذا استمر الصراع بين معتنقي الدين

---

(1) تحديات أمام العروبة والاسلام ـ صابر طعيمة ـ دار الجيل ـ بيروت ـ 1976 م .

الاسلامي ـ الذين وهبوا أنفسهم لنشره ـ وبين المشركين الذين اخذوا يقاومون هذا الدين الجديد بشتى الوسائل وعلى مر العصور التي شهدت الفتح الاسلامي ، الى أن جاء القرن الخامس الهجري الذي شهد تفجر الحروب الصليبية ، والتي عبر فيها الصليبيون عن حقدهم وعدائهم السافر للاسلام وأهله ، والتي أرادوا لها أن تكون نهاية للمجد الاسلامي الذي عم الأرض ، وبداية لمجد صليبي طالما انتظروه وحلموا به ، **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾**[1] . ولكن النتيجة التي لم تكن متوقعة لدى أعداء الاسلام كانت غير ذلك ، فلقد كانت نتيجة مرة ومذهلة ، عبر عنها أحد قادة الحروب الصليبية (لويس التاسع) بقوله : (لا سبيل الى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لأن في دينهم (عاملا حاسما)[2] هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصا في سبيل حماية العرض والأرض ، وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم ،

---

(1) الآية 8 من سورة الصف .

(2) في المصدر (عامل حاسم) .

لأنهم قادرون دوما انطلاقا من عقيدتهـم على المقاومـة ودحـر الغزو الذي يقتحم بلادهـم ، وأنه لا بد من ايجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيّف هذا المفهوم عند المسلمين ، حتى يصبح مفهوماً أدبيا أو وجدانياً ، وإيجاد ما يبرره على نحو من الأنحاء بحيث تسقط خطورته واندفاعته ، وأن ذلك لا يتم الا بتركيز واسع على الفكر الاسلامـي وتحويلـه عن منطلقاتـه وأهدافـه حتـى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية ، وتروض أنفسهم على تقبلهـا على نحـو من أنحـاء الاحتـواء أو الصداقـة أو التعاون)[1] .

وانطلاقا من هذه النتيجة ـ التي عبر عنها شخص مارس العدوان المباشر ضد الاسلام ـ كان على أعـداء الاسـلام ان يغيّروا من أسلوب حربهم ضد الاسـلام وأهلـه ، ومـن هنـا وبتـوجيه من الكنيسـة ـ سيدة الموقف في ذلك الوقـت ـ نشأ الأسلوب الجديد في المواجهة مع الاسلام ، والذي اعتمد على عنصرين أساسيين هما : التبشير والاستشراق ، تكفل العنصر الأول منهما بمحاولة فتنة المسلمين ماديا عن طريق اغراء الفقراء منهم بتقديم المعونات الصحية والتعليمية وغير ذلك من الأشياء

---

(1) الاسلام في وجه التغريب ـ أنور الجندي ـ دار الاعتصام ـ القاهرة .

التي يمكن لها أن تجعل المسلمين أداة طيعة في أيديهم يفعلون بهم ما شاؤوا ، أما العنصر الثاني فقد تكفل برسم الخطط والأساليب للعنصر الأول ، وذلك عن طريق دراسة كل ما يتعلق بأحوال المسلمين من عقيدة وثقافة وحضارة وكل ما له صلة بالاسلام والمسلمين ، حتى يستطيعوا من خلال ذلك أن ينفّذوا ما اقترحه لويس التاسع ، أي يزيّفوا المفاهيم والقيم الاسلامية ، ويجعلوها عديمة الجدوى في محاولة نهائية لفصل المسلم عن شخصيته وكيانه ، يقول صمويل زويمر أحد أقطاب التبشير المسيحي في العالم : (ليس غرض التبشير المسيحي وسياسته ازاء الاسلام هو اخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، ان المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيا مطلقا ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك، ولكن الغاية التي نرمي اليها انما هي اخراج المسلم من الاسلام فقط ليكون ملحدا أو مضطربا في دينه ، وعندها لا يكون مسلما ولا تكون له عقيدة يدين بها ، عندها يكون المسلم ليس له من الاسلام الا اسم أحمد ، والملحد هو أول من يحتقر الاسلام)[1] .

---

(1) الاسلام والثقافة الغربية ـ أنور الجندي ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة .

وهكذا يتضح للمرء أن السبب الرئيسي لاهتمام المستشرقين بالاسلام ، هو خوفهم الشديد من المد الاسلامي الجارف ، الذي يهدم كل المعتقدات البالية والمزيفة التي يعتقدون بها ، وخوفهم الشديد أيضا من ظهور النموذج الجديد المتمثل في الانسان المسلم ، الذي أصبح مصدر خطر عليهم بما يمثله من التزام في العقيدة والأخلاق والمعاملة .

إن المستشرقين حرصوا على دراسة الاسلام بتأثير من الكنيسة التي دفعتهم الى هذه الدراسة ليكتشفوا عناصر القوة في الاسلام فيدعموا بها المسيحية ، ويكتشفوا عناصر الضعف في المسيحية فيبثوها في الاسلام ، يقول المستشرق (هومان استنجل) في كتابه (عقائد الاسلام) : «إننا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الاسلامية ، وفهمنا لنفسية المسلم المتديّن وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما يستخدمه من أوله حتى اليوم ، وحتى نبني من جديد دفاعا جديدا عن العقيدة المسيحية ، دفاعا يضع في حسابه روح الاسلام والتطور الفكري للمسلمين فيما يتعلق بعقائدهم خلال ما يزيد على ألف عام »[1] .

---

(1) الاسلام في وجه التغريب ـ أنور الجندي .

ومن الأسباب الرئيسية لاهتمام المستشرقين بالاسلام هو تنفيذ رغبة الكنيسة الملحة في الحيلولة بين الشعوب النصرانية والاسلام ، وذلك عن طريق تشويه الاسلام وحجب محاسنه لاقناع قومهم بعدم صلاحيته لهم كنظام للحياة ، وقد ظهرت هذه الرغبة في أعقاب الحروب الصليبية وعودة المحاربين الى أوربا يحملون صورة مشرقة لمعاملة المسلمين لهم ، وسماحة الدين الذي يعتقدون به[1] .

هذه هي ـ بصورة مختصرة ـ الأسباب الكامنة وراء اهتمام المستشرقين بالاسلام ، واقبالهم على دراسته والبحث في قيمه ومبادئه وأهدافه ، والعمل على إفساد كل هذه القيم والمبادىء ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وسأحاول ـ باذن الله ـ أن أوضح هذه الأسباب بصورة أكثر شمولا عند الحديث ـ في الفصل الأول من هذه الدراسة ـ عن نشأة الاستشراق وتطوره وغاياته ووسائله .

---

(1) أساليب الغزو الفكري للاسلام ـ د. علي محمد جريشة وآخر ـ ط1 ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ـ 1977 م .

الفصل الاول

الاستشراق

- مفهومه
- نشأته
- تطوّره
- دوافعه
- اهدافه
- وسائله

يجدر في مستهل هذا الفصل التعرف على مفهوم كلمة الاستشراق ، وتطور دلالتها التاريخية ، حتى يكون الحديث بعد ذلك عن تاريخ الاستشراق وأهدافه ووسائله قائما على تصور واضح لمفهومه .

إن كلمة الاستشراق مشتقة من الشرق ، وهي تعني مشرق الشمس ، ومن ثم تدل الكلمة على الاهتمام بما يحويه الشرق من علوم ومعارف وسمات حضارية متنوعة ، ويكون المستشرق هو الانسان الذي وهب نفسه للاهتمام بما يدور في الشرق من مجالات مختلفة ، وفي المقابل أيضا نجد كلمتي مستغرب واستغراب تدلان على الميل نحو الغرب اعجابا أو تقليدا أو دراسة . ولكن هل يمكن تحديد المفهوم الجغرافي للشرق الذي انكب المستشرقون على دراسته ؟ إن تحديد هذا المصطلح جغرافيا غير ممكن ، نظرا لاختلاف الجهة المحدد منها ، فالشرق بالنسبةللألماني مثلا هو غير الشرق بالنسبة للأمريكي ، وهو أيضا غير الشرق بالنسبة للباكستاني ، كذلك اختلف تحديد الشرق جغرافيا تبعا لاختلاف العصور (فقد كان البحر المتوسط في العصور الوسطى هو مركز الحياة في

العالم ، وكان هذا المركز هو الذي يحدد مفهوم كلمة (شرق) و(غرب) ، ثم انتقل مركز الأحداث بعد نهاية هذه العصور الوسيطة الى شمالي غرب أوربا ، ثم اتسعت حدود العالم بعد قيام حضارات كثيرة راقية في القارتين الأمريكيتين ، وأدى هذا الاتساع الجغرافي والحضاري الى تغيّر مضمون ومفهوم كلمة الشرق)[1] . ومع أن بعض الكتاب تحرج في تحديد المدلول الجغرافي لكلمة شرق ، إلا أن البعض الآخر حاول أن يحدد جغرافيا معنى هذه الكلمة وخاصة الكتّاب الغربيون ، فمعنى ORIENT في دائرة معارف العالم : هو اسم يطلق على الأقطار والجزر الأسيوية وفي بعض الأحيان يطلق هذا المصطلح على القسم الغربي من آسيا والتي تسمى أيضا الشرق الأدنى[2] ، ويرى بعض من الكتاب الآخرين أن مصطلح ORIENT يستعمل للأقطار التي تشرق منها الشمس في مقابلة مصطلح OCCIDENT الذي يستعمل للأقطار التي تغرب فيها الشمس

---

(1) المستشرقون والتاريخ الاسلامي ـ د. علي حسني الخربوطلي ـ سلسلة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ عدد 111 ـ مطابع الأهرام التجارية ـ القاهرة ـ 1970 م .

(2) THE WORID BOOK ENCYCLOPEDIA. «VOL. 14 -1964 .U.S.A - P. 647.

ويتضمن أوربا ونصف الكرة الغربي[1] .

إن أهم ما يمكن قوله في هذا المجال هو أن كلمة شرق حسب دلالتها التاريخية القديمة أو المعاصرة تعني مجموعة الأقطار المنتشرة في آسيا وبعض الأقطار في افريقيا ، وهي الأقطار المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد يضاف الى هذا أيضاً بعض أجزاء من أوربا الشرقية ، وذلك لأن هذه الأقطار قد ربطت بينها روابط تاريخية كثيرة ، فكثير من هذه الأقطار يرتبط بعامل الدين ، وكثير آخر يرتبط برابط اللغة ، الى غير ذلك من الروابط . ولعل أحسن تفسير لكلمتي الشرق والغرب حضاريا ما ذكره أحد الباحثين حين قال : (أما الغرب فهو اصطلاح حديث جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار من تقسيم العالم الى شرق وغرب ، يعنون بالغرب أنفسهم ، ويعنون بالشرق أهل آسيا وافريقية الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم ، وجرينا نحن على هذا الاستعمال . والكلمة وان كانت حديثة اصطلاحا واستعمالا فهي قديمة في مفهومها ودلالتها . فقد كان

(1) The american educator Encyclopedia - vol 11 -1966 -Chicago -P. O 86.

في العالم من زمن قديم قوتان تصطرعان وتتنازعان السيادة ، احداهما في الشرق والأخرى في الغرب تمثل ذلك في الصراع بين الفرس والروم ، ثم في الصراع بين المسلمين والروم ، ثم في الصراع بين المسلمين والصليبيين ، ثم في الصراع بين العثمانيين والأوربيين مدا وجزرا . ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلا في آسيا وافريقية ، وبين الغرب ممثلا في أوربا وأمريكا)[1] . ان هذا التفسير يجمع بين مدلول الكلمة ونشأتها في العصور الحديثة ، ثم يربط بين المدلول الحديث للكلمة وبين مدلولها الحضاري والتاريخي ، ولذلك فإن هذا التعريف يمكن أن يكون تعريفا كاملا لهذه الكلمة انطلاقا من المدلول التاريخي لها ، والذي يضع في حسابه وقوع العالم تحت سيطرة قوتين احداهما شرقية والأخرى غربية .

والاختلاف في تحديد مفهوم كلمة شرق ينشأ عنه اختلاف في تحديد المستشرق من هو ؟ فبعض الباحثين يقول : (اننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن

---

(1) الاسلام والحضارة الغربية ـ د. محمد محمد حسين ـ ط 1 ـ دار الارشاد ـ بيروت ـ 1969 م ـ ص 11 .

الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية)[1] ويقول آخر : (المستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية ، فلا بد أن يتوافر في هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها في العالم المتخصص المتعمق ، حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بإنتاجه العلمي . ولا بد أن ينتمي هذا العالم الى الغرب ، ولو كان هذا العالم يابانيا أو اندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق ، لأنه شرقي بحكم مولده وبيئته وحضارته ، وقد تكون الدراسات الشرقية التي يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أو اقتصادا ولكنها ترتبط بالشرق)[2] ، ويقول الأستاذ محمد كرد علي : (المستشرقون هم من يعنون بالبحث في لغات الشرق وعلومه)[3] ومثل هذا الرأي يراه البعلبكي الذي يقول : (المستشرق هو الدارس للغات الشرق وفنونه وحضارته)[4] ، أما ادوارد سعيد فيقول : (إن لفظ الاستشراق لفظ أكاديمي صرف ، والمستشرق

---

(1) انتاج المستشرقين ـ مالك بن نبي ـ مكتبة عمار ـ القاهرة ـ 1970 م .
(2) المستشرقون والتاريخ الاسلامي ـ د. علي الخربوطلي .
(3) مجلة المجمع العلمي العربي ـ مجلد 3 .
(4) قاموس المورد ـ منير البعلبكي ـ ط 13 ـ دار العلم للملايين ـ 1979 م .

هو كل من يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه ، وكل ما يعمله هذا المستشرق يسمى استشراقا)[1] ، ويقول الأستاذ عبد الوهاب حمودة : (المستشرق كل من تجرد من أهل الغرب الى دراسة بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية ، وتقصّي آدابها طلبا لمعرفة شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها أو علومها وآدابها الى غير ذلك)[2] .

ومع أن الباحثين يكادون يجمعون على تحديد المستشرق بأنه كل من تخصص في دراسة الشرق أو في جانب من جوانب علومه المختلفة ، إلا أنهم يختلفون في هوية الذي يمكن أن يسمى مستشرقا ، فمنهم من يخصص الكلمة لكل من يتخصص في دراسة الشرق سواء كان غربيا أم شرقيا ، ومنهم من يخرج الشرقي من دائرة المستشرقين باعتبار أنه غير غريب على الشرق حتى يستحق مصطلحا خاصا ، والذي أود الاشارة

ORIENTALISM -EDWARD .W. SAID -NEWYORK -NOVEMBER (1) 78.

(2) من مقال بعنوان : (من زلات المستشرقين) ـ عبد الوهاب حمودة ـ مج . لواء الاسلام ـ مجلد 4 ـ عدد 6 ـ السنة الرابعة ـ نوفمبر 1950 م/ صفر 1370 هـ .

اليه هنا هو أن المتبادر الى الذهن وخصوصا لدى غير المتخصصين هو أن المستشرق من تخصص في دراسة الاسلام والعرب من غير المسلمين ، ولعل هذا راجع الى أن معظم بحوث هذه الفئة تركزت حول العرب والاسلام ، وكانت في بدايتها ذات طابع حاقد مما شد انتباه المسلمين وجعلهم يطلقون لفظ المستشرق على كل من يتناول علومهم ومعارفهم وحضارتهم بالبحث والتحليل . يقول الأستاذ حمود الغول : (إن غمامة من الشك والغموض هي التي تسيطر عليك عندما تسمع كلمة مستشرق . . . . رغم أن هناك صلات متينة متصلة بين العلماء العرب والمستشرقين خارج البلاد)[1] ، واذا صح هذا التعليل فإن كلمة مستعرب أجدر بأن يوصف بها هؤلاء الذين تخصصوا في دراسة حضارة العرب والمسلمين ، ويكون لفظ المستشرق قد تعيّنَ لكل من درس الشرق عموما سواء درس الاسلام أو غيره من الديانات الأخرى ، وسواء درس العرب أو غيرهم من الأمم الأخرى . والحقيقة أنه رغم ما عرف به الباحثون المستشرق فإنه في نظري تبقى كلمة

---

(1) من مقال بعنوان : (المستشرق أقل دراية بأسرار اللغة العربية) ـ حمود الغول ـ مج . العربي ـ مجلد سنة 1958 م .

المستشرق تدل دلالتين أكاديمية وهي ماتناولها الباحثون الذين أشرت اليهم آنفا ، وعامة وهي كل من تعرض لحضارة العرب والاسلام بالدراسة وخاصة من اتصف بالدس والكيد على الاسلام .

نشأة الاستشراق

لا يوجد دليل قاطع يدل على البداية الحقيقية والمنظمة للاستشراق ، فالمصادر التي تعرضت لهذا الموضوع تختلف في تحديدها لبداية الاستشراق ، فمن الباحثين من يرى أنه بدأ بمحاولات فردية منذ أواخر القرن العاشر الميلادي[1] ، ومنهم من يرى أنه بدأ في بعض البلدان الأوربية في القرن الثالث عشر الميلادي ، أو ربما قبل ذلك بقليل[2] ، ومنهم من يرى أنه بدأ منذ الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 م ، حينما قدم عدد كبير من العلماء في جميع فروع المعرفة مع نابليون ، الذي اصطحب معه مطبعة عربية ساعدت هؤلاء العلماء في القيام

---

(1) الاستشراق والمستشرقون ـ د. مصطفى السباعي ـ ط 2 ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ 1979 م .ـ ص 14 .

(2) الفكر الاسلامي الحديث ـ د. محمد البهي ـ ط 6 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1973 م ـ ص 532 .

بأبحاث متعددة[1] .

ورغم اختلاف الباحثين هذا ، وتشعب الآراء في هذا الموضوع ، يمكن تقسيم تاريخ الاستشراق الى المراحل الآتية :

أولا : مرحلة الانبهار بالحضارة العربية والاتجاه اليها :

هناك اتجاه كبير يميل الى أن الاستشراق بدأ منذ أن دقت جيوش الفتح الاسلامي أبواب أوربا ، وقيام الدولة الاسلامية في الأندلس ، التي أسست نهضة وحضارة اسلامية لم تشهدها أوربا من قبل ، وحينذاك أخذ الأوربيون الغارقون في الجهل والتخلف الحضاري يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين ، وبلوغهم هذا المجد العظيم ، فبدأوا يدرسون علوم المسلمين ولغاتهم لعلهم يظفرون بما يوقفون به هذا التيار الجديد ، أو يكتسبون من علومه ما ينفعهم في انقاذهم من تخلفهم وجهلهم . ويؤكد بعض الباحثين أن بعض الرهبان اتجهوا الى الأندلس وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية في أوربا في أيام ازدهارها ، وتعلموا في مدارسها ، وتثقفوا بعلوم المسلمين

---

(1) المستشرقون والتاريخ الاسلامي - د. على الخربوطلي .

وثقافتهم ، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم ، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات ، واستطاعوا أن يترجموا بعض الكتب العربية الى لغاتهم ، وكان من طلائع هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت) الذي انتخب بابا لكنيسة روما سنة 999 م بعد أن عاد الى بلاده متزودا بعلوم الأندلس ومعارفها ، ومنهم أيضا الراهب (بطرس المحترم 1092 ـ 1156) ، والراهب (جيراردي الكريموني 1114 ـ 1187) [1] ، والى جانب تلك المحاولات الفردية كانت هناك محاولات أخرى أكثر تنظيما ، وهي التي اتخذت شكل البعثات الرسمية التي وفدت على الأندلس للدراسة وتلقي العلم ، وأولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا ، والبعثة الثانية انجليزية وعلى رأسها الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز ، وكانت الثالثة من مقاطعات (سفوا) و (البافاريا) و(سكسونيا) و(الرين) وقد ضمت هذه البعثة حوالي سبعمائة طالب وطالبة [2] .

---

(1) لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة الخطيب ـ ص 187 .

(2) المستشرقون والتاريخ الاسلامي ـ د. علي الخربوطلي .

وكان من أبرز سمات هذه المرحلة الاتجاه الى ترجمة الكثير من أمهات الكتب العربية الى اللاتينية ، ونتيجة للرغبة الشديدة في ترجمة الكتب العربية أنشأ (دون رايموندو الأول) رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين سنة 1130 م حيث تم بواسطته نقل أمهات كتب الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة[1] ، وفي هذه المرحلة أيضا تمت أول ترجمة للقرآن الكريم وكانت في سنة 1143 م على يد راهب انجليزي يدعى (هرمان) ، ولكن هذه الترجمة لم تظهر الى حيز الوجود نظرا لخوف الكنيسة من تأثيرها في الرأي العام المسيحي بما تعطيه من مفاهيم اسلامية ربما تساعد في انتشار الاسلام بين المسيحيين ، ولذلك ظلت هذه الترجمة حبيسة دير (كلوني CLUNY) بجنوب فرنسا ، ولم تظهر الا في سنة 1543 [2] .

---

(1) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ج 1 ـ ط 3 ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ 1946 ـ ص 99 .

(2) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ـ د. محمد صالح البنداق ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ 1980 م ـ ص 90 .

ثانيا : مرحلة ما بعد الحروب الصليبية :

يعتبر الاستشراق في هذه المرحلة نتيجة من نتائج الحروب الصليبية ، حيث ان الصليبيين الذين انهزموا عسكريا ، وفشلوا في غزو المسلمين بقوة السلاح ، بدأوا في التفكير جديا لغزو المسلمين فكريا حتى يتمكنوا من زحزحتهم عن عقيدتهم الراسخة التي كانت السبب الرئيسي في تصدّيهم للصليبيين ، ومما يؤيّد هذا تلك الوثيقة التي تتضمن وصية القديس لويس ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة ، التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوع لويس في الأسر على أيدي المصريين في مدينة المنصورة ، وقد أعطى الملك لويس فدية عظيمة للخلاص من الأسر ، وبعد أن عاد الى فرنسا أيقن أنه لا سبيل الى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تديّنهم بالاسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لحماية ديار الاسلام وصون الحرمات والأعراض ، ولذلك لا بد من البحث عن سبيل آخر يمكن عن طريقه تحويل التفكير الاسلامي ، وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري بأن يقوم العلماء الأوربيون بدراسة الحضارة الاسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد الذي

يغزون به الفكر الاسلامي[1] . وعلى اثر ذلك بدأت حركة جادة من الرهبان لتعلم اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية ، وقضى مجمع ڤيينا سنة 1311 م برئاسة البابا (اكلمنتس الخامس) أن تؤسس في باريس واكسفورد وبولون وصلمنكة أي في عواصم العلم في هذه البلدان دروس عربية وعبرانية وكلدانية[2] ، وهي ما عرفت أخيرا بكراسي الدراسات الشرقية في العديد من الجامعات الغربية ، ثم بدء بعد ذلك في تأسيس المعاهد التي أنيط بها حمل أعباء الدراسات العربية ، وذلك مثل مدرسة (بادوي) العربية ، وتبع ذلك بدء الأديرة في دراسة المؤلفات العربية المترجمة الى اللاتينية ، وهي لغة العلم في بلاد أوربا في ذلك الوقت ، ثم أخذت الجامعات الغربية في اعتماد الكتب العربية واعتبارها مراجع للدراسة ، ومع انشاء المعاهد التي تخصصت في الدراسات العربية بدأت العناية الخاصة بالتراث الاسلامي وجمعه ، وبدأت أيضا ترجمة بعض المؤلفات العربية في الأدب واللغة .

(1) أساليب العزو الفكري ـ د. علي جريشة ـ ص 19 .

(2) من محاضرة بعنوان : (المستعربون من علماء المشرقيات) ـ محمد كرد علي ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة فاروق الأول ـ مجلد ٤ ـ سنة 1948 م .

ثالثا : مرحلة التنظيم الفعلي :

حين جاء القرن الثامن عشر ـ وهو الوقت الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الاسلامي والاستيلاء على ممتلكاته ـ ، ظهر الاتجاه الحقيقي والمنظم للاستشراق ، وقد تمثّل ذلك في نبوغ بعض علماء الغرب في هذا الميدان وذلك بإصدار العديد من المجلات في كثير من بلاد الغرب ، والاستيلاء على الكنوز العربية المتمثلة في المخطوطات والوثائق الهامّة ، والانتقال بها الى المكتبات والمتاحف الغربية ، وذلك عن طريق شرائها من أصحابها الذين لا يعرفون قدرها أو سرقتها من المكتبات العامة حين كان الاستعمار الغربي يمتلك زمام الأمور في كثير من بلاد العالم الاسلامي ، وهذا هو سر وجود الكثير من نوادر المخطوطات العربية الآن في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، وفي الكثير من المكتبات الغربية الأخرى ، وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد ، مع العلم بأن العدد في تزايد مستمر منذ ذلك الوقت نظرا لنشاط المستشرقين واهتمامهم بهذه الكنوز ، التي تمثل في الواقع التراث الحقيقي للأمة العربية والاسلامية [1] .

---

(1) أجنحة المكر الثلاثة ـ عبد الرحمن الميداني ـ ص 90 .

وبمرور الوقت ازدادت هذه الحركة تنظيما ، وازدادت اتساعا ، وشعر العديد من روادها بضرورة وجود رابط يجمع أعضاء هذه الحركة ، ويعطي لهم الفرصة للتلاقي والتشاور ، وقد تم ذلك عندما عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس سنة 1783 م ، وتبع ذلك الكثير من هذه المؤتمرات التي يتدارس فيها المستشرقون خطط عملهم وتنظيم جهودهم ، بغية الوصول الى هدفهم المنشود الذي هو حلقة من سلسلة التآمر والكيد على الاسلام والمسلمين . ولم يظهر الاستشراق كعلم له أهميته العظمى ، وتخصص ضروري الا عندما شعرت الحكومات الغربية بحاجتها الى دراسة أحوال البلاد الشرقية التي استعمرتها ، من حيث لغتها وديانتها واقتصادها وحضارتها ، فأخذت هذه الحكومات تنفق الأموال الطائلة على أبحاث المستشرقين ، وترصد الميزانيات للمنظمات والهيئات التي يعملون من خلالها ، بغية الحصول على دراسات شاملة يمكن عن طريقها التكيف مع طبائع البلدان المستعمرة ، وبالتالي تثبيت أقدام الاستعمار في تلك المناطق ، وتشير بعض المصادر التاريخية الى وجود تعاون وثيق بين كبار المستشرقين والمسئولين في وزارتي الخارجية والمستعمرات في الكثير من البلدان الغربية ، وهذا التعاون وتلك الدراسات لا يزالان الى

يومنا هذا ، كما أن الدراسة في أقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية هي دراسة موجهة توجيها سياسيا واستعماريا لخدمة أغراض معيّنة ، ومن ثم يصعب على الطالب العربي أو المسلم اختيار الموضوع الذي يريده ، واذا تمكن من اختياره فإن فرصة النجاح فيه معدومة .

وكنتيجة لإنفاق الأموال الطائلة على أبحاث المستشرقين تميزت هذه المرحلة بظهور العديد من الكتب والموسوعات التي تناولت الثقافة العربية والاسلامية في مختلف نواحيها ، كما ازدحمت المجلات العلمية أيضا بالمقالات التي كتبها المستشرقون عن التاريخ والحضارة والفكر الاسلامي ، والملاحظ على هذه الكتابات عموما ، بل على هذه المرحلة بكاملها ، أنها تميزت بتغير شكلي في الأسلوب الذي كان ينتهجه المستشرقون في الهجوم على الاسلام ، حيث أنهم انتقلوا من الهجوم المباشر الى الهجوم المتستر أو الخفي فإذا كنا في المراحل السابقة نرى كتابات لا تتورع في اظهار حقدها على الاسلام ، فإننا في هذه المرحلة نرى أسلوبا جديدا قد يفهم منه الانصاف ، ولكن عند التدقيق فيه لا تكاد تجد الا التشكيك والدس والكيد للاسلام وأهله .

ومع ظهور هذا النوع من الكتابات التي انبهر بها السطحيون من ذوي الميول الغربية ظهرت دعوى تشير الى أن منهج الاستشراق في البحث قد تغير ، وذلك بأن أصبح يتجه الى الموضوعية والتجرد ، ولذلك فإن كتابات المستشرقين في هذه المرحلة يجب ان تلقى نظرة جديدة جادة تقوم على الثقة والاحترام . ولكن ما مدى صحة هذا الكلام ؟ وما مدى صدق هذه الدعوى ؟

إن نظرة جادة على مؤلفات بعض مستشرقي العصر الحديث والمعاصر وكتاباتهم عن الاسلام تشير الى أن بعض هذه الكتابات قد تغيرّت شكلا ولم تتغيرّ مضمونا ، بينما ظل البعض الآخر من هذه الكتابات على نفس النهج السابق الذي سلكه مستشرقو المراحل السابقة ، انظر الى جولد تسيهر مثلا (1850 — 1921) وهو يقول : (لكي نقدر عمل محمد من الوجهة التاريخية ، ليس من الضروري أن نتساءل عمّا اذا كان تبشيره ابتكارا وطريفا من كل الوجوه ناشئا عن روحه ، وعمّا اذا كان يفتح طريقا جديدا بحتا . فتبشير النبي العربي ليس الا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية ، عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها

تأثرا عميقا)[1] . ويقول كارل بروكلمان : (أعلن ـ أي النبي ﷺ ـ ما ظَنّ أنه قد سمعه، كوحي من عند الله)[2] ، ويقول برنارد لويس : (لا يعرف الا القليل عن نسب محمد وأوائل حياته ، بل أن هذا القليل قد أخذ يتناقص شيئا فشيئا كلما تقدم البحث الأوربي وأثار شبهة أخرى حول المادة المضمنة في الأخبار الاسلامية)[3] ، ويقول توراندريه : (إن أفكار محمد غير متجانسة وغير منسجمة ومضطربة أشد الاضطراب)[4] .

هذا هو ما يقوله كتاب هذه المرحلة ، بل زعماء الاستشراق فيها ، وإذا كان هذا شكل أبحاثهم فأين النظرة العلمية الثاقبة ، وأين التجرد الذي ادعاه البعض ووصف به هذه المرحلة من تاريخ الاستشراق ، إن اضفاء صفة العلمية على أبحاث المستشرقين أمر قال به عدد منهم في محاولة لمسح

---

(1) العقيدة والشريعة في الاسلام ـ اجناس جولد تسيهر ـ تر . محمد موسى وآخرون ـ دار الكاتب المصري ـ القاهرة ـ 1946 م ـ ص 5 .

(2) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ ص 36 .

(3) المستشرقون والاسلام ـ د . عرفان عبد الحميد ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ـ 1969 م ـ ص 16 وما بعدها .

(4) نفس المصدر السابق .

تلك الصورة القاتمة التي تكوّنت في ذهن القارىء العربي أو المسلم على أبحاث المستشرقين ، وقد وجدت هذه الدعوى آذانا صاغية من بعض المثقفين الذين جرفهم تيار الانبهار بكل ما هو غربي ، والذين يمكن أن نطلق عليهم لفظ (المستغربين) في مقابل لفظ المستشرقين مع الاختلاف في مسار كل منهما .

رابعا : مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

من سمات هذه المرحلة ـ والتي تمتد الى يومنا هذا ـ الاستمرار في عقد المؤتمرات وتطوير أسلوبها ، وتوسيع دائرة عضويتها ، وكذلك زيادة عدد المجلات العلمية التي بدأت تصدر في كل بلد أوربي تقريبا ، وكذلك ازدياد نشاط أقسام الدراسات الشرقية في الكثير من الجامعات الغربية وذلك نتيجة للأعداد الكبيرة من الطلاب الوافدين على هذه الأقسام للدراسة العليا ، ومن الملاحظ على هذه المرحلة أيضا هو الأنخفاض الواضح في مستوى عمل المستشرقين ، حيث لم نعد نرى ذلك النوع من المستشرقين الذي يفنون أعمارهم في تحقيق مخطوط أو في جمع شتات مؤلف مندثر في أماكن متفرقة . على أن المنهج الاستشراقي في الكتابة والبحث لا يزال ـ حتى

يومنا هذا ـ يسير على نفس المنهج الـذي بدأ به ، كما أن الارتباط بين المستشرقين وبين الدوائر الاستعمارية والكنيسة لا يـزال قائما حتى الآن ، بل ربما زاد هـذا الارتباط كثيرا نتيجة للدعم المستمر من الحكومات الغربية ، والذي استطاع معـه المستشرقـون تغيير أساليبهـم ووسائلهـم ، وتطويرهـا بتطـور الظروف والأحوال .

ومن الجدير بالذكر هنا هو أن الدعم المالي للاستشراق لم يأت فقط من الحكومات الغربية ، وإنما كانت هنـاك أيضـا مساعدات أخرى وردت على المستشرقين من بعض الحكومات العربية أيضا ـ وإن كانـت هذه متأخـرة بعض الشيء ـ وقـد تحدث الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي عن ذلك فأكد أن بعض الجامعات الغربية وخصوصا البريطانية منها قد تسلمت مبالغ مالية من بعض الحكومـات العـربية ومـن هذه الجامعـات اكسفـورد واكستروكامبـردج ، وذكر أن مدير مركز الشرق الأوسط بجامعة كامبردج قد اعتـرف بتسلمـه لمنـح عربية مع العلم بأنه نشر آراء ذكر فيها أن القرآن ليس وحيا إلهيا وإنما هو من إنشاء محمد نفسه ، وتساءل الطيباوي هل يعلم المتبرعون العرب بأن هذا الأستـاذ قد ورط نفسـه في سياسـات جنـوب

الجزيرة العربية في الأيام الأخيرة للاستعمار البريطاني ، وشارك أيضاً في إذكاء الخلافات العربية الداخلية .... ، هذا وقد كانت هذه المساعدات قد وردت من الكويت ، الامارات العربية ، قطر ، السعودية ، وغيرها من الأقطار العربية الأخرى ، وقد تراوحت المبالغ المقدمة بين 2000 ، و 50000 جنيه استرليني[1] .

ومع أن الاستشراق ظل بعد الحرب العالمية الثانية يسلك نفس الطريق الذي سار فيه من قبل ، فان دعوى تحرره من آثار السياسة والاستعمار والتعصب ، وإثارة الشبهات حول المسلمين وتراثهم ، وأن عمل المستشرقين أصبح علميا خالصا ، لا تسلم لهؤلاء الذين يزعمون ذلك ، وأوضح دليل يرد عليهم دعواهم تلك الكتابات المعاصرة والتي لا تختلف في جوهرها عما كتبه المستشرقون في أخطر أيامهم وأشدها هجوما على الفكر الاسلامي .

وجملة القول أن الاستشراق ما دام ينطلق في أبحاثه من النظرة القائمة على أن الاسلام ليس دينا صحيحا ، وأن محمدا ﷺ ليس نبيا مرسلا ، والقائمة أيضا على التوجيه

---

(1) SECOND CRITIQUE OF ENGLISH -SPEAKING ORIENTALISTS
A L TIBAWI - LONDON - 1979

المقصود نحو بلبلة أفكار المسلمين وغيرهم حول الاسلام ، فان دعوى الاتجاه العلمي الخالص للاستشراق في العصر الحاضر لا يمكن التسليم بها أو تصديقها .

دوافع الاستشراق

يكاد يجمع جمهور الباحثين في موضوع الاستشراق على أنه بدأ بهدف ديني محض ، نشأ إثر شعور المسيحيين بالخطر نتيجة الانتشار السريع والواسع للاسلام ، ثم ازداد هذا الشعور قوة اثر فشل الصليبيين في حملاتهم العسكرية ضد المسلمين ، الأمر الذي جعلهم يفكرون في غزو من نوع آخر ، يثأرون به لهزيمتهم العسكرية ، ويحققون به سيطرة فكرية من شأنها أن تساعد في وقف التيار الاسلامي ، وذلك عن طريق اعطاء صورة خاطئة عن الاسلام تشكك المسلم في دينه ، وتبعد غير المسلم عن التفكير في اعتناق الاسلام .

غير أن الاستشراق أثناء رحلته التاريخية الطويلة مرت عليه عوامل أخرى غيرت أهدافه تبعا لتغير هذه العوامل ، فنجد أنه في تاريخ الاستشراق يبرز كل من الدافع الاستعماري ، والدافع الاقتصادي ، والدافع السياسي ،

وأيضا الدافع العلمي ، وقبل أن أفصل هذه الدوافع أود الاشارة الى أن الاستشراق كان في الأصل محاولة لوقف التيار الاسلامي ، ثم تطور بعد ذلك للقيام بعمل مضاد للاسلام في دياره ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعاونت معه قوى الاستعمار والتبشير والصهيونية ، وهي كلها تعمل من أجل غاية واحدة ، هي إضعاف المسلمين وتشويه عقيدتهم ، والازراء بهم في كل المحافل الدولية ، فـ(الاستعمار يرى أن المفهوم الاسلامي السليم من شأنه أن يعطي المجتمع المسلم قوة تحول دون سيطرته واستمراره . . . ، أما التبشير فانه يستهدف الحيلولة دون توسع الاسلام وانتشاره حتى لا يكون منازعا أو منافسا للمسيحية في البلاد التي يحاول أن يقوم بالتبشير فيها ، . . . . وقد أضيف الى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية التي تستهدف من سيطرتها على الاستشراق الحيلولة دون تجمع العرب في وحدة تقاوم الصهيونية وتواجه اسرائيل)[1] .

وبتتبع لما كتبه بعض الباحثين عن أعمال المستشرقين ، وما يسعون لتحقيقه من مآرب ، ومدى صلتهم بالاستعمار

---

(1) الاسلام في وجه التغريب ـ أنور الجندي .

والتبشير ، وكذلك حال الدول الغربية قبل أن تنبت فيها نابتة الاستشراق والى حالها بعد ذلك ، نجد أن دوافع الاستشراق تتمثل في الآتي :

أولاً : الدافع الديني :

كنت قد أشرت في موضوع نشأة الاستشراق الى أنه نشأ بجهود بعض الرهبان الذين تثقفوا في الأندلس ، ونهلوا من معارفها وعلومها ، والواضح أن هذه الجهود استمرت بعد ذلك ومعظم القائمين بها من الرهبان الذين تسخرهم الكنيسة لخدمة أهدافها الحقيقية وهي تشويه الاسلام ، وتوجيه المطاعن الى النبي ﷺ ، والدس في علوم المسلمين وتراثهم ، وذلك من أجل أن يثبت رجال الكنيسة لجمهور المسيحيين أن الاسلام دين لا يستحق الانتشار ، وأن المسلمين قتلة وسفاكو دماء ، يميلون الى اشباع رغباتهم وملذاتهم الجسدية تنفيذا لتعاليم دينهم الذي يبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي ، واستمر هذا الهجوم المركز على الاسلام والذي تحركه عصبية رجال الكنيسة الى أن أطل العصر الحديث باختراعاته وحضارته الجديدة التي زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين ، الأمر الذي اشتدت معه حاجة المستشرقين في هذا الوقت الى تشديد

الهجوم على الاسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من تزييف في عقائدهم وكتبهم المقدسة .

ولعله من المناسب هنا أن أذكر بعض آراء المستشرقين في هجومهم على العقيدة الاسلامية والتي تبرز بصورة جلية دور الدافع الديني في هذه الآراء ، ولكنـي سوف لا أنـاقش هذه الآراء أو أحاول اثبات بطلانها ، فالقـارىء سـيرى بوضـوح زيف هذه الآراء ، وسيرى أيضا مدى سيطرة هذا الدافع على معظم كتابات المستشرقين وأبحاثهـم ، يقـول بروكلمان عن انتقال النبـيﷺ الى الـرفيق الأعلى : (وعلى الرغـم من أن سنّيه لم تكن قد تجـاوزت الستـين على الأكثـر فقـد تطـرق الضعف الى نشاطه بسبب من المصاعب التي حفلت بها سنواته الأخيرة وبسبب من الحياة الزوجية الواسعة التي عاشها)[1] ، ويقـول عن عقيدة التـوحـيد الخـالـص لله التـي يدين بها المسلمون : (إن الوحدانية التجريدية التي كانت الى حد كبير أساس قوة الاسلام على غزو القلوب واكتساب الاتباع لم تنشأ الا تدريجا ولقد سبقت منا الاشارة الى نزوع النبي الأولي الى

---

(1) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ ص 67 .

الاعتراف بالآلهة المكية الرئيسية شفعاء عند لله)[1] ، ويقول كوفين من جامعة واشنجتون في كلام له حول الاسلام : (إن الشريعة الاسلامية التي دان بها وقدسها مائتان وثلاثة وثلاثون مليونا من الناس قد حفظت في تضاعيفها شرورا اجتماعية تئن منها الانسانية ومع هذا قدست الشريعة هذه الشرور باسم الدين)[2] ،ويقول ماسينيون : (إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسايجب أن يلونوا بالمدنيةالمسيحية)[3] . هذه نماذج بسيطة جدا من أقوال كثيرة امتلأت بها مؤلفات المستشرقين ، وهي لم تصدر أبدا الا بدافع حقد صليبي غرسته الكنيسة في قلوب هؤلاء الباحثين منذ الصغر حتى يشبوا كارهين لهذه الشريعة ، وحاملين لواء الحرب ضدها ، والا فما الداعي لذكر هذه الآراء التي يعوزها المنطق الصحيح ، والبرهان الدامغ وتكذبها الحقائق التاريخية التي سطرت تاريخ كل الأديان السابقة ، وهذا القول ليس من باب التعصب للاسلام ، ولكنه ايراد لشيء واقع أحس به كل متتبع لأبحاث

---

(1) نفس المصدر السابق ـ ص 70 .

(2) الاسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد علي ـ ط 3 ـ ج 1 ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ص 15 .

(3) لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة ـ ص 192 .

الغـربيين عن الاسـلام ، واعتـرف به الغـربيون أنفسهـم في العديد من المناسبات ، يقول كارادي فو : (إن محمـدا ظل وقتا طويلا معروفا في الغرب معرفة سيئة ، فلم توجد خرافة ولا فظاظة الا نسبوها اليه)[1]. ويقول برناردشو : (لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الاسلام بطابع أسـود حالك اما جهلا واما تعصبا انهم كانوا في الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه فعندهم أن محمدا كان عدوا للمسيح ولقـد درست سيرة محمد الرجل العجيب وفي رأيي انه بعيد جدا من أن يكون عدوا للمسيح وانمـا ينبغـي أن يدعـي منقـذ البشرية)[2] .

ثانياً : الدافع الاستعماري :

عندما فشل أعـداء الاسـلام في حروبهـم الصـليبية لم ييأسوا ولم يركنوا الى الراحة ، بل أخذوا يتحينـون الفرصـة لاستعمار المسلمـين فكريا وسياسيا واقتصـاديا ، ولما تم لهـم الاستيلاء على بلاد المسلمين اثر الحرب العـالمية الأولى ، بدأ

---

(1) نظرات استشراقية في الاسـلام ـ د. محمد علاب ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ نقلا عن كتاب (المحمدية) للبارون كارادي فو .

(2) من مقال بعنوان (الاستشراق والدراسات الاسـلامية) ـ عبد القهـار العاني ـ مجلة كلية الدراسات الاسلامية ـ بغداد ـ سنة 93 هـ/ 73 م .

المستعمرون في تشجيع الدراسات الاستشراقية نظرا لحاجتهم الملحة الى فهم أوضاع المسلمين في البلاد التي استعمروها ، حتى يتسنى لهم العمل على اضعاف روح المقاومة لديهم ، وبث الفرقة والوهن في صفوفهم ، وقد اتخذوا لذلك وسائل عديدة ، أهمها التشكيك بتراث المسلمين وحضارتهم وقيمهم وعاداتهم ، والتبشير بحضارة الغرب المادية والانفتاح عليها ، وكذلك تفتيت وحدة المسلمين عن طريق احياء مفاهيم جديدة تثير الفرقة والشقاق ، وتذكي الحساسيات الدينية والطائفية ، والمثل واضح في سوريا ولبنان وشبه الجزيرة العربية .

ولعل أخطر هدف استعماري حاول المستشرقون وأتباعهم تنفيذه هو محاولة القضاء على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، وأحد المقومات الأساسية للوحدة العربية ، فلقد تعرضت هذه اللغة الى محاولات عديدة كادت أن تعصف بها وتطمسها في أجزاء كثيرة من بقاع العالم العربي ، وأخص بالذكر تونس والجزائر والمغرب ومحاولات الفرنسة في هذه الدول . وفي الوقت الحاضر يقوم المستشرقون بتبني ما هو أخطر من ذلك وأفظع ، فهم يحاولون اجهاض اللغة العربية عن طريق توجيه الدراسات العليا في كثير من الجامعات العربية

والغربية من دراسة الفصحى الى دراسة العامّية ، وتعميق البحث في اللهجات المحلية التي يتعامل بها كل قطر ، فالمستشرقون الذين يحتلون كراسي الدراسات الشرقية في الكثير من الجامعات الغربية يرفضون أي اتجاه يرمي الى تعميق البحث في الفصحى ، ومحاولة تجديد أساليب وطرق تدريسها ، ويشجعون ويرعون كل دراسة تقوم في الاتجاه المقابل ، يقول الأستاذ انور الجندي : (وفي مختلف الدعوات الخطيرة التي أحدثت تحولات فاصلة في تاريخ الاسلام والمسلمين في العصر الحديث كان الاستشراق هو قائد الشبهة ثم يتبعه الكتاب الذين يكتبون بالعربية من أهل التبعية والتغريب والشعوبيين ، وكان ذلك واضحا في الدعوة الى العامية بدأها ويلكوكس وويلمور وغيرهم وتابعها سلامة موسى ولطفي السيد ، وفي الدعوة الى الاقليميات والقوميات الضيقة والفينيقية والفرعونية بدأها فمبري وكرومر وتابعه طه حسين ولطفي السيد وغيرهم) [1] .

ثالثا : الدافع الاقتصادي :

يرى بعض الدارسين لميدان الاستشراق أن هناك دافعا اقتصاديا وراء تشجيع الدراسات الاستشراقية ، وذلك يتمثل

(1) الاسلام في وجه التغريب ـ أنور الجندي .

في رغبة المستعمرين في غزو البلاد الاسلامية اقتصاديا بهدف الاستيلاء على ثرواتها الطبيعية ومؤسساتها الاقتصادية ، واماتة صناعاتها المحلية ، حتى تكون البلاد الاسلامية ميدان استهلاك لما تنتجه الأيدي الغربية فكان أن شجعوا الدراسات الاستشراقية حتى تكشف لهم عن طبيعة العقلية العربية وكيفية التعامل معها[1] ، ولعل بعضهم يعترف بدعم المؤسسات الرسمية للمستشرقين فيقول رودي بارث : (ونحن جميعا المتمتعين بهذه النظم نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلا في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الامكانيات اللازمة لاجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار)[2] . وقد جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء سنة 1639 م الى المسئولين في جامعة كمبردج والتي طلبوا فيها انشاء كرسي للدراسات العربية والاسلامية ما يلي : (يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة وذلك بالعمل من اجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية وتوسيع حدود الكنيسة ـ اذا شاء الله ـ في الوقت المناسب ونشر

---

(1) أجنحة المكر الثلاثة ـ عبد الرحمن الميداني ـ ص 93 .
(2) الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية ـ رودي بارث ـ ترجمة د. مصطفى ماهر ـ القاهرة .

هدى الدين المسيحي بين اولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة) [1] .

رابعا : **الدافع السياسي :**

بعد كفاح ونضال متواصل استطاعت بعض الأقطار العربية والاسلامية التخلص من الاستعمار الغربي ونيل استقلالها ، وعند ذلك اقيمت علاقات دبلوماسية بين البلاد الغربية والاسلامية ، واقتضى التفكير الاستعماري أن يكون في قنصليات الدول الغربية وسفاراتها رجال لهم باع طويل في ميدان الدراسات الاستشراقية ، وذلك لكي يتحمل هؤلاء مهمة الاتصال برجال الفكر والثقافة للامتزاج بهم ، وبث الاتجاهات السياسية المختلفة بينهم حتى يكونوا أداة منفذة لكل مخططات الاستعمار وأساليبه ، وكم كان هذا العامل أساسا في تفجير الكثير من الصراعات الفكرية التي نتج عنها تغير في الحكومات أو تغير في بناء هيكل الدولة ، والمثل واضح في الانقلابات العسكرية وفي اثارة الفتن التي تحدث من آن لآخر في المنطقة العربية والاسلامية ، يقول أحد الباحثين (لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة

(1) المستشرقون والاسلام ـ د. عرفان عبد الحميد ـ ص 13 ، 14 .

المستعمرات ، يترددون على رجالاتها لمعرفة ما جد وتغير من القرارات ، وأن هذه البعثات التي يقومون بها الى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية كما يزعمون تقصد وجه العلم خالصا ، وإنما هي في الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس المفكرة الجاثمة في الوزارتين المذكورتين ، تطوف انحاء الشرق باسم العلم منقبة باحثة ، حتى اذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت الى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات تصب فيها معلوماتها طروبة فخورة ! وكثيرا ما كانت هذه البعثات (العلمية) تمنع من دخول بعض البلاد الشرقية ، وقد تطرد منها أحيانا على أسوأ حال) [1] .

خامسا : الدافع العلمي :

هناك قلة قليلة من المستشرقين الذين أقبلوا على دراسة العلوم العربية والاسلامية بدافع علمي محض ، بغية الاستفادة من تراث وحضارة هذه الأمة وافادة أقوامهم بها ، وهؤلاء بالطبع كانوا قليلي الأخطاء اذا ما قيسوا بجمهرة المستشرقين الآخرين ، والسبب في قلة أخطائهم أنهم أقبلوا على البحث

---

(1) من مقال بعنوان (أعراض المستشرقين) ـ محمد روحي فيصل ـ مجلة الرسالة ـ العدد 111 ـ السنة 3 ـ جمادى الأولى 1354 هـ/ أغسطس 1935 ص 1331 .

بروح علمية بعيدة عن الأهواء السياسية والتعصبات القومية والدينية،فجاءت مؤلفاتهم مصبوغة بصبغة الحقيقة العلمية ، وأثبتت بكل وضوح للعالم الغربي حقيقة هذا الدين وأصالة هذه الحضارة ، وأثبتت في المقابل زيف وافتراء بقية المستشرقين وحقدهم ، يقول كارلايل في كتابه الأبطال : (لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي الى ما يظن من أن دين الأسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هؤلاء الملايين الفائتة الحصر والاحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أمّا أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا ، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها ألاّ تخلق) [1]. ويقول دريول في كتابه (المسألة الشرقية) : (في الزمن الذي كانت فيه ايطاليا تتخبط في

(1) الاسلام والحضارة الغربية ـ محمد كرد علي ـ ص 65 .

دياجي الحروب ، ولا سيما على عهد برابرة المملكة المقدسة قبل انتشار النور العظيم الذي انبعث من نهضتها ، كان الفتح العربي في طرفي البحر المتوسط أعظم وأخصب من الفتح الروماني وقد دامت ممالكه قرونا ، وكانت مصانعه أعظم أثرا من مصانع رومية ؛ وما هي الا عنوان ثقافة عالية جدا وقد كان لهم الأثر المشهود الى آخر القرن الخامس عشر) [1] . على أن أمثال هؤلاء الكتاب المنصفين لا يوجدون الا حين يكون لهم من الموارد الخاصة التي تمكنهم من التخلص من سيطرة المؤسسات الكهنوتية والاستعمارية ، ثم ان مؤلفات أمثال هؤلاء لم تكن تلقى رواجا لا عند رجال الدين ولا رجال السياسة ولا في الأوساط العامّة ، فهي اذا لا تدر عليهم ربحا ومن ثم كان أمثال هؤلاء الكتاب قليلين جدا ، وكانوا في أغلب الأحيان يلوذون بالصمت خوفا على أنفسهم وأولادهم من الموت جوعا .

سادسا : دوافع أخرى :

يرى بعض الباحثين أن للاستشراق دوافع أخرى جانبية ، قد يكون بعضها شخصيا متصلا بمزاج بعض الناس

---

(1) المصدر السابق .

الذين توفر لهـم المال والوقـت ، فاتخـذوا الاسـتشراق وسيلـة للتنقـل والترحـال بـين الأمـم الشرقية للاطـلاع على ثقافتهـا وحضارتها . وهناك نوع آخر من المستشرقين دخلوا هذا الميدان استرزاقا عندما ضاقت بهم سبل العيش في أمـاكن أخـرى ، ومنهم من دخل هذا الميدان نتيجـة عدم قدرتـه الفـكرية على الوصول الى مستوى العلماء في العلوم الأخرى ، ومنهـم من دخله تخلصا من مسئولياته المباشرة في مجتمعه المسيحي[1] . على أن هذه الأصنـاف لم تكن بالكثـرة حتـى يمـكن اعتبـار هذه الدوافع رئيسية في ميدان الاستشراق ، بل كانت قليلة لا تكاد تذكر ، ولـذا رأيت الاشـارة اليهـا دون التفصيل فيهـا وذكر شواهد عليها .

اهداف الاستشراق

إن معرفة الدوافع الحقيقية للاستشراق هي التـي تحـدد الهدف الذي يسعى اليه المستشرقون بعنايتهم بدراسة الاسلام والمسلمين ، فهذا العدد الهائل من المستشرقين في كثير من بلاد العالم الذين سخروا كل جهودهم ، بل وأفنـوا أعمارهـم في

---

(1) لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة الخطيب ـ ص 198 .

دراسة وتحليل حضارة غريبة عنهم ، بالتعاون مع الدوائر الاستعمارية التي تغدق عليهم الأموال ، وتمدهم بكل الامكانيات ، كل ذلك يحمل في طياته أهدافا كبيرة يسعى هؤلاء لتحقيقها والاستفادة منها ، ولعل أهم هدف سعى اليه المستشرقون في فترة من فترات التاريخ ، بل ولا زالوا يسعون اليه الى الآن ، هو محاولة اعطاء صورة مشوهة عن الاسلام كدين ، وعن الشرق كحضارة ، وعن العربية كتراث وقومية ، وذلك حتى يمكن من خلال هذه الصورة تنفير الكثيرين ممن اشرأبت نفوسهم لتفهم الاسلام واعتناقه ، وفي تحقيق هذا الهدف خدمة كبيرة للكنيسة وللحركة التبشيرية بصفة عامة .

ثم يأتي بعد ذلك الهدف الأكبر وهو القاضي بتحطيم الاسلام من داخله عن طريق تشكيك المسلمين في كتابهم ونبيهم وتراثهم ، حتى يتم فصلهم عن دينهم ، وتفتيت وحدتهم ، لأن في تمسكهم بهذا الدين وحدة وقوة من شأنها أن تهدد الكيان الغربي ولأن في تمسكهم بهذا الدين رقيا وتقدما وحضارة مادية ومعنوية من شأنها أن تؤثر في مجرى حضارة الغرب المادية الزائفة ، وهذا التخوف والحذر من العقيدة

الاسلامية لم يعد سرا ، بل أعلن عنه كثير من المستشرقين في بحوثهم ومؤلفاتهم ومجلاتهم العلمية ، وها هي مجلة العالم الاسلامي تقول : (إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ، ولهذا الخوف أسباب منها : أن الاسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عدديا بل هو دائما في ازدياد واتساع ، ثم ان الاسلام ليس دينا فحسب بل ان من أركانه الجهاد ولم يتفق قط أن شعبا دخل في الاسلام ثم عاد نصرانيا) [1] . هذا هو الاسلام في المفهوم الغربي ، ومن ثم فان كل الجهود يجب ان تتوحد لتحويل المسلمين عن التمسك بعقيدتهم ، ولتحقيق هذا الهدف قاموا بالخطوات التالية :

أولاً :التشكيك في رسالة محمد ﷺ ، وذلك واضح في مؤلفات المستشرقين الذين يحاولون ابعاد صفة النبوة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويفسرون بعض مظاهر الوحي التي كان يراها الصحابة عند نزول الوحي على النبي بأنها نوع من الصرع أو التخيلات الذهنية ، وأحيانا يرجعونها الى أمراض نفسية قديمة ، وفي هذا المعنى يورد الدكتور عبد الحليم محمود نص بعض الأسئلة الموجهة الى بعض

(1) نقلا عن كتاب (أجنحة المكر الثلاثة) ـ عبد الرحمن الميداني .

المستشرقين ، رأيت ان أقتطف منهـا هذا الجـزء : (مـا هي العوامل في بعثة محمد ورسالته ؟ إنها نوبات الصرع كما يفتري نولدكه . وكيف تكون نوبات الصرع عاملا في البعثة ؟ سلوا عن ذلك نولدكه . ولكن المستشرق (دوغويه) يعتقد أن هذا بعيد الاحتمال ، ويعلل ذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة ، على حين أن حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط عليه الوحي . ثم يقول الدكتور عبد الحليم : ولا نكاد ننتهي من هدم (نوبات الصرع) حتى يؤكد (اسبرفر) أنها نوبات هستيريا اشتهرت باسم شوتلاين) [1] .

هذا هو تخبط المستشرقين في تفسير مظاهر الوحـي التـي كانت تظهر على النبيﷺ ، ومع أنهم لا ينكرون ظاهرة الوحي أصلا ، لأنهم يؤمنون بأنبياء آخرين فهم إما يهود أو نصارى ، ولكنهم عندما يتحدثـون عن رسـول الاسـلام تتحـرك فيهـم ظاهرة التعصب الأعمى فلا يجدون تفسـيرا لذلك غـير ذلك الهذيان الذي أوردت نموذجا منه .

ثانيا : ولا يقف التشكيك عند صحة الرسالة المحمدية

(1) أوربا والاسلام ـ د. عبد الحليم محمود ـ مطابع الأهرام التجارية ـ ص 126 وما بعدها .

بل يتعداه الى التشكيك في دستور الاسلام الخالد والمعجزة الباقية القرآن الكريم ، فهم يرون أن محمدا استمد القرآن من كتب الأمم السابقة ، وحين يواجهون بالردود العلمية الصحيحة لا يجد الكثير منهم الا أن يقول إن القرآن راجع الى ذكاء محمد وعبقريته وقوة بيانه ، وهذا نموذج من آرائهم حول القرآن الكريم ، يقول ولهوزن : (يبرز في القرآن شأن القدرة الالهية تارة ، وشأن العدل الالهي تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يحس به النبي (عليه السلام) بما في ذلك من تناقض لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظري في العقائد)[1] ، ويقول دي بوير : (قبل الرعيل الأول من المؤمنين ما في القرآن من تناقض وهو الذي نعلله نحن بتقلب الظروف التي عاش فيها النبي (عليه السلام) وباختلاف أحواله النفسية[2]) .

ثالثا : التشكيك في الدين الاسلامي نفسه ، وأنه ليس دينا منزلا من عند الله ، بل هو مستمد من الديانتين اللتين سبقتا ظهور الاسلام وهما اليهودية والنصرانية ، ويعللون لذلك

(1) المستشرقون والاسلام ـ د . عرفان عبد الحميد ـ ص 17 .
(2) نفس المصدر السابق ـ ص 18 .

بوجود نقاط التقاء بين الديانتين السابقتين والدين الاسلامي ، وهذا ليس بمستغرب فهو راجع الى وحدة الرسالات ومصدرها الواحد وهو لله تبارك وتعالى ، ولكن الغرابة في قولهم ان الرسول عليه السلام قد اتصل بعناصر يهودية ونصرانية ، واستقى منها بعض المفاهيم والعقائد التي وضعها في القرآن ، فهذا عبارة عن تشكيك حاقد يحاولون به نسبة القرآن الى الرسول ﷺ ، واثبات أن القرآن لم يأت بجديد بقدر ما هو اعادة للديانتين السابقتين ، وهذا هذيان ولغط لا يحتاج حتى الى مناقشة أو رد ومن هذه النماذج قول جولد تسيهر : (تبشير النبي العربي ليس الا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها والتي تأثر بها تأثرا عميقا) [1] ، ويقول كارل بروكلمان : (وليس من شك في أن معرفته (أي الرسول عليه السلام) بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية الى أبعد الحدود ، وحافلة بالأخطاء وقد يكون مدينا ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي ولكنه مدين بذلك دينا أكبر للمعلمين المسيحيين الذين عرفوه

---

(1) العقيدة والشريعة ـ أجناس جولد تسيهر .

بانجيل الطفولة وبحديث أهل الكهف السبعة وحديث الاسكندر وغيرها من الموضوعات التي تتوافر في كتب العصر الوسيط)[1] .

رابعا : التشكيك في صحة السنة النبوية ، وذلك لما تمثله من دعامة متينة في صرح الشريعة الاسلامية ، لكونها المصدر الثاني من مصادر التشريع ، ويستند المستشرقون في دعوتهم هذه الى ما دخل في رواية الأحاديث النبوية من دس وتحريف ، متناسين جهود العلماء في تصحيح السنة واثبات ما نسب الى الرسول مما اختلق عليه . ولا مجال لفصل القول في هذا الموضوع ، ويمكن الرجوع الى بعض المصادر التي اهتمت به وكتبت فيه كتابة علمية رصينة)[2].

خامسا : الى جانب كل ما تقدم كان هناك تشكيك في معظم جوانب التراث الاسلامي العلمي والحضاري ، فهم يرون أن الفقه الاسلامي مستمد من الفقه الروماني ، ويرون أن اللغة العربية غير قادرة على مسايرة التطور العلمي حتى تظل

---

(1) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ ص 39 .

(2) يرجع في هذا الموضوع الى كتاب (السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي) د . مصطفى السباعي ، ففيه حديث مفصل حول نظرة المستشرقين وافتراءاتهم حول صحة السنة النبوية .

الأمة العربية عالة على المصطلحات الغربية ، وكل ذلك كان بهدف اضعاف ثقة المسلمين بتراثهم الفكري والحضاري ، وبث روح الشكوك في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا ، وذلك حتى يتسنى للاستعمار تشديد وطأته عليهم ، ونشر ثقافته الدخيلة بينهم .

وسائل الاستشراق

لتحقيق الأهداف السالفة الذكر اتجه الاستشراق الى استعمال كل الوسائل التي من شأنها النيل من الاسلام وأهله ، وقد تنوعت وسائلهم واختلفت باختلاف الأوقات والظروف ، ومن تلك الوسائل ما يلي :

1 ـ تأليف الكتب في الموضوعات المختلفة التي تتحدث عن الاسلام والمسلمين ، معتمدين في ذلك على المامهم البسيط باللغة العربية ، مما أوقعهم في الكثير من الأخطاء المقصودة وغير المقصودة ، فكتبوا في الدراسات القرآنية وفي الحديث والفقه والفلسفة والتصوف واللغة والأدب الخ .

2 ـ اصدار المجلات العلمية التي تحوي الكثير من البحوث حول الاسلام وحول الشرق عموما ، ومن أشهر تلك المجلات (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية) بلندن ، ومجلة

(الجمعية الشرقية الأمريكية) ومجلة (جمعية الدراسات الشرقية) بمدينة جامبير بولاية أوهايو ، ومن أخطر المجلات ذات الطابع الاستشراقي الحاقد مجلة (العالم الاسلامي) التي انشأها عميد التبشير العالمي (صمويل زويمر) سنة 1911 م ، وللمستشرقين الفرنسيين مجلة تحمل نفس الاسم وتصدر بنفس الروح .

3 ـ امداد الارساليات التبشيرية بما تحتاج اليه من الخبراء المستشرقين الذين يساهمون بخبرتهم في هذا المجال ، فالاستشراق عبارة عن هيئة استشارية عليا تعمل على رسم الخطط واظهار الدراسات التي يجدها المبشرون وسيلة جاهزة للعمل بقوة ضد الاسلام محاولين بذلك ايقاف توسعه ، ولعله من العسير جدا الفصل بين الاستشراق والتبشير ذلك أن زعماء حركة الاستشراق هم أيضا أعضاء مرموقون في حركة التبشير ، كما أن الاثنين يسيران بتوجيه واحد ، مستمد من الدوائر الاستعمارية والكنسية ، وكذلك يتلقيان مواردهما المالية من مصدر واحد ، ولذلك فلا غرابة أن يكون الاستشراق عونا وسندا للتبشير في انجاح مهمته .

4 ـ القاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية ،

ومحاولة توثيق علاقاتهم بالجامعات العربية مما جعلهم ـ وتحت وطأة الاعجاب العربي بكل ما هو غربي في العصرالحديث ـ يستدعون لالقاء المحاضرات في الجامعات العربية والاسلامية ، ليتحدثوا عن الاسلام في ديار الاسلام بروح بعيدة عن الاسلام ، يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي : (هذا من تقلبات الدهر وعجائب أمره ، لقد مر على المسيحيين في أوربا حين من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال الى الأندلس ، ليتعلموا كتابهم المقدس ـ التوراة ـ من علماء المسلمين . أما الآن فقد انقلب الأمر رأسا على عقب حيث أصبح المسلمون ـ واأسفاه ـ يرجعون الى أهل الغرب (أوربا وأمريكا) يسألونهم : ما هو الاسلام وما هو تاريخه ، وما هي حضارته ؟ ليس هذا فقط ، بل قد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم ، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الاسلامي . وكل ما يكتبونه عن الاسلام والمسلمين لا يجعلونه مادة للدراسة في كلياتهم وجامعاتهم فقط ولكن يؤمنون به ايمانا راسخا مع أنهم ـ أعني أهل الغرب ـ قوم لا يسمحون لأحد اذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل

فيما يتعلق بدينهم وتاريخهم ولا في أتفه الأمور) [1] .

5 ـ نشر المقالات في الصحف المحلية للبلاد العربية والاسلامية ، وقد استطاعوا أن يستأجروا عددا من هذه الصحف لنشر مقالاتهم والترويج لأفكارهم .

6 ـ محاولة الوصول الى المؤسسات العلمية الهامة في البلاد العربية والاسلامية وذلك كتسلل البعض منهم ووصولهم الى المجامع اللغوية ، كالمجمع اللغوي في مصر الذي كان من ضمن أعضائه المستشرق (جب GIBB) والمستشرق (ونسنك WENSINK) والمستشرق (ماسينيون MASINYON) ، وكان أيضا للمستشرقين نصيب بارز في عضوية المجمع العلمي العربي في دمشق ، ومن أشهر من نال شرف هذه العضوية : المستشرق الدانمركي (بيدرسون PEDRSON) والمستشرق الايطالي (كيتاني KETANI) والمستشرق الكولومبي (جيتهل JOTIHEL) ، ولقد تنبه بعض العلماء المسلمين الى خطورة وجود مثل هؤلاء في مجامعنا اللغوية والعلمية ،

---

(1) لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة الخطيب ـ نقلا عن كتاب (الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة) ـ ص 271 .

فأثاروا الخصومات والزوابع التي أدت الى تنبه باقي العلماء وبالتالي الى طرد هؤلاء الدخلاء من عضوية هذه المجامع ، ومن الأمثلة على ذلك تلك المناقشة التي أثارها الدكتور الطبيب حسين الهراوي في المجمع اللغوي في مصر والتي انتهت بخروج المستشرق وينسنك من عضوية المجمع [1] .

7 ـ عقد المؤتمرات الاستشراقية التي يتدارسون فيها كيفية تحسين خططهم وتطويرها وفق ما يستجد من ظروف جديدة في الوسط الذي يعملون فيه ، وقد بدأت هذه المؤتمرات منذ حوالي سنة 1873 م ولا تزال تعقد دوريا الى الآن وفي أماكن مختلفة من العالم .

8 ـ انشاء الموسوعة الاسلامية ، وهو عمل جاء نتيجة تخلي القادرين من المسلمين عن كتابة مثل هذا العمل المهم والضروري لكل أمة ، الأمر الذي وجد معه المستشرقون ميدانا لا يزاحمهم فيه أحد ، فأنشأوا دائرة المعارف الاسلامية ، وأصدروها بعدة لغات ، واستطاعوا ان يبثوا

---

(1) أ ـ الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ـ د. محمد البهي ـ ص 538 وما بعدها .
ب ـ الاسلام في وجه التغريب ـ أنور الجندي ـ ص 153 .

فيها ما شاؤوامن سمومهم وأفكارهم ، ورغم ذلك ـ ومع الأسف ـ فان هذه الموسوعة تعتبر مرجعا هاما لكثير من مثقفي الأمة العربية والاسلامية حتى هذه الساعة .

9 ـ استيلاؤهم على كراسي الدراسات العربية في الجامعات الغربية ، فمن المعلوم انه يوجد بالجامعات الغربية أقسام للدراسات الشرقية ، وهذه الأقسام في الغالب يتزعمها مستشرق يوجه الأبحاث حسب أهوائه ورغبته ، وقد ذكر الدكتور السباعي أنه التقى بالبروفوسور اندرسون ، وأخبره أنه أسقط أحد الطلاب عندما تقدم للحصول على درجة الدكتوراه في التشريع الاسلامي من جامعة لندن وسبب الاسقاط أن هذا الطالب برهن في رسالته على أن الاسلام أعطى للمرأة حقوقها الكاملة ، وذلك أمر لا يعجب استاذه (اندرسون) ، الذي قال : إن هذا الطالب يقول ان الاسلام يمنح المرأة كذا ، وقرر الاسلام للمرأة كذا ، فهل هو ناطق رسمي باسم الاسلام ؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعي حتى يقول هذا الكلام[1] . ومن خلال ذلك نرى كيف يتحكم هؤلاء المستشرقون في

(1) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ـ د. مصطفى السباعي ـ ط 2ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ 1976 ـ ص 13 .

الدراسات والأبحاث التي تكتب تحت اشرافهم ، وكيف يرفضون كل انصاف للاسلام ، ولا يتورعون في اجهاض أي محاولة فكرية تجلي عن المفاهيم الاسلامية كل ما علق بها من الشوائب والأوهام .

اصناف المستشرقين

إن الدارس لهذا الموضوع سوف يجد أمامه في أغلب الافتراضات ثلاثة أصناف من المستشرقين :

أ ـ صنف كتب في علوم العرب والمسلمين بحقد وكراهية مبتعدا بذلك عن المنهج العلمي ، ومتأثرا في كل ما كتب بروح العداء التي زرعتها فيه الكنيسة .

ب ـ صنف كتب بروح علمية محاولا افادة قومه بما يكتب عن هذه الحضارة ، ونتيجة لسيطرة الروح العلمية عليه وابتعاده عن تأثير الكنيسة فقد أكن الحب والاعجاب للاسلام كشريعة ودين ، ولكنه لم يسلم ، وقد يسجل على هذا الصنف وقوعه في بعض الأخطاء غير المقصودة ، نتيجة عدم اتقان اللغة العربية وفهم أسرارها .

ج ـ صنف كتب بروح علمية صادقة ، ودرس الاسلام دراسة

عميقة حتى اهتدى الى اعتناق الاسلام ، وأصبح سيفا بارزا من سيوف الاسلام ، يدافع عنه بكل ما أوتي من امكانيات ، ويرد الشبه والمكائد التي يثيرها اعداء الاسلام ، وهي مهمة تخلى عنها الكثير من مسلمي الوراثة الذين ورثوا الاسلام عن آبائهم وأجدادهم .

ويذهب بعض المعاصرين الى أن المستشرقين يمكن تصيفهم الى ثلاث فئات : (فئة قدمت للعالم أبحاثا قيمة عميقة ، وفي نفس الوقت كانت عادلة في حكمها ، متزنة في دراستها ، منصفة في نظرتها ، فأشادت بالاسلام وبالرسول وبحضارتنا العربية الاسلامية . وهناك فئة ثانية تعمدت الاساءة حينما أمسكت بالقلم لدراسة تاريخنا وحضارتنا وان كانت في نفس الوقت قد توصلت الى أبحاث ذات قيمة علمية ، أما الفئة الثالثة فقد وقعت في المحظور ، ولم تنصف الاسلام وتاريخه وحضارته ، ولكن بدون عمد أو قصد ، أما لجهل بالعقيدة ونظمها أو قصور في البحث أو لعدم التمكن من اللغة العربية) [1] . ويرى باحث آخر أن المستشرقين ضروب ثلاثة أيضا : (ضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ في نشر

(1) المستشرقون والتاريخ الاسلامي ـ د. علي الخربوطلي ـ ص 121 .

الكتب وفي فهم النصوص ولكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة منها ـ ضرب أثرت في دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون اليه ، ومن المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذي يسمو به الانسان لاذلال الانسان أو استعباده أو الطعن في تراثه وعقيدته بغير الحق ـ فريق أوتي سعة العلم والتمكن من العربية والاخلاص في البحث والتحرر والانصاف)[1] . أما الاستاذ مالك بن نبي فيرى أن أي دراسة لهذا الموضوع لا بد وأن تصنف المستشرقين الى نوعين :

أ ـ من حيث الزمن طبقة القدماء مثل جربر دوريباك والقديس توماس الأكويني ، وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولد زيهر .

ب ـ من حيث الاتجاه العام نحو الاسلام والمسلمين لكتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الاسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها)[2] .

---

(1) المنتقى من دراسات المستشرقين ـ صلاح الدين المنجد ـ جـ 1 ـ ط 2ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ 1976 م ـ ص 1 .
(2) انتاج المستشرقين ـ مالك بن نبي ـ مكتبة عمار ـ القاهرة ـ 1970 م ـ ص 7 .

ولنعد الآن الى تصنيفنا الأول لنلقي الضوء على كل صنف وذلك بذكر بعض البارزين في كل صنف ، فمن الصنف الأول الذين اشتهروا بطابع العداء ـ وهم كثيرون يصعب التعرض لهم بالتفصيل ـ يأتي المستشرق القسيس الأب لامانس (1862 ـ 1937) الذي قال عنه الأستاذ المرحوم محمد كرد علي : (عاهد لامانس تاريخ الاسلام على مناقضته ، وتمحض للحط من قدر العرب منذ عرفوا بين الأمم)[1] ، وفي هذا المقام أيضاً يبرز اسم جولد تسيهر وشاخت وديلاسي أوليرى ، وكثيرون غيرهم .

أما من الصنف الثاني فاننا نجد الكونت هنري دي كاستري الذي درس الاسلام دراسة عميقة وكتب عنه كتابا قيما نشر بعنوان (الاسلام سوانح وخواطر) ترجمه المرحوم فتحي زغلول ، وفي هذا الكتاب تحدث عن كثير من جوانب الاسلام سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول ﷺ ، أو فيما يتعلق بالتعاليم الاسلامية ، وقد تحدث ـ فضلا عن ذلك عن آراء مواطنيه خصوصاً القدماء منهم في صورة من السخرية

---

(1) الاسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد على ـ .

والتهكم[1] ، ومن هؤلاء أيضاً أديب روسيا الكبير (تولوستوي) الذي عرف حقيقة الدين الاسلامي وعرف أيضاً الحملات الظالمة التي يشنها الحاقدون على الدين الاسلامي وعلى الرسول ﷺ فكتب رأيه في هذا الدين الذي أعجب به ، وتحدث عن رسوله الذي نال اكباره وكان جزاؤه على ذلك ـ أي على كلمة الحق ـ أن حرمه البابا من رحمة الله فكان ذلك كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطبا الأديب الكبير : (فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس : أنك لست من القوم الضالين)[2] ، غير أن المحير في الأمر هو لماذا لم يعتنق أمثال هؤلاء الاسلام ؟ ان آراءهم تعبر عن اقتناعهم بهذا الدين واعجابهم به ، ولكن ربما ولأمور اجتماعية أو مادية أو سياسية أحيانا خاف هؤلاء من أن يعلنوا اعتناقهم للاسلام ، فالكنيسة ومؤسساتها سوف تشن عليهم حربا عنيفة تبدأ من الاحتقار والازدراء لهم ولما ينتجون ، وتمتد الى قطع المساعدات المالية والى العزل من الوظائف ، الى غير ذلك من الوسائل التي لا يستطيع معها أمثال هؤلاء الصمود أمام التيار الكنسي الحاقد ،

(1) أوربا والاسلام ـ د . عبد الحليم محمود ـ ص 54 .
(2) نفس المصدر السابق ـ ص 66 .

يقول اللورد هيدلي ربما اجابة على السؤال المطروح : (انني أعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء أيضاً مسلمون قلباً ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشيء عن التغيير تآمرا على منعهم من اظهار معتقداتهم)[1] .

أما الصنف الثالث وهم الذين هدتهم دراستهم للاسلام فنجد في مقدمتهم اللورد هيدلي الذي كان لإسلامه ضجة كبيرة نظراً لمركزه ولما يعلمه فيه عارفوه من نضج في التفكير وترو في الأمور ، يقول اللورد مبينا سبب رفضه للمسيحية واعتناقه الاسلام : (عندما كنت أقضى ـ أنا نفسي ـ الزمن الطويل من حياتي الأولى في جو المسيحية كنت أشعر دائما أن الدين الاسلامي به الحسن والسهولة وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت) ، ويقول أيضاً : (يجب عليّ أن أعترف أيضاً أن زيارتي للشرق ملأتني احتراماً عظيماً للدين المحمدي السلس الذي يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لا في أيام الآحاد فقط)[2] ، ومن هؤلاء أيضاً (الفونس اتيان دينيه) الذي أعلن اسلامه في (الجديد) بمدينة الجزائر سنة

---

(1) أوربا والاسلام ـ د . عبد الحليم محمود ـ ص 52 .
(2) نفس المصدر السابق ـ ص 69 .

1927 م وتسمى باسم ناصر الدين دينيه ، ومن هؤلاء أيضـاً (رينيه جينو) الذي أسلم وسمى بعد اسلامه باسـم الشيخ عبد الواحد يحيى .

فضل المستشرقين

إذا كنت قد ذكرت سابقا أهداف المستشرقين عموما ، وعددت الجوانب السلبية التي تغلب على بحوثهم ودراساتهم فان المنهج العلمي في البحث يحتم عليّ أن أذكر الجانب الايجابي أيضا في هذه الدراسات والذي يتمثل في إحياء جانب من التراث العربي والاسلامي والمحافظة على جانب كبير منه في المكتبات الأوربية بغض النظر عن هدف هذه المحافظة ، ولعل هذا الجانب الايجابي يتمثل أيضا في اعتراف الشرقيين عموما بصنيع علماء الغرب في المساعدة على إحياء تراثه ومدنيته ، فقد أنشأ الغربيون منذ القرن الرابع عشر للميلاد مدارس لتعليم اللغة العربية في جامعاتهم ، ونشأ عن ذلك الرغبة في تداول الكتب العربية واقتنائها والتنافس في الاحتفاظ بالآثار التي أنتجتها القرائح العربية ، وحين أنشئت أول مطبعة في مدينة فانو سنة 1514 ، كان أول ما طبع فيها القرآن وكتب الطب والفلسفة والطبيعة باللغة العربية ، وفي سنة 1593 طبع قانون ابن سينا في الطب مع كتاب النجاة ، وقد أنشأت معظم الأمم الأوربية والأمريكية مطابع عربية طبعت عليها عشرات من

كتب العرب النفيسة ، ودلوا قومهم على فضل العرب ونوهوا بحضارتهم ونبوغ أفرادهم .

وقد جمع الغربيون في كل دولة وصلوا اليها معظم نفائس المخطوطات العربية وعنوا بها عناية شديدة ورتبوها ونشروا فهارسها ، وأخرجوا بعضها مطبوعا واحتفظوا بالبعض الآخر مفهرسا ومبوبا بدقة فائقة[1] ، ولقد رأيت بنفسي كيفية الاعتناء بهذه الآثار حتى إني رأيت ذات مرة مستشفى للمخطوطات يعالج فيه كل مخطوط أصابه تمزق أو أخفى الدهر جزءا من معالمه ، وهذه بالطبع خدمة جليلة للتراث العربي لأننا نحن العرب لم نستطع القيام بهذه الخدمة ولولا جهود الغربيين في ذلك لضاع جزء كبير من تراثنا بين عابث لا يعرف قيمته وغير مبال لا يهمه بقيت هذه النفائس أو ضاعت .

ولعله من المناسب هنا أن أذكر المجهود الكبير الذي قام به بعض المستشرقين من وضع معاجم القرآن الكريم والحديث النبوي التي أفادت الباحثين في هذا المجال وسهلت عليهم الرجوع الى الآيات التي يطلبون الاستشهاد بها كما سهلت

---

(1) الاسلام والحضارة العربية ـ محمد كردلي ـ ج 1 .

عليهم مهمة تخريج الأحاديث واسنادها ، ومن هذه الكتب كتاب تفصيل آيات القرآن الحكيم الذي وضعه بالفرنسية جول لابوم ومعه المستدرك وهو فهرس مواد القرآن والذي وضعه ادوار مونتيه ، وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، وقدم للكتاب الأستاذ محمد فريد وجدي وفي هذه المقدمة يقول : « ومن حسنات أعمالهم ما لجئوا إليه لتسهيل البحث من عمل الفهرستات القيمة والمعاجم الجامعة ومن أقربها منا الفهرست العام الذي وضعوه للكشف عن الأحاديث الموجودة في أربعة عشر مرجعا من مراجع السنة وترجمة الاستاذ المحترم محمد أفندي فؤاد عبد الباقي ونشره باسم « مفتاح كنوز السنة » فقد كان هذا الفهرست حاجة ماسة لكل مشتغل بالأحاديث النبوية فان أحدنا كان يرى الحديث فلا يعرف له تخريجا ويحار في البحث عنه فأصبح يجده على طرف التمام منه . . . . ، ثم يتحدث محمد فريد وجدي عن كتاب جول لا بومر الذي نحن بصدده فيقول : جاء هذا العمل من خير الأعمال وأجداها على الكتاب والمؤلفين والبحاثين فان الذي كان يحاول أن يكتب عن الزكاة أو الأديان أو بعض الأنبياء أو مبدأ المساواة أو النظر الى مصنوعات الله الخ مما يجب الكاتب أن يقتبس فيه من الكتاب الكريم - يعجز عن استيعاب الآيات

الواردة في هذه الموضوعات ـ فأصبح بهذا الكتاب الجديد يستطيع أن يلم في مجال واحد بكل ما يود أن يقرأ عنه من الآيات ، لا بالهداية الى أرقامها من المصحف فحسب ولكن باثبات تلك الآيات نفسها في صلب الصفحات »[1] .

ومن المعاجم التي وضعت لفهرست القرآن الكريم أيضا كتاب « نجوم الفرقان في أطراف القرآن » للمستشرق الألماني فلوجل ، وهو من أقدم المعاجم التي ظهرت في هذا الفن وقد طبع في ليبسك سنة 1842 م ، أما في مجال السنة النبوية فهناك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الذي وضعه لفيف من المستشرقين ونشره المستشرقان أ. ي. ونسنك ، ي. ب. منسنج أستاذا العربية بجامعة ليدن ، وهو معجم ضخم لا غنى لأي باحث ـ في مجال السنة النبوية ـ من الرجوع إليه .

وإلى جانب المعاجم كان هناك عمل آخر خدم التراث العربي خدمة جليلة وتمثل هذا العمل في فهرست جميع المخطوطات العربية في معظم مكتبات العالم ، وهو عمل شاق وجبار سهل على الباحث الرجوع الى أي مخطوطة في العالم

---

(1) تفصيل آيات القرآن الحكيم ـ جول لابوم ـ ط 1 ـ دار إحياء الكتب ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .

بسهولة ويسر ، ولعل أبرز هذه الأعمال هو كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان الذي يدل الباحثين على محتويات المكتبات العالمية من المخطوطات وأرقامها والمطبوع منها وغير المطبوع . وإذا انتقلت الى جانب آخر وهو الجانب الذي عني فيه المستشرقون بتحقيق ونشر المخطوطات فاني أذكر على سبيل المثال المستشرقة مارية نلينو التي جمعت ما وجدت من متفرق شعر النابغة الجعدي وطبعته في ديوان مع ترجمته الى الايطالية ، وكذلك المستشرق الألماني رايسكه الذي نشر بالعربية « تاريخ أبي الفداء » وترجمه الى اللاتينية في خمسة مجلدات ساعده فيها المستشرق ادلر ، ونشر أيضا « نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين » لمرعي بن يوسف ، ونقل الى اللاتينية مقامات الحريري ، ومعلقة طرفة ، وأذكر أيضا المستشرق النمساوي پرجشتال الذي كتب بالألمانية تاريخ الآداب العربية في سبعة مجلدات ولم يتمه ، وكتب تاريخ الدولة العثمانية في 10 مجلدات ، ونشر كتاب « أطواق الذهب » للزمخشري ورسالة « أيها الولد » للغزالي ، وأذكر أيضا المستشرق الألماني كوزجارتن الذي نشر بالعربية مجلدين من تاريخ الطبري ومجلدا من الأغاني مع ترجمتها الى اللاتينية ، ونشر أيضا قسما من شعر الهذليين ونشر كتاب

« الموسيقى » للفارابي ، وأذكر أيضا المستشرق ونشتاين الذي نشر كتابين للزمخشري هما « مقدمة الأدب » و« معجم العربية والفارسية »[1] .

هذه فقط أمثلة قليلة رأيت أنه من الواجب ذكرها اعترافا بفضل المستشرقين ومساهماتهم الثمينة في جمع التراث العربي والاسلامي والمحافظة عليه وتحقيقه وترجمته الى لغاتهم سواء كان بقصد خدمة الانسانية عامة أو بقصد اثراء الثقافة الغربية .

وبعد فهذه في ايجاز شديد لمحات في تاريخ الاستشراق وأهدافه ووسائله ، وألوان المستشرقين ، والموضوع واسع يحتاج الى دراسة مستفيضة مستقلة ، غير أني آثرت الاجتزاء بتلك الاشارات واللمحات لالقاء بعض الضوء على هذا الموضوع الذي يعد مدخلا تمهيديا لدراسة موقف المستشرقين من ظاهرة انتشار الاسلام .

(1) الأعلام ـ الزركلي ـ ج 9 ـ ط 3 .

الفصل الثاني

اسباب انتشار الاسلام

المبحث الاول

حالة العالم قبل الاسلام

لم تعرف البشرية قديما وحديثا دينا أو دعوة انتشرت انتشارا واسعا وفي فترة زمنية وجيزة مثل الاسلام ، فهو الدعوة الالهية الخالدة التي يسر الله لها كل أسباب الذيوع والانتشار ، فاستضاء بنورها ملايين البشر وفي معظم بقاع الأرض ، وطبيعي جدا أن تثار حول الدين الاسلامي ـ وبخاصة من قبل الذين لم يرتضوه دينا ـ الشكوك والشبهات الكثيرة التي من شأنها ايهام الناس بأن السبب في انتشاره ليس لخاصية فيه وانما لعوامل أخرى خارجة عنه مارسها أتباعه ، وهذه الشبهات ليست جديدة أو مستحدثة خص بها الدين الاسلامي دون غيره ، بل انها قديمة قدم التاريخ البشري حيث أن من طبيعة الحياة أن تقابل كل دعوة اصلاحية أو دين أوحى الله به الى نبي بالمعارضة التي تتخذ أشكالا متعددة ابتداء من الرفض الصريح ومرورا بالمجابهة المسلحة وانتهاء بنشر السموم والأباطيل حول مبادىء تلك الدعوة أو ذلك الدين .

واذا كنا بصدد الحديث عن انتشار الاسلام فلا بد لنا من معرفة الظروف الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في زمن ظهور الدعوة المحمدية ، حتى نستطيع أن نتلمس البواعث الحقيقية التي أدت الى قبول الناس - عربا وعجما - الاسلام ، والى التشبث به وتبليغه الى كافة أرجاء الدنيا وبشتى الوسائل .

الحالة الدينية للعالم قبل الاسلام :

ظهر الاسلام في بيئة تنازعتها ملل وديانات وعقائد مختلفة ، كان طابع الشرك هو الغالب عليها ، وكان طابع الحمق والسفه والجهل هو الدافع اليها ، يشاركه في ذلك الفترة التاريخية الطويلة التي فصلت الناس عن آخر رسالة إلهية قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ ، فمن الناس من اعتنق النصرانية التي كانت آنذاك في أسوأ حالات الفساد والتهالك ، وذلك بما أصابها من انحلال وتمزق ، حيث انقسمت الى فرق وأحزاب واحتجبت فيها الدعوة الى الوحدانية ، وتنافست الفرق في تفسير عقيدة التثليث الأمر الذي أدى الى الابتعاد عن هدف الدين الحقيقي ، وفي مثل ذلك قال موير : (وفوق هذا فقد كانت نصرانية القرن السابع نفسها متداعية فاسدة . كانت

معطلة بعدد من الهرطقات المتنازعة وكانت قد استبدلت بأيمان العصور الأولى السمح صغار الخرافة وصبيانياتها[1] .

ولـم تكن اليهودية ـ وهي رسالة سماوية ـ وقت ظهـور الاسـلام أحسـن حالا من المسيحية ، فقـد حرف اليهـود التوراة ، وبدلوا كلام الله ، وكانوا قد نشروا هذه الديانـة في الجزيرة العربية ، ولكنهم نشروا معهـا تفاسـير المفسرين ومـا أحاط بها من أساطير وخرافات نتجت عن تأثر اليهود بالثقافة اليونانية التي تشربوها نتيجة وجودهم تحـت الحـكم اليونانـي والروماني قرونا طويلة[2] .

وكان الغالبية من الناس يدينون بالوثنية التـي تعـددت مظاهرها من عبادة أصنام الى تقديس كواكب ونجوم وسجـود للنار الى غير ذلك من مظاهر الشرك والوثنية ، ولقـد حفلـت كتب التاريخ بالكثير من الأخبار والقصص التي تروي كيفية عبادة الناس لهذه الأوثان الأمر الذي يؤكد حقيقة واقعة وهـي انعدام القدرة العقلية في جانبها الروحي على الرغم من تقدمها

(1) حياة محمد ورسالته ـ مولانا محمد علي ـ ط 3 ـ تر . منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1976 م ـ ص 20 .
(2) فجر الاسلام ـ أحمد أمين ـ ط 9 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهـرة ـ 1964 م ـ ص 25 .

في بعض الجوانب الأخرى ، واذا كان الأمر ليس كذلك فكيف نفسر عبادة شخص لشيء صنعه بيده ؟ ثم كيف نفسر أكله لإلهه المزعوم في وقت مجاعته ؟ وعلى الرغم من تلك الحالة السيئة التي كانت سائدة ، وعلى الرغم أيضا من ذلك الفراغ الروحي الكبير برز بعض من العرب الذين اتصفوا بارتفاع نسبي في مستوى التفكير ، الأمر الذي جعلهم يفكرون فيما حولهم ، ويعملون عقولهم حتى وصلوا في بعض الأحيان الى الشعور بأن وراء هذا العالم إلهاً واحدا مسيرا له يجب أن يعبد وينبذ ما سواه من المعبودات الأخرى وخير دليل على ذلك بيت لبيد الشهير :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وخطبة قس بن ساعدة الأيادي وغيرهما مما تناقلته كتب الأدب والتاريخ .

واذا كان هذا حال الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية فان حال غيرها من الأمم والشعوب كان أسوأ ، ومصيبتها كانت أعظم ذلك أن العرب على الرغم من تدهورهم الروحي استطاعوا الاحتفاظ ببعض المكارم والمحامد التي ثبتها الاسلام بعد ذلك ودعا الى التمسك بها ، في الوقت الذي فقدت فيه

الأمم الأخرى تلك الفضائل والقيم نتيجة قسوة الحياة وجور الحكام ، فاذا استعرضنا أحوال الدولة الرومية والتي كانت تدين بالمسيحية وجدناها كما أشرت سابقا تدور في تيار الصراعات والخلافات المذهبية حول طبيعة المسيح وصفاته ، وذلك شيء أدى بها الى تجرع ويلات الحروب وبالتالي الى الانحطاط الحضاري يقول (روبرت بريفلوت) : (لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس الى القرن العاشر وكان هذا الليل يزداد سوادا وظلاما . قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي كايطاليا وفرنسا فريسة الدمار والفوضى والخراب)[1] .

ولم يكن الفرس ـ وهم ثاني قوة كبيرة في ذلك الوقت ـ بأحسن حالا من الروم ، فقد كانوا يعيشون أسوأ حالة عرفتها البشرية ، حيث انتشرت فيها الملل والنحل الهدامة من صابئة

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ط 5 ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ 1964 م ـ ص 35 .

تعبد الشمس ، ومجوسية تعبد النار ، وثانوية تقول بالهين اله الخير واله الشر ، ومزدكية اباحية تجعل مقومات الحياة كلها شيوعية بين الناس بما في ذلك النساء اللاتي جعلن شركة بين الناس كالماء والنار والكلأ ، ونتيجة لتأييد الملوك لهذه الدعوات وتحمس الشبان والمترفين والفجرة لها عم الفساد في تلك الديار ، وصار الرجل لا يعرف ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يستطيع المرء أن يمنع الآخرين من إتيان أهله في داره[1] .

الحالة السياسية :

واذا انتقلنا الى الحالة السياسية للعالم ابان ظهور الاسلام ، فاننا نجد أنها كانت تعاني من الفوضى والاستبداد ، ففي جزيرة العرب كان النظام السياسي يتخذ شكل النظام القبلي الذي يعتمد القبيلة كوحدة سياسية مصغرة ، تحركها رابطة الدم والنعرة العصبية اللذان سيطرا في ذلك الوقت حتى أنهما لم يتركا للعرب فرصة الشعور بالرابطة القومية الا في القليل النادر ، وكانت حياة القبيلة ـ نظرا

---

(1) أ ـ الاسلام ـ د. احمد شلبي ـ ط 5 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1977 ص 41 ، 42 .

ب ـ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ـ أبو زيد شلبي ـ ط 3 ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة ـ 1964 م ـ ص 31 .

لانعدام الدولة ـ تعتمد على الهجوم والدفاع ، الهجوم بقصد الحصول على الرزق ، نتيجة ضيق العيش والظروف التي أملتها طبيعة الصحراء ، والدفاع كان صراعا من أجل البقاء والحفاظ على وحدة القبيلة وهكذا أدى هذا الوضع السياسي المتردي الى سيادة قانون الغاب الذي تكون الغلبة فيه للأقوى ، والسيادة للأكثر عددا وعدة ، وبذلك اندفع العرب ـ في سبيل الحفاظ على كياناتهم القبلية ـ الى الدخول في أحلاف ومعاهدات استهدفت زيادة القدرة القتالية لدى القبيلة وزيادة تحصيناتها باحتياطي خارجي عند حدوث عدوان من قبيلة أخرى[1] .

أما في الروم ـ أكبر قوة دولية في ذلك الوقت ـ فكان النظام الامبراطوري هو السائد ، وكانت سلطة الامبراطور لا تنازعها سلطة أخرى ، فهو المسير لشئون الدوله حسب رغبته وهواه ، وبما أن الاختلافات المذهبية والطائفية كانت المظهر السائد في دولة الروم فقد انجذب الأباطرة في هذا التيار ، فتحيز كل منهم الى مذهب أو فريق مما جعلهم ينشغلون عن

---

(1) دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ د . السيد عبد العزيز سالم ـ ج 1 ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية .

تصريف أمور الدولة ويتركونها عرضة للفساد والفوضى ، وا
أضفنا الى ذلك انهماك الأباطرة في الملذات والشهوات فا
صورة الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي تكون أوضـ
وأجلى [1] .

وفي الفرس كان النظام السياسي السائد هو الملـكـ
المطلقة الذي يقوم على تقديس الملك ، واعتبار حقه في الملـ
هو وأسرته شيئاً منزلاً لا جدال فيه ، وما على الرعية الا الطاء
وخدمة الملك القديس ، ولا ريب في أن هذا النظام كان يؤد
في كثير من الأحيان الى الاضطرابات والفتن الداخلية
وأوضح دليل على انعدام الاستقرار السياسي هو ما يروى مر
أنه تعاقب على الملك في السنوات العشر التي سبقت الفتـ
الاسلامي اثنا عشر ملكا بين رجل وامرأة وصبي صغـ
ومغتصب من غير بيت الملك [2] .

الحالة الاجتماعية :

أما الحياة الاجتماعية للعالم قبل ظهور الاسلام فقد كانـ

(1) تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي - أبو زيد شلبي - صر 19 .

(2) تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي - أبو زيد شلبي - صر 18 .

صورة حالكة مليئة بالمفاسد والرذائل ، وليس ذلك بغريب فعندما ينعدم الدين تنعدم أيضا الأخلاق والقيم ، وحين لا يكون هناك نظام سياسي يكفل الحريات المشروعة ، ويأخذ على أيدي المفسدين ، تشيع أسباب الانحلال ويفقد المجتمع مقومات استقراره وترابط أفراده .

لقد كانت المفاسد الأخلاقية تسيطر على حياة المجتمع العربي في عصر ما قبل الاسلام ، فقد شاعت الخمر ـ أم الخبائث ـ بين الناس بوجه عام حتى أصبح لا يخلو منزل من كئوسها ، ولا ينعقد اجتماع الا بحضورها ، وانتشر أيضا القمار حتى عد من مفاخر القوم وعير من يمتنع عنه ، وكان الرجل يقامر على أهله وماله حتى يرى ماله في يد غيره ، فيمتلىء صدره بالحقد والكراهية مما يورث الفتن والعداوات ، وشاع الربا حتى لم يعد يوجد فرق بينه وبين التجارة ، وقد حمّل ذلك الفقراء تبعات كثيرة تصل الى أضعاف ما استدانوه دون رحمة من الدائنين أو شفقة ، وكان ذلك الأمر سببا في تكريس الطبقية وتأجيج نار العداوة بين الناس ، ولم يكن الزنا بأقل حظا من المفاسد الأخرى ، فقد شاع بين الكثيرين وشاعت معه أنكحة كثيرة حكمها حكم الزنا ، فقد عرف العرب

الاستبضاع[1] ونكاح المقت[2] ونكاح الخدن[3] ونكاح المتعة[4] ونكاح البدل أو الشغار[5] ، وعرف العرب أيضا عادة وأد البنات خشية العار أو الفقر أو تشاؤما منهن ، وقد نقلت لنا كتب التاريخ صورا لكثير من مآسي هذه العادة البغيضة التي يندى لها الجبين .

أما في الدولة الرومية فقد كان المجتمع غارقا في بحار الرذيلة ، فانعدمت القيم واختفت المبادىء والمثل العليا ،

---

(1) الاستبضاع هو : أن تطلب المرأة جماع رجل لتنال منه الولد فقط ، وقد كان الرجل من أهل الجاهلية يقول لأمته أو امرأته أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها فلا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد .

(2) المقت هو : أن يتزوج أكبر الأولاد سنا امرأة أبيه بعد وفاته .

(3) نكاح الخدن هو : أن تتزوج المرأة مجموعة من الرجال بين العشرة أو السبعة يترددون عليها جميعا ، فاذا حملت ووضعت اختارت واحدا منهم تنسب له الولد ولا يستطيع أن يرفض .

(4) نكاح المتعة هو : أن يتزوج الرجل المرأة لفترة مؤقتة سواء كانت الفترة معلومة أو مجهولة .

(5) نكاح البدل أو الشغار هو . ما عرف في الجاهلية باسم البدل ، وعرف في الاسلام باسم الشغار ، وهو أن يتزوج اثنان امرأتين على أن تكون احداهما في نظير صداق الأخرى .
أنظر فيما تقدم :
المغني - ابن قدامة/ بداية المجتهد - ابن رشد/ القاموس المحيط - الفيروزابادي/ تاج العروس - الزبيدي/ نيل الأوطار - الشوكاني .

ويصور أحد المعاصرين الانحلال الاجتماعي الذي أصاب هذه الدولة بقوله : (ذابت أسس الفضيلة وانهارت دعائم الأخلاق حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية . وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع . وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع)[1] .

وكانت فارس كغيرها من بلاد العالم ، فقد عرفت الكثير من المفاسد التي عرفتها الشعوب الأخرى ، بل ازداد الفساد فيها حتى وصل الى اباحية مطلقة لم تعرفها أية دولة أخرى ، وتكرس فيها النظام الطبقي وصارت الهوة كبيرة بين المواطنين ، ومن عرف بالضعة لا يسمح له بالرقي حتى نهاية عمره ، وكان يباح زواج القريبات ومن ذلك أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها ، وأن بهرام جوبين الذي حكم في القرن السادس كان متزوجا بأخته[2] .

الحالة الاقتصادية :

أما عن حالة العالم الاقتصادية في ذلك الوقت فانها

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ص 31 .
(2) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ص 38 .

كانت في حالة سيئة جدا ، فالطبقية والاقطاع قد سادا معظم أرجاء العالم ، ففي جزيرة العرب حيث الصحراء القاحلة عرف الناس التجارة وبعض الحرف البسيطة ، ولكنهما كانا مقصورين على سادة القوم وأشرافهم والبقية عبيد ينتظرون رحمة أسيادهم ، وبذلك أصبح الغني يزداد غنى والفقير يزداد فقرا .

وقد كانت الحالة في دولتي الفرس والروم أكثر فسادا وأعظم إرهاقا ، وذلك لما كانت تعانيه الشعوب من ضيق العيش وكثرة الضرائب ، وخير تصوير لتلك الحالة ما ورد على لسان شيخ الاسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي[1] حيث قال : (اعلم أن العجم والروم لمّا توارثوا الخلافة قرونا كثيرة ، وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان وتعمقوا في مرافق العيش وتباهوا بها ورد عليهم حكماء الآفاق يستبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها فما زالوا

---

(1) هو . أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي أبو عبد العزيز ، الملقب شاه ولي الله : فقيه حنفي من المحدثين ، ولد سنة 1699 م وتوفي سنة 1762 م .

إنظر : الأعلام - الزركلي - ج 1 - ط 3 - بيروت - 1969 م - ص 144 .

يعملون بها ويزيد بعضهم ويتباهون بها حتى قيل انهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجا قيمتها دون مائة ألف درهم . . . . وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل الا ببذل أموال خطيرة ولا تحصل تلك الأموال الا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم ، فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد ، ولا تقتنى الا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم الى السعادة الأخروية أصلا ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان اقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه) [1] .

هذه اذن لمحة خاطفة عن حالة العالم السيئة التي ولد في جوها وتربى سيدنا محمدﷺ ، وهي حالة استشرى فيها الفساد واستعصى المرض الأمر الذي احتاجت معه البشرية الى طبيب ماهر يعرف كيف يشخص المرض ويستأصله . يقول أحد المستشرقين : (في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ص 76 .

كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو اذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية اذ القبائل تتحارب وتتشاجر لا قانون ولا نظام ، أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب) [1] .

من هذه الحالة يتضح مبلغ حاجة العالم الى هداية تنقذه مما تردى فيه من ضلال العقائد والعوائد والنظم ، لقد كان تائها في ظلمات بعضها فوق بعض ، وجاء الدين الذي ختم الله به الرسالات ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم صراطا مستقيما .

إن الاسلام الذي بعث به محمد ﷺ هو دين الفطرة ، دين يقوم على الايمان المطلق بالوحدانية ، والمساواة بين الناس في المسئولية والكرامة الانسانية ، ومن ثم وجد فيه الذين ضلوا

(1) الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ص 47 .

طريق العقيدة فأشركوا بالله أو اتخذوا اليه شفعاء من الأوثان والأصنام ، كما وجد فيه التائهون الباحثون عن الحقيقة وسط جو ملىء أصناما ، والجهلة الذين ضاعوا وسط تيارات الخلاف الطائفي والمذهبي ، والضعفاء الذين أرغموا على اعتناق ذلك الدين وترك الآخر رغم زيف الاثنين ، كل هؤلاء وجدوا في الدعوة الى الوحدانية الخلاص الحقيقي الذي أنار عقولهم وأعز نفوسهم من أن تسجد لحجر أو تقدس نارا أو تعتقد بثالوث ، ووجدوا أيضا فيما يترتب على الاعتقاد بالوحدانية من عبادة الواحد الأحد الراحة النفسية والهدف السامي الذي يطهر البدن ويجلي القلب ويحرر العقل من سلطان الخرافات التي انحازت به الى عبادة ما هو أحقر منه ، فوجدوا في الصلاة وسيلة تطهر البدن وتصل العبد بربه يستمد منه وحده العون ويتزود منه بالقوة التي تحرره من سلطان المادة والشهوة ، ووجدوا في الصوم وسيلة لتقوية الارادة وتعلم الصبر واحتمال مشاق الحياة والتغلب عليها ، ووجدوا في الحج وسيلة للتعارف والتقارب والتقاء القلوب على طاعة الواحد القهار ، ووجدوا في الزكاة وسيلة لتعلم البذل والعطاء والشعور بحال الفقراء وحقهم في الحياة ، كل ذلك وجدوه في التعاليم الجديدة التي طرحها الاسلام والتي افتقدها هؤلاء في ظل معتقداتهم السابقة .

ووجد فيه العبيد ـ الذين كانوا يساقون الى خدمة أسيادهم كالأغنام ـ المنقذ والمحرر الذي انتشلهم من ظل العبودية ، وسوى بينهم وبين سادتهم ، ورد لهم الكرامة الانسانية التي افتقدوها ، كما وجدت فيه المرأة الأمان والطمأنينة والشرف المصان ، فهي التي هددت الأخطار حياتها وهي صغيرة حينما كانت عادة الوأد تترصد لها ، وهي التي استبيحت كرامتها وشوه عرضها وعفتها سواء في المجتمع العربي الذي عرضها لعدة أنكحة فاسدة فقدت معها الشعور بالاستقرار مع زوج تأنس به ويأنس بها ، أو في المجتمع الفارسي الاباحي الذي جعلها حقا مشاعا دون نظر الى كرامتها أو مراعاة لآدميتها ، ووجد فيه الجميع دينا يقيم مجتمع العدل والمساواة ، مجتمعا لا طاعة فيه الا للخالق ، مجتمعا حرمت فيه الفواحش والآثام والمنكرات ، وغرست فيه الفضائل والأخلاق والقيم، مجتمعا يدعو الى: **﴿قل هو الله أحد الله الصمدلم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد﴾**[1] **﴿ قل من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾**[2] **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال**

---

(1) سورة الاخلاص .

(2) الآية 79 من سورة يسن .

ذرة شرا يره﴾[1] ﴿الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾[2] ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[3] ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾[4] ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين)[5] (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾[6] ﴿ولكم في القصاص حياة يأولي الألباب لعلكم تتقون﴾[7] ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[8] ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[9] .

بمثل تلك الأحكام التي قررها الاسلام والفضائل التي

---

(1) الآية 7 من سورة الزلزلة .
(2) الآية 2 من سورة النور .
(3) الآية 90 من سورة المائدة .
(4) الآية 29 من سورة النساء .
(5) الآية 278 من سورة البقرة .
(6) الآية 33 من سورة الاسراء .
(7) الآية 179 من سورة البقرة .
(8) الآية 58 من سورة النساء .
(9) الآية 38 من سورة الشورى .

دعا اليها بنى النبي النواة الأولى للمجتمع الجديد ، الخالي من العقد والأمراض ، ذلك المجتمع الذي عبر عنه جعفر بن أبي طالب حين سأله النجاشي عن حال المسلمين فقال : (كنّا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به) [1] .

ومع وضوح مبادىء الاسلام وكفالتها الحياة الكريمة للانسان ، وقف في سبيلها الطغاة والمفسدون والذين آثروا الجاه والمال وما ورثوه من الآباء من معتقدات فاسدة على الايمان بالدعوة الجديدة التي آمن بها من آمن رغبة وفرارا الى الله من ظلمات الجهالة والضلالة ، وحاول أولئك الطغاة أن يمنعوا

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ج 1 ـ ص 336 .

محمداً ﷺ من تبليغ ما أمره الله به ، وتعرضوا له ولمن اتبعه بالأذى ، وتحمل النبي ﷺ وأصحابه الأوائل كل ألوان الاضطهاد والتعذيب من ضرب وحرق وقتل نقلت كتب السيرة والتاريخ صوراً كثيرة منها ، وقد قابل الصحابة هذا العذاب وذلك الاضطهاد بالجهاد السلمي الذي يتمثل في الصبر والثبات . ولكن لماذا لم يقاوم هؤلاء ؟ ولماذا لم يحملوا سيوفهم لرد عدوان المشركين ؟ هل لعدم القدرة على ذلك أم أن هناك أمراآخر منعهم من حمل السلاح والقصاص من المشركين ؟ .

إن بعض الذين ارتضوا الاسلام دينا كان من المشهود لهم بالشجاعة والفتوة والقدرة على منازلة الأعداء ، فقد كان من بينهم عمر بن الخطاب وهو الشديد القوي جاهلا ومسلما ، وكان من بينهم أبو بكر الذي عرف بالشجاعة والبذل والعطاء ، وكان من بينهم حمزة البطل الكبير الذي جابه الكفار حتى وهو على دين آبائه ، كل هؤلاء وغيرهم كثيرون كان لديهم القدرة على الدفاع وصد اعتداءات المشركين ، ولكن المسلمين في المرحلة المكية كانوا مقيدين بشيئين :

الأول : أنهم ـ التزاما منهم بالعقيدة التي ارتضوها ـ لا يستطيعون القتال والرد على عدوان المشركين الا بأمر من ربهم

وبتوجيه من نبيهم وهذا أمر لم يحدث في تلك المرحلة ، ولعله كان رحمة من الله بعباده المؤمنين في عدم اثقال كاهلهم بالجهاد لعلمه الضعف فيهم أو لأمور أخرى هو أعلم بها .

والثاني : هو أن المسلمين في المرحلة الملكية كانوا في مجموعهم لا يستطيعون الوقوف أمام قوة الشرك مجتمعة ، والمتمثلة في مشركي مكة ومن ناصرهم من القبائل الأخرى ، خصوصا اذا وضعنا في الحسبان أن المسلمين يقيمون في ديار الكلمة العليا فيها للمشركين والسيطرة المادية والمعنوية لهم .

ومع وجود هذين الأمرين اللذين منعا المسلمين من مجابهة الأعداء فقد كان من بينهم من دفعه ايمانه العميق وحماسته الشديدة الى مقاتلة المشركين والرد على أذاهم بالمثل ، ولكن الرسول الكريم كان ينهاهم ويعلل ذلك بعدم الاذن في القتال فقد ورد في أسباب النزول : (كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج فشكوهم الى رسول الله ﷺ فيقول . اصبروا فاني لم أؤمر بقتال) [1] .

---

(1) أسباب نزول القرآن ـ أبو الحسن الواحدي ـ تحق . السيد صقر ـ دار الكتاب الجديد/ لجنة احياء التراث الاسلامي ـ 1969 م ـ ص 319 .

واستمر رسول الله ﷺ ومن معه في تبليغ الدعوة وعرضها على القبائل غير عابئين بما ينالهم من العذاب والعنت وتضاعف الاضطهاد ، حتى اذا اشتد بهم الخطب وازداد الكرب ، وأصبحت الحياة جحيما لا يطاق ، أمر رسول الله صحابته المستضعفين أن يخرجوا مهاجرين الى الحبشة ، حيث يوجد على رأسها الملك النجاشي الذي كان يدين بالمسيحية ، والذي استطاع ببصيرته الثاقبة وعقله الراجح أن يتفهم قضية المسلمين ويمنعهم من عدوهم ، وحين علمت قريش بذلك شعرت بخطورة الأمر وبعثت بوفد الى النجاشي تطالبه بارجاع المهاجرين ، ولكنه كان على يقين بأنهم على حق وبأنهم أصحاب دين إلهي ، وعلى أساس ذلك رفض تسليمهم . أما الرسول ﷺ ومن بقي معه من الصحابة الأكثر قوة بما لهم من جاه أو نسب فقد استمروا في تبليغ الدعوة - رغم الأشواك التي وضعتها قريش في سبيلها - حتى هيأ الله نفرا من المدينة التقوا بالنبي وآمنوا به وصدقوه ونقلوا أخباره الى ذويهم الذين قدموا في عام آخر لبيعة النبي وطلب انتقاله اليهم ، وفعلا هاجر النبي ﷺ وصحابته الى المدينة مكان الدعوة الآمن ونواة الدولة الاسلامية الجديدة ، التي بدأ الرسول بناءها بارساء مبادىء الاخاء والمساواة والتعاون ، حتى اذا ما اشتد عودها

وصفا جوها ، وأصبحت على قدر مناسب من العدد والعدة اشتاقت نفوس المهاجرين الى الأخذ بثأرهم ممن ظلموهم وعذبوهم وأخرجوهم من ديارهم ، واشتاقت نفوسهم أيضا الى استرداد أرزاقهم التي سلبت منهم في مكة ، فطلبوا من الرسول أن يتعرضوا لقريش طلبا للثأر ، ولكن الرسول لم يكن قد تحصل على الأذن بالقتال ، ولذلك فقد استمر في منع المسلمين من مقاتلة أعدائهم الى أن أتى الاذن من السماء **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**[1] . وبعد هذا الاذن الصريح من الله سبحانه وتعالى ، وبالتحديد ابتداء من غزوة بدر بدأ الجهاد والكفاح المسلح بين الحق والباطل ، بين الايمان والشرك ، واستمر ذلك الجهاد والصراع سنين طويلة استطاع المسلمون فيها أن يكونوا دولة عظيمة وحضارة باهرة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً ، واستطاع المسلمون بذلك أن ينزعوا الأشواك ويزيلوا العقبات التي

---

(1) الآية 39 من سورة الحج .

وقفت حائلاً في سبيل تبليغ الدعوة ووصول نورها الى جميع بقاع العالم ، وكان أن انتشرت الدعوة الاسلامية في جميع بقاع الأرض ، ووصف انتشارها بأنه أسرع انتشار لدعوة أو دين سجله التاريخ ، ومن ثم أخذ أعداء الاسلام يزعمون بأنه دين حرب وأنه دين اعتمد على السيف ، ولولا السيف لما آمن به من آمن .

فهل صحيح أن الاسلام دين حرب ؟ وهل صحيح أن السيف أعمل في رقاب الناس ليقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ؟ وهل صحيح أن المسلمين قتلة وسفاحون وسفاكو دماء ؟ وما هي أهم الأسباب التي جعلت الناس تؤمن بهذا الدين وتتحدث بلغة كتابه ، وتهمل عقائدها الموروثة ولغاتها القومية ؟

ذلك ما أطمع أن أعرض له في إيجاز في المبحث الثاني من هذا الفصل .

المبحث الثاني

الحروب في الاسلام واسباب انتشار هذا الدين

الحرب طبيعة من الطبائع البشرية ، وسمة من سمات الحياة ، وهي تنشأ نتيجة لأنانية الأفراد أحيانا وحبهم لذاتهم ، أو تنشأ من شعورهم بالظلم ، أو شعورهم بالحاجة الى ما في أيدي الآخرين نتيجة لعوزهم ، ولقد عرف التاريخ البشري جميع ألوان الحروب التي اختلفت دوافعها وأغراضها ، فقد عرفت البشرية حروب التعصب الديني والاختلاف المذهبي والطائفي ، وأقرب مثال لذلك ما حدث بين معتنقي المسيحية من انقسامات مذهبية أدت الى قتال عنيف نتج عنه اهدار كرامة الانسان وسلبه حرية العقيدة ، وعرفت البشرية أيضا حروبا كان الباعث اليها هو التشفي والانتقام ، وحروبا أخرى كان سببها الشعور بالقوة والرغبة في السيطرة على الآخرين واستعبادهم ، وعرفت البشرية أيضا حروبا كانت دوافعها الحاجة والعوز الذي دفع الى استعمار الآخرين وسلب ثرواتهم . فما هو موقف الاسلام من تلك الحروب بأنواعها

ودوافعها المختلفة ؟ وبعبارة أخرى ما هو موقف الاسلام من الحرب والسلام ؟

إن الاسلام أقر ضمن مبادئه الخالدة مبدأ الأخوة الانسانية ، فالجميع قد خلقوا من أب واحد وأم واحدة ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[1] ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾[2] ، وبهذه الاشارة الى أصل الخلقة الواحد يريد الاسلام أن يشعر أتباعه بأن الأخوة تقتضي التعايش السلمي والتعاون على البر والتقوى والميل الى الحب والتسامح وهما أبرز ملامح الأخوة ، وفي المقابل أيضا تقتضي الأخوة الابتعاد عن الحقد والكراهية وجميع أشكال التفرقة والتعصب .

إن الاخاء الذي أشار إليه القرآن وأكّده الرسول في مواضع كثيرة يفرض على المسلم التزامات متعددة ، فهو مبدأ يفرض احترام آدمية الانسان وتكريمه ، وأن تكون العلاقة بين

---

(1) الآية 13 من سورة الحجرات .

(2) الآية 1 من سورة النساء .

الانسان وأخيه الانسان تقوم على الاحترام المتبادل الذي يقوم على التعاون ومراعاة المصالح المشتركة ، ويوجب هذا المبدأ أيضا الاعتراف بحق جميع الناس في الحياة الحرة الكريمة المتساوية دون أن يكون هناك فضل لأحد على الآخر ، وبهذا المبدأ وما يترتب عليه من التزامات متعددة يطفىء الاسلام لهيب أنواع كثيرة من الحروب ، ويضفي على الانسانية طابع المودة والسلام[1] .

ومع تقرير الاسلام لهذا المبدأ ـ وهو الوحدة الانسانية ـ فقد أكد في آيات كثيرة على تقرير مبدأ السلام الذي يعد ثمرة طبيعية لذلك المبدأ ، فكلمة الاسلام بجميع مشتقاتها اللغوية تدور في نطاق الأمن والسلامة ، وأن هناك بين كل هذه المشتقات أصولا مشتركة تتفرع عنها بعض المعاني ، ففي لسان العرب : (ادخلوا في السلم كافة قال عني به الاسلام وشرائعه كلها وقرأ أبو عمرو ادخلوا في السلم كافة يذهب بمعناها الى الاسلام . والسلم : الاسلام) . ، وقال الفيروزابادي :

---

(1) أ ـ الوحدة الاسلامية ـ محمد أبو زهرة ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ 1971 م ـ ص 13 وما بعدها .
ب ـ من روائع حضارتنا ـ د. مصطفى السباعي ـ ط 2 ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ 1977 م ـ ص 61 وما بعدها .

(الاسلام : الدخول في السلم . وهو أن يسلـم كل واحـد منهما أن يناله ألم من صاحبه) [1] .

وبنظرة سريعة الى بعص الآيات نجد أن القرآن الكريم يأمر المسلمين بالركون الى السلـم والابتعـاد عن الحـرب كلما سنحت لذلك فرصة فيقول تعـالى : ﴿ **وإن جنحـوا للسلـم فاجنح لهاوتوكل على الله** ﴾ [2] ويقول ايضا : ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلم لست مؤمنا تبتغو ن عرض الحياة الدنيا** ﴾ [3] ويقول أيضا : ﴿ **فان اعتزلوكم فلم يقاتلـوكم وألقـوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ [4] . هذا وقد تردد ذكر السلام في آيات كثيرة حتى أصبح ظاهرة ملاحظـة ، فالمتتبـع لآيات القرآن الكريم يجد أن السلام ورد ذكره في مائة وأربعين آية بينما لم يرد ذكر الحرب الا في ست آيات فقط [5] . ورفض

---

(1) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزير ـ الفيروزابادي ـ تحق . محمد النجار ـ ج 3 ـ ط المجلس الأعلى للشئون الاسـلامية ـ القاهـرة ـ 1387 هـ ـ ص 254 .

(2) الآية 61 من سورة الأنفال .

(3) الآية 94 من سورة النساء .

(4) الآية 90 من سورة النساء .

(5) السلام رسالـة السماء ـ محمـود النبـوي الشـال ـ دار الفـكر العربـي ـ 1978 ـ ص 58 .

القرآن أيضا كل الأغراض والدوافع التي كانت تدعو الى الحروب وتثير الفتن ، فرفض الحرب التي تقوم من أجل العصبيات الطائفية أو العرقية ، وقرر أن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحدهم على الآخر في زعامة أو رياسة ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[1] ، وقال الرسول ﷺ : (كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى)[2] ورفض الاسلام أيضا الحروب التي تثيرها نزعات دينية سببها الاختلاف في العقيدة أو الاكراه عليها ، فقال تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[4] ، ورفض الاسلام أيضا الحروب التي تثار من أجل كسب مادي أو نفع اقتصادي فقال تعالى : ﴿ **ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز**

---

(1) الآية 13 من سورة الحجرات .

(2) رواه الامام أحمد .

(3) الآية 256 من سورة البقرة .

(4) الآية 99 من سورة يونس .

حكيم﴾[1] ورفض الاسلام أيضا الحروب التي تثيرها أنانية فردية رغبة في رياء أو مجد أو شهرة ، جاء رجل الى النبي ﷺ فقال : (الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى فمن في سبيل الله ؟ قال ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[2] [3] .

وكان من ضمن ما جاء من التعاليم الاسلامية هو افشاء السلام ، وهو قول الانسان لأخيه الانسان السلام عليكم ، فهي تعني السلامة والأمان ، ويستعمل المسلم هذه الكلمة عدة مرات في اليوم ، ففي التشهد يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وحين الانتهاء من الصلاة ، وفيما يعقب الصلاة من دعاء واستغفار : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وجعلت هذه التحية أيضا شعار المؤمنين في الجنة قال تعالى : ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾[4] [5]، وجعل السلام أيضا عنوان الحياة السعيدة في الجنة فقال تعالى : (ادخلوها

---

(١) الآية 67 من سورة الأنفال .

(٢) أخرجه الخمسة .

(٣) العرب وظهور الاسلام ـ محمد النجار ـ الجامعة الاسلامية ـ ليبيا ـ

(٤) الآية 44 من سورة الأحزاب .

(٥) السلام رسالة السماء ـ محمود الشال ـ ص 57 .

بسلام ﴾[1] ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾[2] ﴿ لا يسمعون فيها لغوا الا قيلا سلاما سلاما ﴾[3] ، وهكذا أراد الاسلام بهذه التعاليم أن يبث في نفوس أتباعه روح الطمأنينة والأمان ، وبذلك تصفى النفوس وتتربى على حب السلام والبعد عن أهوال الحرب وشرورها ، إن ترديد لفظ السلام عدة مرات في اليوم ـ خصوصا حين يصدر هذا من القلب ـ كفيل بأن يهذب نفس المسلم ، ويبعده عن التفكير في أن يحمل سيفا في سبيل منفعة دنيوية عاجلة ، مادية كانت أو معنوية .

وما دام الأمر كذلك فلماذا دعا الاسلام أتباعه الى الجهاد ؟ ولماذا جعله ماضيا الى يوم القيامة ، وأعد للشهداء نعيما مقيما ؟ وما هي الدوافع التي حملت المسلمين على الخروج والانسياح في الأرض يحملون سيوفهم ويقاتلون في حماسة غريبة لم يشهد التاريخ لها مثيلا ؟

لقد أسلفت سابقا أن الرسول وأصحابه ظلوا سنوات عديدة وهم ينشرون دعوتهم تحت تهديد الكفار وتعذيبهم ،

---

(1) الآية 46 من سورة الحجر .
(2) الآية 127 من سورة الأنعام .
(3) الآية 26 من سورة الواقعة .

وأخيرا اضطروا الى ترك الديار والأهل والأموال ، واستقروا في المدينة التي حمتهم من الاضطهاد والتنكيل ، وحين اشتد عودهم وكثر عددهم أمرهم الله تبارك وتعالى بأن يدفعوا الظلم عنهم ، ويفسحوا الطريق أمام الدعوة الاسلامية لتصل الى الناس أجمعين ، وباستعراض لبعض آيات الكتاب العزيز يمكن أن نستنتج منها الأسباب التي أجاز فيها القرآن حمل السيف والقتال :

1 ـ دفع الظلم ورد أي اعتداء على الانسان من جميع الجوانب سواء كان ذلك في نفسه أو أهله أو ماله ، يقول الحق تبارك وتعالى في بداية الاذن بالقتال : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير** ﴾[1] ، ففي هذه الآية يحرض القرآن المسلمين على القتال ، ويجعل ذلك حقا مشروعا وواجبا فرضته طبيعة المواجهة بين الحق والباطل ، ويعلل سبب ذلك فيقول : (**الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله** [2]) فالمسلمون لم يقترفوا ذنبا من شأنه أن ينفيهم أو يبعدهم عن أرضهم وديارهم ، لم يفعلوا شيئا يذكر

---

(1) الآية 39 من سورة الحج .

(2) نفس الآية السابقة .

سوى أنهم قالوا ربنا الله ، أليس من حقهم أن يدافعوا عن أنفسهم ؟ وهل يستطيع أحد أن ينكر على الانسان حقه المشروع في الدفاع عن النفس ؟ وهل من عار في أن يستمر هذا الاذن مبدأ من المبادىء التي يدعو اليها الاسلام في أي وقت وأي مكان تكررت فيه مثل هذه الحادثة .

2 ـ وما دام الاسلام يمقت الظلم ويحرمه ، ويأمر الانسان بدفع الظلم عنه فانه أيضا يأمر بدفع الظلم عن الآخرين أي نصرة المظلومين والمستضعفين في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ [1] ، وقد طبق الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ حيث ناصر خزاعة على قريش ـ التي نقضت صلح الحديبية ـ بعد أن استنصروا به ، وأقر أيضا حلف الفضول وقال : (إن الاسلام لا يزيده الا شدة)[2] ، وفي هذا الجانب يثير أحد الباحثين اعتراضا مفاده : (واذا قيل بأن هذه الحالة

---

(1) الآية 75 من سورة النساء .

(2) نظام الاسلام ـ د. وهبه الزحيلي ـ ط 2 ـ منشورات جامعة قاريونس ـ ليبيا . 1978 م ـ ص 368 .

تدخل في شئون الغير والتدخل اعتداء . قلنا إن التدخل مشروع اليوم للسلامة الاجماعية ولاحقاق الحق وازهاق الباطل وهو مشروع أيضا دفاعا عن الانسانية في حالة اضطهاد دولة للأقليات من رعاياها[1] . ومما لا شك فيه أن مبدأ نصرة المظلوم هو تطبيق لقوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾[2] ، وهو أيضا تثبيت لمبدأ التكاتف والترابط والتضامن الاجتماعي الذي يدعو اليه الاسلام .

3 ـ واذا كانت العقيدة هي أسمى ما يعتز به الانسان ويدافع عنه ، وهي الشيء الذي يجب عليه أن يبشر به ويوصله الى الناس أجمعين ، لذلك فاننا نجد أن الاسلام قد شرع الجهاد وحث عليه من أجل فسح المجال أمام العقيدة حتى تصل الى الشعوب ، وإزالة كل الحواجز التي تقف بين الدعوة والناس من قوى مختلفة سواء كانت ملوكا أو حكومات أو أفرادا باغين ، قال تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** ﴾[3] ، فهذا

---

(1) آثار الحرب في الفقه الاسلامي ـ د. وهبه الزحيلي ـ ط 3 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1981 م ـ ص 94 .

(2) الآية 2 من سورة المائدة .

(3) الآية 193 من سورة البقرة .

النوع من القتال يعتبر تحقيقا لكلمة الله ، فالمهـم هو أن يصل الاسلام الى الشعوب ثم بعـد ذلك لهـم الخيار في اعتناقـه أو رفضه فهم أحرار في ذلك ، وهـم محاسبـون أيضـا على ذلك الخيار ﴿ كل نفس بما كسبت رهين ﴾[1] . وآية القتال السابقة بينت للمسلمين أن من أهداف هذه الحرب أن يوقف المشركون عند حدهم في عملية الضغط التي يمارسونها ضد هذا الدين ، فلا تعود الفتنة (الشرك) في الدين تهدد عقيدة المسلمين ، ولا يعود الشرك قوة تضع العقبـات في طريق الـدين الحـق ، بل يكون الدين لله . . . . . يلتقي عليه الناس جميعاً في أصالـة فطرتهم ، ونقاء نفوسهم بما يحمله في داخلـه من قوة وجـلاء ووضوح ويسر وسهولة ومرونة)[2] .

4 ـ وتحقيقـا لمبـدأ التعـايش السلمـي واقـرار العدالـة الاجتماعية بين البشر ، فقد أوجب الاسلام نوعا من الحروب التي تقوم على فض الخلافات والمنازعات واقـرار السلـم بـين الجماعات ، قال تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلـوا التـي

(1) الآية 38 من سورة المدثر .
(2) أسلوب الدعوة في القرآن ـ محمد حسين فضل الله ـ ط 2 ـ دار الزهراء ـ بيروت . 1972 ـ ص 115 ، 116 .

تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ [1] ، وهكذا نجد أن القتال المشروع هنا هو منع للقتال الناشيء عن بغي فئة على أخرى وعدم اقتناع تلك الفئة ورجوعها عن غيها .

5 ـ وتقتضي قواعد الاسلام في حمل السيف تبليغا لدعوة الله ، أن يبدأ المسلمون بعرض دينهم على غيرهم فان آمنوا به رغبة واختيارا أصبحوا اخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإن أبوا أن يدخلوا في هذا الدين طلبنا اليهم أن يدخلوا معنا في معاهدة سلام ليواصل المسلمون سيرهم الى غيرهم من الأمم في أمن من الغدر والخيانة ، فان رفضوا ذلك فكأنهم بهذا قد أعلنوا الوقوف أمام تبليغ الدعوة الاسلامية ، فلا يريدون لها أن تنشر بين الناس ، وهنا فقط نحاربهم لا لنحتل ديارهم وننهب ثرواتهم ونكرههم على الايمان ، وإنما لنخضعهم لنا حتى لا يكونوا شوكة تعوق ركب الدعوة الذي يهدف الى الوصول الى غايته المقدسة .

6 ـ ومما يتصل بقتال البغاة قتال ناكثي العهد وخائني المواثيق فهم في حكم البغاة ، وقد عرف المسلمون أنواعا كثيرة

(1) الآية 9 من سورة الحجرات .

من المعاهدات وكانوا أوفياء على عهودهم ، حريصين على التزام مواثيقهم ، وكان أعداؤهم ـ وبخاصة اليهود ـ على العكس من ذلك ينقضون العهود بدون سبب ولا باعث ، وعلى ذلك لم يجد المسلمون بدا من مقاتلتهم وتأديبهم على شرور أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾ [1] ، وهكذا يتضح أن السبب في هذه الحرب والباعث اليها هو نقض العهد والبدء بالاعتداء ، ولا شك أن من لا يؤمن عهده لا ترعى حرمته ، ومن يبدأ بالاعتداء ليس له جزاء إلا القتال ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله** ﴾ [2] .

7 — تأديب الخونة والمتآمرين والخارجين على القانون ونظام الدولة ، وذلك لما في استقرار الأمن ووحدة الصف من فوائد جمة تساعد الناس على عيشة هانئة سالمة ، ومن هذا النوع من الحروب ما قام به الخليفة أبو بكر رضي الله عنه حين خرج

---

(1) الآية 12 ، 13 من سورة التوبة .

(2) الآية 194 من سورة البقرة .

لقتال أهل الردة الذين أراد بعضهم أن يعطل ركنا من أركان الاسلام وهو الزكاة ، وأراد البعض الآخر أن يعلن نبوة جديدة بعد أن أعلن الاسلام أن سيدنا محمدﷺ هو خاتم النبيين ، وقد تشدد أبو بكر رحمه الله في هذا الموضوع وصمم على رد المارقين حتى تم له اخماد الفتنة التي كادت أن تعصف بوحدة المسلمين[1] .

ومع إباحة الاسلام لتلك الأنواع السابقة من الحروب ، فانه وضع معها مبادىء انسانية تحد من أخطارها ، وتجعلها في نطاق محدود ، وتكفل لها أداء مهمتها في حماية الحق والعدل والقضاء على الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وأهم تلك المبادىء : عدم مقاتلة غير المقاتلين ، وعدم اتباع الفارين والهاربين لابادتهم ، وعدم التعرض لوسائل الحياة بالتدمير كالزروع والحيوانات ، وعدم أخذ العدو على غرة كما تفعل

---

(1) أ ـ السلام العالمي والاسلام ـ سيد قطب ـ ط 3 ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة .
ب ـ الجهاد ـ أحمد الحوفي ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ 1970 م .
ج ـ لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة الخطيب .
د ـ الاسلام نظام انساني ـ مصطفى الرافعي ـ ط 2 ـ مكتبة الحياة ـ بيروت .

الدول التي تدعي الحضارة والمدنية في العصر الحديث ، إن الحرب في الاسلام هي كما يصورها أمير الشعراء :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم النافعات دواء

واذا كانت هذه بعض مبادىء الحرب المشروعة في ديننا الحنيف، فهل كانت مطبقةفي تاريخ المسلمين وصراعهم مع أعدائهم أو أنها ظلت مبادىء مجردة مثالية لا تعرف التطبيق العملي ، وهل كان المسلمون ملتزمين بأحكام دينهم في حمل السيف والدعوة الى الله ؟ هل كانوا لا يكرهون أحدا على دينهم ، ولا يتخذون القوة وسيلة لحمل غيرهم على أن يؤمنوا بدعوتهم ؟ أو أنهم خرجوا على تلك الأحكام ولم يقفوا عند حدودها وأجبروا سواهم على الرضوخ لهم بفرض العقيدة الاسلامية عليهم ؟ .

إن من يستقرىء أحداث التاريخ منذ أن صدع محمد ﷺ بما أمره الله به يلاحظ أن القوة في الاسلام لم تتخذ أبدا لإكراه الناس على الايمان بهذا الدين، لقد كانت في كل الأحوال ـ ولا عبرة ببعض ما كان من أخطاء أحيانا فهي تمثل الشذوذ في القاعدة ـ للحماية ورد الاعتداء وتحقيق الحرية

الدينية للانسان ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

إن الدعوة في المرحلة المكية لم تحمل سلاحا ولم تدخل معركة ، ومع هذا آمن بها من آمن رغم ضراوة الارهاب والعنت والاضطهاد والأذى ، كان المشركون يصبون ألوان العذاب على المؤمنين ، وما كان هذا العذاب ليحول دون انتشار الايمان وكثرة المؤمنين عاما بعد عام ، وبعد الهجرة أذن للمؤمنين بالقتال لأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم وسلبت أموالهم بغير حق ، وخاض المسلمون مع نبيهم عدة غزوات كانت كلها ردا على اعتداء ، وإنتصافا لمظلوم ، وتأديبا لناكث عهد أو مخالف لعرف ، وكانت هذه الغزوات كلها ـ باستثناء غزوة بدر ـ ذات طابع دفاعي محض ، أما غزوة بدر فيقرر بعض الباحثين أنها كانت ابتداء من المسلمين في محاولة لايجاد موضع قدم في ذلك العالم المعتمد على القوة ، وإيحاء الى قريش ذات القوة الكبيرة بأن المسلمين هم أيضا ذووا قوة كبيرة يستطيعون بها أن يفسحوا الطريق أمام دعوتهم دون خوف من قريش وقوتها [1] . والذي أراه في غزوة بدر أنها لم تكن

---

(1) أسلوب الدعوة في القرآن ـ محمد حسين فضل الله ـ ص 121 .

مقصودة لذاتها ، فالمسلمون في البداية لم يخرجوا لملاقاة قريش ولكنهم خرجوا لملاقاة قافلة تجارية في محاولة للاستيلاء عليها مقابل أموال المهاجرين التي اغتصبتها قريش قبل الهجرة ، وحين لم يتم لهم ذلك سمعوا بأن قريشا قد خرجت لملاقاتهم ومنعهم من تحقيق مرادهم ، وهنا لم يجد المسلمون بدا من المواجهة وكانت غزوة بدر .

أما بقية الغزوات فكانت بخلاف ذلك ، غزوة بني قينقاع كانت نتيجة نقض اليهود للعهد الذي أبرموه مع النبي ﷺ وذلك بمكاتبتهم للمشركين وتحالفهم معهم وتأليبهم لهم ضد المسلمين ، وكانت غزوة أحد ردا لقريش التي خرجت زاحفة على المسلمين تريد أن تثأر لهزيمتها في بدر ، وكانت غزوة الخندق مثالا واضحا على الدفاع عن الأهل والمال والوطن ، وكان حصار بني قريظة بعد غزوة الخندق وقتلهم نتيجة لنقضهم العهد وتحالفهم مع الأحزاب ضد المسلمين ، ثم يأتي فتح مكة الذي كان نتيجة اعتداء بني بكر وقريش على خزاعة حليفة المسلمين ، وبعد ذلك كانت حرب هوازن بسبب استعداد هوازن لحرب المسلمين وجمعهم الجموع لذلك بعد سماعهم بفتح مكة ، وكانت غزوة مؤتة بسبب اعتداء

عرب غسان الخاضعين للروم مرتين على أصحاب الرسول ، المرة الأولى عندما أرسل النبيﷺ وفدا الى ذات أطلاح يتكون من خمسة عشر رجلا دعوا من وجدوه من الأعراب للاسلام فلم يستجيبواوقتلوا الوفد كله الا رئيسهم كعب بن عمير الذي نجا من القتل ، واستطاع اللحاق بالمدينة واخبار النبي بذلك ، والمرة الثانية عندما أرسل النبيﷺ الحارث بن عمير الأزدى بكتاب الى الحارث بن أبي شمّر الغساني أمير بصرى من جهة هرقل الذي قتل رسول رسول الله رغم اصطلاح العرب على عدم قتل الرسل ، ولذا لم يجد الرسول بدا من الخروج لهؤلاء وتأديبهم على أفعالهم المخالفة للأعراف والتقاليد ، وكانت غزوة تبوك أيضا دفاعا عن النفس وذلك لما ورد أن هرقل لما سمع بانتصارات المسلمين وأنهم أصبحوا أصحاب شوكة في الجزيرة العربية جمع جيشا كبيرا على حدود الشام واستعد لغزو الجزيرة ، ولما سمع الرسول بذلك لم يكن أمامه خيار الا الاستعداد للمواجهة وبذلك وقعت غزوة تبوك [1] .

وبعد وفاة الرسولﷺ استمر الخلفاء في إرسال الجيوش

---

(1) أ ـ العرب وظهور الاسلام ـ محمد النجار .

ب ـ أسلوب الدعوةفي القرآن ـ محمد حسين فصل الله ـ ص 120 وما بعدها .

الى الأقطار الأخرى بنفس العزيمة الأولى ، منفذين بذلك أمر ربهم بتبليغ الدعوة الى النـاس كافـة ، ولا يتسـع المقـام هنـا لتفصيل أسباب كل المعارك والفتوحات التي وقعـت في عهـد الخلفاء أو في العصور التي تلتهم ، فهو ليس من طبيعة هذا البحث ، وقد تكفلت كتب التاريخ بتفصيل ذلك ولكني أقول ان طابع الدفاع ورد الاعتداء أو الانتصار للمظلومين كان هو الطابع الغالب على كل الفتوحات الاسلامية سواء قبل أو بعد وفاة الرسول ﷺ .

وهنا يمكن أن أقول : هل كانت هناك علاقة بين انتشار الاسلام والفتوحات الاسلامية ؟ أو بمعنى أوضـح هل أرغـم المسلمون ـ وهم في شدة انتصاراتهم ـ غيرهـم من الشعـوب على اعتناق الاسلام قسرا ؟

إن القرآن يتكفل بالرد هذه المرة فهو يقول : ﴿ **لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ [1] ويقول : ﴿ **ولـو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [2] ويقول : ﴿ **فذكر انما أنت مذكر لسـت**

---

(1) الآية 256 من سورة البقرة .

(2) الآية 99 من سورة يونس .

عليهم بمسيطر ﴾ [1] . فالقرآن هنا صريح في نفي الاكراه في الدين ، وصريح في التشديد على حرية الاعتقاد ، ذلك لأن هذا شيء يخص الانسان وحده ، والواجب على المسلمين فقط هو ابلاغ الدعوة الى جميع الناس ثم تركهم بعد ذلك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [2] .

واذا رجعنا الى التاريخ الاسلامي ـ وخصوصا في عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين ـ فاننا لا نجد فيه أية صورة تدل على القسر أو الاكراه في الدين ، ولمَ نجد فيه أيضا ما يدل على وجود أناس اعتنقوا الاسلام تحت تهديد السيف ، بل نجد فيه صورة واضحة جلية من التسامح الديني والحرية الدينية التي لم ير الناس مثلها من قبل ، يقول السيد أمير علي : (إن النبي ﷺ منح عهدا لرهبان دير (سانت كاترين) بالقرب من جبل سيناء ، ولجميع النصارى ، وقد عد هذا العهد بحق من أجلِّ الآثار الدالة على التسامح المستنير التي شهدها تاريخ العالم . وتدل هذه الوثيقة الفذة التي حفظها لنا مؤرخو الاسلام بأمانة على اتساع عجيب في النظر وسماحة

---

(1) الآية 21 من سورة الغاشية .

(2) الآية 29 من سورة الكهف .

الفكر وقد كفل النبي ﷺ للمسيحيين فيها من المزايا والضمانات ما لم ينعموا به في ظل الملوك من أهل دينهم ، وصرح فيها بأن أي مسلم ضيعها ونكث العهد الذي فيها كان لعهد الله ناكثا ولأمره متعديا وبذمته مستهينا ، وأعطى فيها العهد على نفسه وألزم أتباعه حماية المسيحيين والذبّ عن كنائسهم ومواضع رهبانهم وحمايتهم من الأذى ، وألاّ يحملوهم بالخراج الا ما طابت به نفوسهم وألا يخرجوا أسقفا من أسقفيته ، ولا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرها على الاسلام ، وألا يخرجوا راهبا من رهبانيته ولا سائحا عن سياحته ، وألا يهدموا كنائسهم ويدخلوها في شيء من أبنية المساجد أو منازل المسلمين واذا صارت النصرانية عند المسلم فعليه أن يرضى بنصرانيتها وألا يكرهها على شيء من أمر دينها [1] أليس في هذه الوصايا من الرسول ﷺ ـ الذي لا ينطق عن الهوى ـ دليل على أن الاسلام يدعو الى الحرية الدينية ويمارسها ، ويبتعد عن الاكراه والعسف ، ثم أن هذا ليس هو المثال الوحيد فكتب التاريخ والسيرة تزخر بالكثير من هذه الصور والأمثلة التي سار على نهجها المسلمون وطبقوها .

---

(1) روح الاسلام ـ سيد أمير علي ـ تر . أمين الشريف ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة . 1961 ـ ص 168 .

إن الكتب التاريخية تحدثنا أن الفترة التي نشطت فيها الدعوة الى الاسلام والتي شهدت اقبال الناس على اعتناق الاسلام هي تلك الفترة التي اتسمت بالاستقرار والبعد عن الحرب ، ففترة السلم بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة شهدت اسلام الكثير من الناس ، ويقول بعض المؤرخين ان من دخل الاسلام في تلك الفترة كان أكثر ممن دخلوه في المدة التي تقرب من عشرين عاما منذ بدء الدعوة حتى تلك الفترة[1] .

وفي حروب المسلمين مع الفرس والروم كانت الدعوة لا تنتشر ولا يعلو شأنها الا بعد أن تغمد السيوف وتنطفىء نار الحرب ، يقول (كيرك) : (إن غالبية أهل الشام « الوجه البحري » ومصر السفلى في القرن التاسع الميلادي كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الاسلام كان قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين) [2].

إن الاسلام الذي زحف الى افريقيا وبعض أجزاء من آسيا لم يكن يزحف تحت ظلال السيوف ، ذلك أن السيوف

(1) الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ص 195 .
(2) الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ص 196 .

لم تصل تلك البقاع قط ، وإنما وصل اليها عن طريق التجار والمسافرين الذين استطاعوا بسلوكهم وأخلاقياتهم الاسلامية أن ينقلوا الدعوة الاسلامية صورة عملية تلقفها الناس بشوق ولهف .

إن التاريخ يروي فيما يرويه عن حوادث القرن التاسع الهجري أن المغول قد شنوا على شرق العالم الاسلامي هجوما ساحقا مدمرا انهارت معه الخلافة العباسية ، وأهلكت فيه كل القوة الاسلامية في تلك المنطقة ، ولكن سرعان ما شع نور الاسلام من جديد واستطاع دعاة الحق أن يجذبوا هؤلاء الغزاة الى الاسلام . أليس في هذه الحادثة دليل قاطع على أنه لا وجود لأية علاقة بين انتشار الاسلام والجهاد في الاسلام .

وفي العصر الحاضر يزحف الاسلام بقوته الذاتية وعن طريق جهود فردية غير منظمة ، يزحف في أمريكا وينتشر انتشارا واسعا وخصوصا بين الزنوج ، ويزحف أيضا في أوربا وافريقيا وفي معظم بقاع العالم ، فهل للاسلام الآن سيف يصاحبه في انتشاره ، وهل هناك الآن أية قوة تحمي الاسلام سوى قوة الله تبارك وتعالى . لعله أصبح واضحا أنه لا علاقة بين الجهاد أو الحروب الاسلامية وبين انتشار الاسلام ، وأنه لا

وجود لأي قسر أو ارهاب أو اكراه استعمله المسلمون من أجل نشر دينهم .

ويتضح من كل ما سبق أن أهم الأسباب التي أدت الى قبول الناس للاسلام هي :

1 ـ ظهور الاسلام في وقت كان العالم يعاني فيه من الفساد السياسي والاضطراب الاقتصادي والتدهور الاجتماعي .

2 ـ اشتمال الاسلام على مبادىء سامية تعد بمثابة الدواء الشافي لكل تلك الأمراض التي عانت منها البشرية ولا زالت تعاني الى يومنا هذا .

3 ـ بساطة العقيدة الاسلامية وسهولة شعائرها وتعاليمها وسماحة مبادئها .

4 ـ اقرار مبدأ التسامح والحرية الدينية وممارسة ذلك عمليا .

5 ـ الخلق الكريم والسيرة الطاهرة الزكية التي كان عليها النبي ﷺ .

6 ـ السلوك الاسلامي الحميد الذي كان يمارسه الصحابة والفاتحون بوجه عام أينما حلوا ونزلوا .

7 ـ الحماسة الشديدة التي أظهرها المسلمون في سبيل نشر دينهم وايصال تعاليمه الى جميع الناس بالتي هي أحسن .

واذا كانت تلك أهم أسباب انتشار الاسلام فماذا يقول المستشرقون ومن نحا نحوهم عن هذا الانتشار ؟ ماذا يقولون عن أهداف الفتوحات الاسلامية ؟ كيف يفسرون قبول الناس واقبالهم على اعتناق الاسلام في صورة لم تعهدها ديانة من قبل ؟

ذلك ما سأحاول الاجابة عنه في الفصل الثالث من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى .

الفصل الثالث

آراء المستشرقين

عرض ومناقشة

لقد أشرت في المقدمة الى صعوبة حصر آراء المستشرقين جميعا في موضوع انتشار الاسلام ، وبينت أن ذلك يرجع الى تعدد جنسياتهم ولغاتهم ، وصعوبة الحصول على المؤلفات أو الدوريات التي تناولت ظاهرة اعتناق الاسلام في فترة زمنية لم يسبق إن انتشر في مثلها دين من قبل .

وقد حاولت مع هذا أن أقوم بتصنيف لآراء عدد من المستشرقين يبلغ عددهم حوالي ثلاثين مستشرقا ، ينتمون لما يقرب من عشر جنسيات ، مما تيسر لي الوقوف على المصادر التي وردت فيها تلك الآراء ، واتضح من استقراء تلك الآراء أن بينها تشابها وتداخلا ، وأن التفاوت بينها ليس كبيرا ، فهي كلها تسعى نحو غاية واحدة ، وهي تنفير غير المسلمين من الاسلام وتشكيك المسلمين في دينهم .

إن آراء هذا العدد من المستشرقين يمكن اتخاذه نقطة انطلاق في دراسة موقف هؤلاء من انتشار الاسلام ، كما يمكن التعويل عليها في بيان آراء المستشرقين بوجه عام من هذه الظاهرة ، إذ لا تكاد تخرج شبهاتهم عما حاولت جمعه وتصنيفه من تلك الآراء . والذي أود الاشارة اليه هو أن رأيا واحدا

لمستشرق يمكن أن يمثل أكثر من اتجاه ، لما عرف عن المستشرقين من الحديث عن آرائهم في صورة توحي بالموضوعية والكشف عن الأسباب كلها التي أدت الى ذيوع الاسلام وايمان الناس به ، ومن ثم قد يتكرر الرأي الواحد في أكثر من اتجاه ، أو قد يرد في اتجاه ويمكن أن يمثل اتجاها آخر . على أني اجتزأت في كل اتجاه ببعض الآراء وأشرت الى مصادر ما لم أذكر لأنه يدور في فلك ما أوردته فلا مسوغ للنص عليه . كما أني أود الاشارة أيضا الى أني عرضت الآراء مصنفة دون تعقيب أو مناقشة ، ثم تناولت كل اتجاه من هذه الآراء بالدراسة النقدية التي تحاول بلوغ الحقيقة في أمانة وموضوعية .

وفيما يلي سرد لآراء تلك الطائفة من المستشرقين وفقا لاتجاهاتها وتعليلها لظاهرة انتشار الاسلام : ـ

أولا : ـ إتجاه يقوم على اتهام الاسلام بأنه دين انتشر بالقوة ، واعتمد على السيف ، دون تعليل لهذا الاتهام غالبا ، وكمثال لهذا الاتجاه أورد ما يقوله (ماكدونالد) : (إن نشر الاسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة).[1] ، وما

(1) دائرة المعارف الاسلامية ـ ماكدونالد ـ مجلد 7 ـ ص 188.

يقوله (هاري اليس) في كتابه العرب : (إن سنة 732م وافقت ذكرى وفاة النبي محمدﷺ ، فبلغت بدعوته أقصى المغرب وكادت أن تصل الى أقصى المشرق ، ولم يكن السيف وحده قوام الدعوة بل كان كثير من أبناء البلدان المفتوحة يقبلون على الاسلام لتفضيلهم اياه على عقائدهم أو لأن الدخول في الاسلام يرفع عنهم الضرائب التي تجبى من غير المسلمين. . . .)[1]، وما يقوله (واشنجتون ايرفنج) وهو كاتب أمريكي مشهور : (إن بقاء الهلال حتى اليوم في أوربا حيث كان يوما ما بالغا غاية القوة انما يرجع الى اختيار الدول المسيحية الكبرى أو يرجع بالأحرى الى تنافسها ولعل الهلال باق ليكون دليلا على أن من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ)[2]، وما يقوله (جون هيجل) : (كان الاسلام دائما وسيبقى دائما دين السيف لأنه لا يمكن العثور على أي فكرة للحب في القرآن)[3] ، وما يقوله (نلسون) : (وأخضع

---

(1) الاسلام والحضارة الانسانية ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ص 293.

(2) المستشرقون والاسلام ـ زكريا هاشم ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ 1965 م ـ ص 44.

(3) من مقال للكاتب « PAUL HARVEY في صحيفة THE DAILY ADVERTISER ـ عدد الخميس 15 يناير سنة 1981 م .

سيف الاسلام شعوب افريقية وآسية شعبا بعد شعب) [1] ، وما يقوله (غيومان لوسيتر) في كتاب تاريخ فرنسة : (إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس أسلموا أو موتوا ، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم واحسانهم) [2] . وما ورد في كتاب تاريخ محاضرات الشرق الأدنى للمستشرق (ج . بلزاك) وهو كتاب يدرس لطلاب الصف الخامس في المدارس الفرنسية في بيروت : (وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الاسلام بالسيف اذا اقتضت الضرورة) [3] .

---

(1) التبشير والاستعمار - عمر فروخ والخالدي - ط 3 - المكتبة العصرية - بيروت - 1964 م - ص 41.

(2) الاسلام في قفص الاتهام - شوقي أبو خليل - ط 3 - دار الفكر - دمشق - 1977 م .

(3) الاسلام في قفص الاتهام - شوقي أبو خليل - ص 86 . وانظر في هذا الموضوع أيضا :

1 - PAUL HARVEY نفس المصدر السابق .

2 - تاريخ الشعوب الاسلامية - كارل بروكلمان - ص 78.

3 - امبراطورية العرب - جان باحوت جلوب - تر . خيري حماد - دار الكتاب العربي - بيروت - 1966 م - صفحتي 29، 40.

4 - المستشرقون والاسلام - زكريا هاشم - ص 43.

5 - THE SPREAD OF ISLAM «MICHAEL ROGERS ELSEVER PHAIDOH P 26

6 - الدعوة الى الاسلام - توماس أرنولد - تر . حسن ابراهيم وآخر - ط 3 =

ثانيا : ـ اتجاه يرى أن العامل الاقتصادي هو المحرك الأول لحركة الفتوحات الاسلامية ، حيث يرى بعض المستشرقين أن تحمس العرب في فتوحاتهم كان بسبب ما يعانيه هؤلاء في جزيرتهم من فاقة وجوع وحرمان ، وأن السبب الكامن وراء خروجهم من جزيرتهم هو طمعهم في ثروة القياصرة والأكاسرة ، ويلحق بهذا الاتجاه ما يذهب اليه مستشرقون آخرون من أن أهل الذمة أسلموا لا اقتناعا بالاسلام ولكن فرارا من دفع الجزية ، كما يلحق بهذا الاتجاه

= ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1970 م ـ ص 390.

7 ـ الحرب والسلم في شرعة الاسلام ـ مجيد خدوري ـ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت ـ 1973 م ـ ص 75, 78.

8 ـ تاريخ مسلمي اسبانيا ـ دوزي ـ تر . حسن حبشي ـ ج 1 ـ دار المعارف ـ القاهرة ص 27, 28, 32.

9 ـ العقيدة والشريعة في الاسلام ـ أجناس جولد زيهر ـ تر . محمد موسى وآخرون ـ دار الكاتب المصري ـ القاهرة ـ 1946 م ـ ص 27.

10 ـ من مقال بعنوان (صورة الاسلام والمسلمين في الكتب المدرسية الأمريكية ـ د . اياد القزاز ـ مجلة الدوحة ـ سنة 6 ـ عدد 65 ـ مايو 198 م .

11 ـ العرب ـ ادوار عطية ـ تر . محمد قنديل ـ الشركة العربية للطباعة ـ القاهرة ـ 1961 م ـ ص 19 .

12 ـ دراسات في حضارة الاسلام ـ هاملتون جب ـ تر . د . احسان عباس وآخرون ـ ط 2 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1974 م ـ ص 54، 55.

أيضا آراء أخرى ترى أن العلاقات التجارية بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى كانت عاملا هاما وراء اسلام الكثير من الكفار الذين تعنيهم هذه العلاقات . يقول (توماس ارنولد) : (وكان أقوى من ذلك جذبا لهم الى الاسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تتح لهم الا حياة تقوم على البؤس تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر) [1]، ويقول أيضا : (ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعية نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد حظا منهم) [2] ، ويقول (ستانلي لين بول) : (إن من المحقق أن تحمس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوي من التعصب للدين والرغبة في نشره ، فقد حاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون في سبيل الله ، غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة القياصرة

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 64.

(2) نفس المصدر السابق ـ ص 64.

والأكاسرة والأراضي الخصبة والمدن العامرة في الممالك المجاورة كانت عاملا كبيرا في تحمس المسلمين) [1]. ويقول (دوزي) : (فقد كان المعروف أن أوامر الدين تسقط الجزية في الحال عمن يسلم من الذميين الذين في دار الاسلام مسيحيين كانوا أم يهودا ولا تجبى هذه الجزية الا ممن بقي على دين أسلافه فكان من جراء هذا الطعم الذي يزكيه الطمع أن أخذت الملة الاسلامية تتلقى كل يوم في أحضانها جماعات من المسلمين الذين لم يعتنقوه إيمانا تاما منهم بل كان همهم الأول الاحتفاظ بالمال والمتاع الدنيوي) [2] ، ويقول (فيليب حتي) : (إن الحاجة المادية هي التي دفعت معاشر البدو ـ وأكثر جيوش المسلمين منهم ـ الى ما وراء تخوم البادية القفراء ، الى مواطن الخصب في بلدان الشمال ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض الى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى فان ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الخصيب كان

---

(1) موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ د. أحمد شلبي ـ ج 1 ـ ط 7 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1977 م ـ ص 291.

(2) تاريخ مسلمي اسبانية ـ دوزي ـ ص 138.

الدافع الذي حبب لهم القتال [1]) .

ثالثا : ـ إتجاه يحكم على الأفواج التي آمنت بالاسـلام بأنها لم تكن موقنة بصحة هذا الدين ، وإنما حملتها ظروف شتى على اعتناقه ، يقول (توماس سمث) وهو يتحدث عن البواعث التي حملت الناس على الدخول في الاسلام في عهد الأتراك : (من المحزن أن نحصي هذا العدد الضخم من القوم التاعسين الذين انقلبوا أتراكا فأسلم فريق بدافع اليأس البالغ وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفار واهانتهم وأسلم فريق آخر نتيجة مهزلة سقيمة هوجاء ليتبوؤوا مكانة يملكون بها ناصية الحكم وينزلون الاهانة بغيرهم

---

(1) تاريخ العرب ـ فيليب حتي وآخرون ـ ح 1 ـ ط 4 ـ دار الكشاف ـ بيروت ـ 1965 م ـ ص 195, 196.
وانظر في هذا الموضوع أيضا :

1 The Arabs in history — Bernard lewis — harber and row publishers Newyork 1958 P. 54.
2 The venture of Islam — hodeson — part 2 — U. S A The university of shicago press — 1954 p. 533

3 ـ مقال بعنوان (الاسلام والتعريب) ـ عاشور سعيد ـ مجلة عالم الفكر ـ عدد 2 ـ يوليو 1979 م ـ ص 172

4 ـ The daoly advertiser — paul harvey.

5 ـ الاسلام في عظمته الأولى ـ موريس لومبار ـ تر . ياسين الحافظ ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ 1977 م ـ ص 10.

6 ـ الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ص 203.

من الناس ، وأسلم فريق آخر تخلصا من ألوان العقاب والبلاء جزاء بما ارتكبوه من جرائم ولكي ينعموا بالحريات التي تنطوي على الوحشية والتي قدسها محمد باعتباره مثلاً اقتدى به أتباعه . هذه هي البواعث والأسباب الهامة المغرية التي دفعتهم الى هذا الارتداد وما هي الا دوافع تنشد الراحة واللذة والرخاء بل تنشد العبث والآثام ذلك أنه لا يمكن أن نتصور أن يغري أحد من الناس عن طريق الاقناع العقلي باعتناق هذه العقيدة التركية وأباطيلها) [1] ، ويقول (مارشال هودجسون) : (هناك ضغوطات اجتماعية ربما أدت الى التحول الى الاسلام فالرجال ربما تحولوا الى الاسلام لرغبتهم في الزواج من فتيات مسلمات اللاتي لم يكن يسمح لهن بواسطة الشريعة أن يتزوجن من المختلفين عنهن في الدين ، والنساء ربما أصبحن مسلمات من أجل الحاجة الى الزواج من المسلمين الذين لهم الحق في أن يتزوجوا من مسيحية أو يهودية) [2] ، ويقول (فيليب حتي) : (على أن الاسلام الذي فتح أراضي الشمال لم يكن الدين بل الدولة . والعرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه انما كانوا مدفوعين بعامل قومي . فالفوز

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 193.

THE VENTURE OF ISLAM « HODGSON.(2)

الأول كان للقومية العربية لا للدين الاسلامي) [1] .

رابعا : ـ إتجاه يرى في فكرة الجهاد الاسلامي أنها وسيلة لوحدة الأمة الاسلامية وأنها مع هذا مصدر خطر على الأمم الأخرى ، يقول الدكتور وهبه الزحيلي : (قابلت المستشرق الانجليزي (اندرسون) في مساء يوم الجمعة ٣ حزيران 1960 م فسألته عن رأيه في هذا الموضوع فكان من نصيحته لي أن أقول : إن الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على مثل قاعدة (تتغير الأحكام بتغير الأزمان) إذ أن الجهاد في رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية . ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الاسلام وأوضاع الحرية ورقي العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة) [2] . ، وهذا المستشرق هو نفسه الذي يقول : إن الجهاد الآن يتناقض مع ميثاق الأمم المتحدة

---

(1) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ـ ص 197.
وانظر في هذا الموضوع أيضا :
1 ـ الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 55 ـ رأي للمستشرق (موير) .
2 ـ نفس المصدر السابق ـ ص 60، 64.
3 ـ نفس المصدر السابق ـ ص 200 ـ رأي للمستشرق (زورشيكا) .
(2) اثار الحرب في الفقه الاسلامي ـ د. وهبه الزحيلي ـ ص 95.

وشريعة حقوق الإنسان ولذلك فانه لا يتفق مع روح العصر[1] .

هذه هي اذا مجمل آراء المستشرقين في الفتوحات الاسلامية ولعل المنهج العلمي يقتضي تناولها بالرد والمناقشة وفقا لترتيبها آنفا ووفقا لما أشرت اليه من محاولة التزام الأمانة والموضوعية .

الاتجاه الأول : ـ

قبل مناقشة مضمون هذا الاتجاه أرى من الضروري الاشارة الى منزلة الانسان في الاسلام ، فلهذه المنزلة علاقة وثيقة بالرد على أصحاب هذا الاتجاه ودفع ما يذهبون اليه .

إن الله تبارك وتعالى ميز الانسان بما لم يميز به كثيرا من خلقه ، فلقد منح الله الانسان العقل الذي يستطيع به أن يعرف الخير من الشر والحق من الباطل ثم سخر له هذا الكون كله تقريبا ، ولم يدعه مع هذا لنفسه الامارة بالسوء ، فقد أرسل اليه رسلا تترى مبشرين ومنذرين ، وكان محمد ﷺ هو خاتم

---

(1) من مقال بعنوان (الاستشراق والمستشرقون) ـ د. مصطفى السباعي ـ مجلة حضارة الاسلام ـ عدد 10 ـ سنة 3 ـ مايو 1963 م .

هؤلاء النبيين ، وكان القرآن الكريم هو آخر وحي الله الى الانسان حتى تقوم الساعة .

وقد بينت آيات الكتاب العزيز أن الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة وأن مصيرهم الى الله ، وهذا يعني أنهم كافة سواء في الحقوق والواجبات ، وأنه لا تفاضل بين شعب وآخر أو قبيلة وأخرى الا بالتقوى والعمل الصالح ، فلا عنصرية ولا فضل لجنس على آخر باللون والمال والجاه ونحو ذلك مما تعارف عليه الناس في غيبة الوعي الصادق بعبوديتهم لله تبارك وتعالى .

وما دام الناس أمة واحدة مهما تنوعت ألسنتهم وألوانهم ، فان حماية الانسان في كل مكان على ظهر هذه الأرض مسئولية الناس جميعا ، ويعد الاعتداء على فرد واحد اعتداء على البشر كلهم ، كما يعد احياء نفس واحدة احياء للناس جميعا ، وهذا يؤكد المسئولية الجسيمة الملقاة على عاتق الناس من أجل حماية الانسان ودفع المكروه والظلم عنه . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما**

قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾[1] ، فهذه الآية تقرر في جلاء ما يجب على المجتمع الانساني من العمل على حماية الأنفس ودفع العدوان عنها . واذا كانت الآية تتحدث عن بني اسرائيل فحكمها ماض الى يوم القيامة ، لأن كل ما جاء في كتاب الله ولو كان على سبيل الحكاية والاخبار عن السابقين هو تشريع للمسلمين الى يوم الدين . قال ابن المبارك عن سلام ابن مسكين عن سليمان بن علي الربعي قال : قلت للحسن : هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني اسرائيل فقال : أي والذي لا اله غيره كما كانت لبني اسرائيل وما جعل دماء بني اسرائيل أكرم على الله من دمائنا[2] .

ولقد اتبع المسلمون ما أمرهم به القرآن من المحافظة على النفس وعدم ايذائها ، وكانوا القدوة الحسنة حتى في أحلك الظروف ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك ، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة ، أيسرك أن تقتل الناس جميعا

---

(1) الآية 32 من سورة المائدة .

(2) تفسير القرآن العظيم - إبن كثير - ج 2 - ط 2 - دار الفكر - بيروت - 1970 م - ص 553.

واياي معهم ؟ قلت : لا . قال : فانك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا ، فانصرف مأذونا لك مأجورا غير مأزور ، قال : فانصرفت ولم أقاتل [1] . إذن فالإسلام يقيم أهمية خاصة للنفس الانسانية ، فهو يحرم ازهاق الأرواح تحريما قاطعا الا اذا كان هناك سبب موجب للقتل ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق** ﴾ [2] ، ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** ﴾ [3] . إنها إذن جريمة كبيرة تلك التي يتوعد الله فيها القاتل بالغضب واللعنة والعذاب العظيم .

وما دام الاسلام قد كرم الانسان ذلك التكريم ودعا الى حمايته والدفاع عنه وحفظ حرماته ، فلماذا أباح القتال وحث عليه ، وأعد للذين يقاتلون في سبيله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ هل يتعارض هذا الموقف مع ما قررت الآيات القرآنية من تكريم للانسان وحماية له ؟ .

إنه لا تناقض ولا تعارض بين منزلة الانسان في الاسلام

---

(1) نفس المصدر السابق ـ ص 552

(2) الآية 33 من سورة الاسراء .

(3) الآية 93 من سورة النساء .

وما دعا اليه هذا الدين من جهاد مسلح ، إذ أن هذا الجهاد جوهره لون من ألوان تكريم الانسان وحمايته من الطغاة والمفسدين والذين لا يدعون الناس أحرارا يؤمنون بما يرغبون ، بل يفرضون عليهم المبادىء والعقائد الفاسدة ويحملونهم عليها حملا .

إن الجهاد في المفهوم الاسلامي وسيلة من وسائل تمكين الانسان من العيش حرا كريما يتمتع بارادة كاملة ومسئولية مطلقة ، واذا فقد الانسان حريته وارادته فقد فقد كل معنى لحياته ، وأصبح مهانا في وجوده ، لا يختلف كثيرا عن الحيوان فهو مسخر لسواه يعمل وفق مشيئته ، ولا يملك حق العصيان أو الاعتراض ، فأي تكريم وحماية للانسان أولى من هذا التكريم !! والتاريخ يؤكد ما سبقت الاشارة اليه ، فما حمل المسلمون سلاحا الا لتلك الغاية المقدسة ، وما بذلوا أرواحهم الا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ففي المدينة وبعد الهجرة بنحو عام أذن للمؤمنين بالقتال دفعا للظلم واحقاقا للعدل ، قال تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفاع الله الناس

بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيهـا اسـم الله كثـيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقـوي عزيز ﴾ [1] ، يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية : (المراد أنهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحـاب رسـول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهـم أذى شديدا وكانـوا يأتـون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية) [2] ، ويقول القرطبي في تفسيره لهـذه الآية : (لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتـال ليتفـرغ أهـل الـدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم في الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ، فكأنـه قال : أذن في القتـال فليقاتـل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله : (ولولا دفع الله الناس) الاية ، أي لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل

---

(1) الاية 39 من سورة الحج .

(2) التفسير الكبير - فخر الـدين الـرازي - ج 6 - دار الفـكر - بـيروت - 1978 م - ص 162.

أمة . فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ، إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يذب عنه . وأيضا هذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم ، وقبل نسخ تلك الملل بالاسلام انما ذكرت لهذا المعنى ، أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع وفي زمن محمد عليه السلام المساجد) [1].

إن المسلمين ظلموا واضطهدوا وأبعدوا عن ديارهم وسلبت أموالهم دون أن يرتكبوا ما يوجب ذلك ، فهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم قالوا ربنا الله ، فهل يرى بعد ذلك أي انسان له ذرة من العقل غضاضة في أن يحمل المسلمون سيوفهم ويدفعوا الظلم الذي لحق بهم ، إن كل الشرائع والأديان والقوانين العرفية والأخلاقية لا تنكر على الانسان أن يدافع عن نفسه ، ولقد خلق الله لكل نوع من الحيوانات وسيلة يدافع بها عن نفسه ، فكيف اذا ننكر على هؤلاء دفاعهم المشروع عن أنفسهم ونقول انهم قتلة وسفاكو دماء ؟!

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله القرطبي ـ ج 12 ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ 1967 م ـ ص 70.

الطابع الدفاعي لغزوات الرسول : -

واذا كان الاذن بالقتال في بادىء الأمر لسبب رد الظلم والدفاع عن النفس ، فاننا نجد أن الطابع العام لغزوات النبي ﷺ المشهورة كان دفاعا عن النفس وليس اعتداء ، فالرسول ﷺ في بدر خرج يريد الاستيلاء على أموال قريش نظير أموال المسلمين التي سلبت منهم في مكة ، فلم يكن يريد قتالا ولكنه فوجىء بأن قريشا خرجت بكل ما لها من قوة تريد أن تسكت أي صوت يعلو على صوتها فكان لا بد للنبي ﷺ وأصحابه من الدفاع ورد المعتدين ، وفي أحد أراد المشركون أن يثأروا لقتلاهم في بدر فاستجلبوا من استطاعوا من العرب وخرجوا يريدون غزو المسلمين ، وقد فكر النبي ﷺ في أمرهم فأمر أصحابه في بادىء الأمر بعدم الخروج ، ولكن تحت الحاح أصحابه أذن لهم في ملاقاة عدوهم والدفاع عن أرضهم خارج المدينة لا داخلها [1] ، وفي غزوة الخندق تظاهرت قوى الشرك في الجزيرة مع اليهود على ضرب المسلمين ضربة قاصمة في المدينة ، ولجأ هؤلاء أمام هذه القوى الباغية الى حفر الخندق

---

(1) فتح الباري - العسقلاني - كتاب المغازي - ج 8 - مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة - 1959 م .

دفاعا عن مدينتهم ، وذودا عن أموالهم وأعراضهم ، وكان فتح مكة نتيجة غدر المشركين ونقضهم للعهد حين اعتدوا على قبيلة من القبائل التي حالفت المسلمين ، ولا شك أن كل القوانين والأعراف تعطي الحق للحليف في نصرة حليفه .

وحين الحديث عن فتح مكة لا يفوتني أن أشير الى أن ما فعله النبي وأصحابه في مكة يعد وحده أكبر وأقوى شاهد على ابتعاد المسلمين عن سفك الدماء يثبت للبشرية مدى حرص المسلمين على السلام ، ومدى تقديرهم لقيمة النفس البشرية ، فماذا يتوقع المرء من النبي ﷺ أن يفعل بقريش التي أهانته وعذبته وشردته هو وأصحابه من موطنهم ؟ ماذا يمكن أن يفعل بهم وقد جاءه الوقت الذي أصبح فيه قادرا عليهم ؟ لا شيء يمكن أن يجاب به سوى أنهم شعب يجب أن يسحق نهائيا جزاء ما فعله ضد الدعوة الاسلامية ومعتنقيها ، ولكن التفكير النبوي كان أسمى من ذلك بكثير ، كان تفكيرا ينبع من هدى الاسلام وتعاليمه ، كان تفكيرا يمقت القتل وسفك الدماء ويجنح الى السلام والأمان ، لقد خلد الرسول في هذه الغزوة مبدأ تاريخيا عظيما حين قال : إذهبوا فأنتم الطلقاء ، لقد كان لهذه الكلمة أثرها العظيم في نفوس القرشيين الذين لم ترهبهم سيوف المسلمين بقدر ما أرهبتهم تلك الكلمة العظيمة ، فراحوا اثرها

يتدافعون أفواجا للتشرف باعتناق هذا الدين الذي ضرب أروع الأمثلة في التسامح والرحمة ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** ﴾[1] .

وإذا انتقلنا الى مجابهة الرسول ﷺ لليهود فاننا نجدها كلها كانت بسبب غدر اليهود ونقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع المسلمين ، وكانت أيضا بسبب المكايد التي دبروها للنبي وأصحابه من المسلمين ، ولكن مع كل ما أظهره اليهود من كيد وغدر كان النبي ﷺ يرفق بهم ويتسامح معهم اذا نقضوا عهده أو حاربهم فانتصر عليهم ، وكان عليه السلام لا يعاقبهم الا بمقدار ما يكف أيديهم عنه وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم ، وكانت معاملته لليهود أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها[2] .

ولم تكن غزوات الرسول ضد الروم ومن تابعهم من العرب تختلف عن سابقاتها من الغزوات ، فغزوة مؤتة كانت

---

(1) سورة النصر .

(2) تاريخ الاسلام ـ د. حسن ابراهيم ـ ج 1 ـ ط 9 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1975 م ـ ص 132.

بسبب اعتداء ملك الغساسنة الحرث بن أبـي شمّـر الغسانـي على رسول رسول الله ﷺ حين أتاه يدعوه الى الاسلام ، وهو بلا شك انتهاك واضح للعرف الدولي ، فالرسل لا تقتل مهما كانت الأسباب ، ولكن ملك الغساسنة تجاهل ذلك المبدأ وقتل رسول رسول الله ﷺ ، فما كان من المسلمين الا أن جهزوا جيشا للقصاص من ذلك الذي لم يحترم هذا العرف الانساني والذي أظهر استعدادا لغزو المسلمين في عقر دارهم ، وكانت مجابهة المسلمين للروم في تبوك نتيجة ما سمعه المسلمون من تجمع الروم وبعض القبائل العربية على حدود فلسطين ، وعقد نيتهم لغزو المسلمين في عقر دارهم .

هذه هي أهم الأحداث العسكرية التي وقعت في حياة رسول الله ﷺ ، وهي بلا مراء تعطي نتيجة واحـدة وهـي أن المسلمين في هذه الفترة قد حملوا السيوف مضطرين من أجـل الدفاع عن أنفسهم ، وعن عقيدتهم التي أراد لها الكفـار أن تموت في فترتها الأولى ، ولو أن الكفار تركوا المسلمين وشأنهم ولم يتعرضوا لهم لما كان هناك موجب للقتال وحمل السيف ، ولقد شهد التاريخ بأن المسلمين عندما حملـوا السيف كانـوا يسيرون تحت امرة نبيهم الذي كان يأمرهم دائما بالرحمة والرفق

والمحافظة على الأخلاق الاسلامية التي تدعو الى اجتناب الأطفال والنساء والشيوخ وعدم اعتبارهم محاربين ، عن أنس أن الرسول ﷺ قال : انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين [1] ، وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع[2] . وبمثل هذه الروح الاسلامية التي لم تعرفها الأمم السابقة للاسلام أو اللاحقة له كانت الخسائر في المعارك قليلة حتى انه قيل أن عدد القتلى في الحروب التي وقعت خلال ثلاث وعشرين سنة من بعثته ﷺ وحتى وفاته لم يتجاوز ثلاثمائة وخمسة وسبعين رجلا من العرب[3] . وهو شيء خيالي لم تحققه أي دعوة دخلت في صراع مع أعدائها ، إن ذلك يعتبر بحق أحد الشواهد الدامغة التي تدحض افتراء القائلين بأن المسلمين قتلة وسفاكو دماء .

---

(1) سنن البيهقي ـ 9 ـ ص 90.

(2) سنن أبي داوود ـ 3 ـ ص 52.

(3) الاسلام في قفص الاتهام ـ شوقي أبو خليل ـ ص 91.

وفي هذا الصـدد تجـدر الاشـارة الى رأي للمستشرقـة (لورافيشيا فاغليري) تحدثت فيه عن الموقف الذي كان يواجه الرسول ﷺ حين الاذن بالقتال وبعد الهجرة فتقول : (كان من دأب الرسول ، بوصفه نبيا موحى اليه ، أن يخاطب المكيين ويحدثهم عن رؤاه السماوية التي طلبت اليه أن يصبر على الأذى والتي أثارت سخط قريش حتى اذا اتخذ القرار العسير بالهجرة الى المدينة ، وبذلك أصبح محور صراع سياسي ، كان عليه أن يختار بين الموت على نحو مذل ، وهو أمر لا يتفق مع رغبات الله ، وبين القتال لانقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهـلاك . كان الصراع يدور بين الفوضوية ومـادية الـوثنيين المتبربـرين ومخـاصمات وأكاذيب اليهـود غـير المتسامحـين على الرغـم من تحضرهم البعيد ، من ناحية ، وبين مثل أعلى رفيع في التجدد الدينـي والاجتماعـي من ناحية ثانية . ذلك كان المثـل الأعلى الذي أراد محمد أن يحققه بأي ثمن فقاتل قتال الرجل الـوديع ضد الغطرسة والطغيان ، أو قل قتال الرجل الذي لا يرغب في الحرب ولكنه مكره على منازلة أولئك الذين أصروا على تدميره بالقوة) [1] .

---

(1) دفاع عن الاسلام ـ لورافيشيا فاعليري ـ تر . منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1963 م ـ ط 2 ـ ص 30.

حروب الردة : ـ

وإذا انتقلنا الى الحروب الاسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ وبخاصة في عهد الخلفاء الراشدين ، فان أول ما يطالعنا في تلك الحروب هو حروب الردة والتي كانت من الخطر بحيث أنها هددت بنسف الدعوة الاسلامية التي أرسيت دعائمها في الجزيرة العربية في عهد الرسول ﷺ ، وفي هذه الحروب يبرز الموقف البطولي والخالد لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه الذي أحس بأن الاسلام يواجه كارثة حقيقية لا مناص من مواجهتها ومن هنا فقد أصر على قتال المرتدين رغم معارضة الصحابة ، وسجل له التاريخ ذلك الموقف الذي قال فيه : والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي[1] . ماذا يمكن أن يحدث لو أن طائفة من الناس في أي دولة من دول العالم الآن أعلنت العصيان في وجه السلطة الحاكمة ؟ إن الجواب بكل تأكيد هو أنها سوف تسحق نهائيا وسوف يبيدها الحاكم عن آخرها رغم أن هذه الطائفة قد تكون على حق ، وأن الحاكم الذي أبادها ليس له مبرر سوى تمسكه بكرسيه وانتصاره

---

(1) حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ص 419.

لشهواته وهو أمر تعود الجميع على سماعه في الكثير من دول العالم دون أن يسمعوا أي تنديد أو استنكار لما يفعله ذلك الحاكم من أية جهة أخرى رسمية أو عادية ، وكمثال على ذلك ما يحدث الآن في ايرلنده وشيلي والفلبين وافريقيا وغيرها من بقاع العالم الأخرى التي نهضت فيها طوائف تطالب بحقوقها وتناضل من أجل نيل حريتها . أما حين يفعل ذلك الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وهو من هو في التقوى والورع والزهد والعفة ، وهو الذي لم يعرف التاريخ أنه أراد منصبا أو كرسيا أو جاها ، حين يفعل ذلك ضد طائفة تريد تمزيق وحدة الجزيرة وتهديد كيان الاسلام ، ليس لها هدف شرعي تناضل من أجله ، طائفة أرادت أن تمتنع عن أداء فريضة كتبها الله للفقراء والمساكين من أموال الأغنياء ، أو طائفة عادت الى الوثنية وتخلت عن العقيدة الاسلامية ، أو هؤلاء الذين ظنوا النبوة سلطانا ومتاعا فزعموا أنهم أنبياء ، حين يفعل ذلك ضد تلك الجماعات ومنها من تآمرت مع الفرس والروم ومع بقايا اليهود في شمال الحجاز الذين قدموا لهم المساعدات العسكرية وآووا المتمردين في ديارهم [1] ، أقول حين يفعل الخليفة ابو

---

(1) الاسلام وحركة التاريخ ـ أنور الجندي .

بكر رضي الله عنه ذلك تثور ثائرة مؤرخي الغرب ويجدو، فرصة لقذف الاسلام بالاتهامات التي يأتي على رأسها أنه دين قتل وسفك دماء وكمثال على ذلك أورد قول دوزي عندما كان يتحدث عن حروب الردة : (إذا لم تكن هذه البحار الجمة من الدماء كافية لاقناع العرب فلا أقل من أنهم أدركوا أن الاسلام قوة لا يمكن مقاومتها وأنه قوة خارقة ولما رأوا سقوط الكثيرين منهم بحد السيف استبد بهم الذعر والذهول وعزموا على اعتناق الاسلام أو على الأقل ـ التظاهر باعتناقه ـ وأراد الخليفة ألاّ يتيح لهم من الوقت ما يذهب عنهم الفزع فقذف بهم في الحال على امبراطوريتي الروم والفرس)[1] . اذا فان حروب الردة في رأي دوزي كانت لاكراه الناس على اعتناق الاسلام ، وأن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه أغرقهم في بحر من الدماء لكي يحولهم الى مسلمين ، إن هؤلاء كانوا مسلمين ولم يرفضوا الاسلام كدين وانما رفض بعضهم تأدية الزكاة بحجة أنهم كانوا يؤدونها للرسول ولا يوجد مبرر لأدائها بعد وفاته ، ثم الذين ارتدوا أو ادعوا النبوة قد خرجوا على قواعد الدين وأصوله ، وأثاروا فتنة بين الناس فوجب ردعهم وعقابهم ، ثم

(1) تاريخ مسلمي اسبانيا ـ دوري ـ تر . حسن حبشي ـ ج 1 ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص 32.

إن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه كان يحفظ ويفهم القرآن خيرا من دوزي آلاف المرات ، ألم يكن يعرف قول الله تعالى : ﴿ **لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ [3] إن أبا بكر رضي الله عنه كان يعي جيدا هذه الآيات ولهذا فان هدفه لم يكن تحويل الناس الى الاسلام بالقوة ، وإنما كان يهدف الى اخماد فتنة كادت أن تعصف بوحدة الجزيرة العربية ، ليست دينية فقط ولكنها كانت سياسية أيضا . ثم إنه يقول إن الخليفة أراد ألا يترك لهم فرصة فقذف بهم الى الروم والفرس ، ترى هل يمكن أن نضمن نجاح حرب عدتها جنود مكرهون على القتال اكراها ، ليس لهم هدف يقاتلون من أجله ، كيف يمكن لقائد أن يغرق شعبا في الدماء ثم يعتمد على ذلك الشعب ان ينتصر له من قوم آخرين . إن التاريخ يثبت أن المسلمين انتصروا على أكبر امبراطوريتين في ذلك الوقت ، وأن انتصارهم كان

---

(1) الآية 256 من سورة البقرة
(2) الآية 99 من سورة يونس .
(3) الآية 29 من سورة الكهف .

بواسطة الايمان الذي عمر قلوبهم ، وأشعرهم بصدق هدفهم وسلامة رسالتهم ، إذا فان ما يقوله دوزي هو منطق ساذج ، وافتراء واضح ليس للعقل ولا للمنطق ولا للمنهج العلمي فيه نصيب .

المجابهة مع الفرس : -

بعد حروب الردة يبقى الكلام على المجابهة بين المسلمين والفرس ، تلك المجابهة التي نمت بذورها منذ أن أرسل الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى عظيم الفرس حاملا معه كتابا يدعوه فيه الرسول الى الاسلام انطلاقا من مسئولية تبشير الدعوة عالميا التي كلف بها المصطفى ﷺ والمسلمون من بعده ، وحين قراءة كسرى لهذا الكتاب وجد اسم النبي مقدما على اسمه ، فاستشاط غضبا ومزق الكتاب وكتب الى عامله على اليمن يأمره بأن يأتيه برأس محمد ، ففعل العامل مثلما أمر ولكن مهمته باءت بالفشل[1] ، وهذه القصة تحمل دلالة كبيرة من دلالات التحدي الذي أظهره الفرس عندما شعروا بنمو الدولة الاسلامية وعظم شأنها ، واذا أضفنا الى ما تقدم حادثا آخر ، وهو اعتداء عرب الحيرة التابعين

---

(1) الكامل - ابن الأثير - مجلد 2 - دار صادر ودار بيروت - بيروت - 1965 م - ص 213.

للفرس على المسلمين المجاورين لهم ، فان الموقف يزداد وضوحا وهو أن المجابهة مع الفرس لا بد من حدوثها ، ذلك أن الفرس يريدون بلا شك تهديم الكيان الجديد الذي نشأ في الجزيرة العربية ، ومن ثم فقد أرسل الخليفة أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد لينتصر للمسلمين المجاورين للحيرة ، وبذلك بدأت المعارك بين المسلمين والفرس ولم تتوقف الا بانقضاء مملكة فارس وسطوع شمس الاسلام على تلك البقعة من الأرض .

وبالنظر الى الأسباب التي أدت الى المجابهة بين المسلمين والفرس نجد أن المسلمين قد اضطروا الى هذه المجابهة ، وأنهم لم يكونوا البادئين بالعدوان وذلك تنفيذا لأوامر القرآن الكريم الذي يجوز القتال بعد وقوع الاعتداء من الطرف الآخر : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [1] وعلى ذلك فان حروب المسلمين مع الفرس لا تختلف عن غيرها من حروب المسلمين مع الأقوام الأخرى ، فجميعها ذات طابع دفاعي ليس فيها هدف لاشعال نار الحرب والانتقام من الآخرين ، ولقد اعترف بذلك كثير من

---

(1) الآية 190 من سورة البقرة .

مفكري الغرب المنصفين الذين درسوا ظاهرة الفتوح الاسلامية دراسة موضوعية أمينة ، فقادتهم دراستهم هذه الى الاعتراف بحق المسلمين المشروع في حروبهم ، وتأكدوا جيدا أن المسلمين أصحاب عقيدة يذودون عنها ، ويهبون أرواحهم في سبيل المحافظة عليها وتوصيلها الى شعوب الأرض كافة دون الزام لأحد بها . يقول المستشرق (مارسيل بوازار) : (لقد أجبرت الضرورات النبي محمدا على تأليف جيش لصد الهجمات المعادية وارسال حملات وقائية من الجيران الخصوم . ولما كان رجلا مستقيما ، وسياسيا مرهفا ، ومخططا بارعا ، فقد استشعر ضرورة (ردع) أعداء مجتمعه . وكان عليه قمع غارات السلب والنهب وتوفير السلام والأمان على طريق القوافل . وأخيرا كانت القوة المسلحة تبدو في نطاق الحروب القبلية التي كانت تمزق أوصال الجزيرة العربية ضرورة حيوية كيلا يتجرأ (أعداء الاسلام ويتعرض للخطر وجود الدولة التي كانت في أولى مراحل نموها) وهكذا تكتسب المعارك ، حتى التي كان النبي يبدأ بشنها طابع الرد على الاستفزاز أو التدبير الاحترازي لحماية النفس) [1] .

---

(1) انسانية الاسلام - مارسيل بوازار - تر . د. عفيف دمشقية - دار الآداب - بيروت - 1980 م - ص 264.

العنف في الحروب الاسلامية :

إن كتب التاريخ التي تناولت سير المعارك والحروب بوجه عام تحدثنا أن العنف ظاهرة ملازمة للحروب ، فالجيوش عندما تهاجم ديار قوم لا تعرف شفقة ولا رحمة ، ولا ترعى حرمة ولا تفرق بين كبير ولا صغير ، ولا تترك دابة ولا شجرة ، وذلك لأن هدفها هو الانتقام والتشفي ، واسكات كل صوت يعارض وجودها أو يرفع السلاح في وجهها ، وهذا ليس شأن الجيوش الغازية لأجل منافع اقتصادية وسياسية فحسب ، بل ساد ذلك العنف حتى في بعض الديانات التي سبقت الاسلام ، وقد ورد في الاصحاح الثالث عشر من تثنية الاشتراع (فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها من بهائها بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب الهك فتكون تلا الى الأبد لا تبنى بعد) [1] وورد في الاصحاح العشرين : (إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلا ومراكب قوم أكثر منك ، فلا تخف منهم لأن معك الرب

---

(1) آيات الجهاد في القرآن الكريم - كامل سلامة الدقس - دار البيان - الكويت . 1972م - ص 101 - نقلا عن الاصحاح الثالث عشر من تثنية الاشتراع .

الهك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك وعملت معك حربا فحاصرها واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك . هكذا تفعل في جميع المدن البعيدة جدا أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما)[1] ، ويقول جيبون : (إن الحملة الصليبية الأولى تركت في التاريخ أقسى ما عرف من التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد مسيحيي الشرق . فان الصليبيين خدام الرب يوم أن استولوا على بيت المقدس في 15/ 7/ 1099، رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم لم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال فقد حطموا رؤوس الصبيان على الجدران وألقوا الأطفال الرضع من أسوار المعاقل والحصون ، وشيّ الرجل على النار ، وبقر بطون الحوامل ليروا هل ابتلع أهلها الذهب واستمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام ولم تنته الا لما أعياهم الاجهاد من القتل وقد شوهد القاصد الرسولي مندوب البابا وهو يشارك في هذا

(1) المصدر السابق ـ نقلا عن الاصحاح العشرين من 10- 18.

الانتصـار) [1]، ويروي ابـن الأثـير هذه المذبحـة فيقـول :
(وقتـل الفرنـج ، فالمسجـد الأقصى ، ما يزيد على سبعـين ألفا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهـم ممن فارق الأوطان وجـاور بذلك الموضـع الشريف وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهـم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من القنـاديل الصغـار مائـة وخمسين قنديلا ومن الذهـب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء) [2] ، وهـذه الـوحشية في الحـروب لا زالت مستمرة الى يومنا هذا فالحروب الـكونية في هذا القـرن كانـت مثـالا مروعـا للتدمـير والهـلاك ، ومـا جرى لمدينتـي هيروشيما ونجـازاكي خـير شاهـد على ذلك ، كما أن مذابـح الصهيونية في فلسطين ولبنان برهان آخـر على أن الحـروب في منطق غير المسلمين ابادة لا تعرف رحمـة ، وقتـل للمحـارب وغيره على السواء .

أما منطق المسلمين في الحرب فهو المنطق الذي ينبثق من

---

(1) المصدر السابق .
(2) الكامل ـ ابن الأثير ـ ج 10 ـ ص 284.

دينهم ، دين الاخاء والمساواة والحق والعدل واحترام آدمية الانسان ، ومن ثم كانوا في حروبهم أبعد الناس عن ممارسة العنف والابادة ، لأن الديانة الحقيقية لا تأمر أتباعها بالتشفي والانتقام بل تأمرهم بأن يدافعوا عن أنفسهم وينتصروا لمبادئهم دون أن يخرجوا عن حدود انسانيتهم ، انظر الى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ماذا قال حين ودّع جيش أسامة قائد أول جيش حارب بعد وفاة رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[1] ، هذه هي وصية أبي بكر لجيشه وهي بالطبع لم تكن ناتجة عن اجتهاد شخصي وانما كانت نابعة من القرآن الكريم الذي هذب النفوس ووضع القواعد والأسس التي تنظم كل شئون الحياة ، إن الخليفة أبا بكر كان ـ حين أوصى

---

(1) تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير ـ تحق . محمد أبو الفضل ـ ط 2 ـ ج 3 ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص 226، 227.

جيشه ـ يتمثل قول الله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[1] يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : (أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي ، كما قاله الحسن البصري : من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم)[2] واذا كان هذا حال الخليفة أبي بكر رضي الله عنه فان الخليفة عمر رضي الله عنه كان يسير على نفس الشاكلة وينبع من نفس النبع ، انظر إليه وهو يوصي قائده سعد بن أبي وقاص : (وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم

---

(1) الآية 190 من سورة البقرة .

(2) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج 1 ـ ط 2 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1970 م ـ ص 400, 401.

فتولوهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح) [1]، وهكذا يرسم الاسلام لأتباعه الهدف من القتال وهو أن يكون في سبيل الله ، ويبين لهم الطريقة المثلى لتحقيق ذلك الهدف وهي أن يقاتلوا الذين اشتركوا في الحرب فقط ولا يتجاوزوا ذلك لأن في تجاوزهم وقتالهم لمن لم يرفع السلاح ويشترك في المعركة اعتداءا آثما ، وهو ما نهى عنه القرآن الكريم حين قال : ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، والتاريخ الاسلامي مليء بالصور الرائعة للأخلاق الاسلامية في الحرب وهي صور تتجلى فيها الانسانية بكل معانيها والرحمة بكل صورها ، وكانت تلك الصور سببا قويا من الأسباب الكثيرة التي جعلت الشعوب تقبل أفواجا على اعتناق الاسلام ، إنظر الى الأهالي المسيحيين في الأردن ماذا قالوا للجيش الاسلامي عند ما بلغ الأردن وعسكر به قائده أبو عبيدة في فحل ، لقد كتبوا يخاطبون العرب : (يا معشر المسلمين أنتم أحب الينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم

---

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ ج 1 ـ تحق . أحمد أمين وآخرون ـ ط 3 ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ 1965 م ـ ص 130, 131.

غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا)[1] .

انتشار الاسلام بين السيف والاقناع : -

وإذا ثبت بدلائل كثيرة بطلان التهمة الأولى وهي أن المسلمين قتلة وسفاكو دماء ، فان التهمة المتعلقة بها وهي انتشار الاسلام بالسيف والاكراه اكثر بطلانا ، وأول ما يطالعنا من دلائل تثبت بطلانها هو قول الله تعالى : ﴿ لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾[2] ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[3] ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[4] ﴿ فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾[5] يقول ابن كثير في تفسيره للآية الأولى : (أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الاسلام فانه بين واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج الى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للاسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله

---

(1) السلام العالمي والاسلام ـ سيد قطب ـ ص 159.
(2) الآية 256 من سورة البقرة .
(3) الآية 125 من سورة النحل .
(4) الآية 29 من سورة الكهف .
(5) الآية 21 من سورة الغاشية .

قلبه وختم على سمعه وبصره ، فانه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا) [1] ، وينقل الرازي في تفسيره لهذه الآية رأيا عن أبي مسلم والقفال فيقول : (معناه أنه تعالى ما بنى أمر الايمان على الاجبار والقسر وانما بناه على التمكن والاختيار ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للغدر وقال بعد ذلك انه لم يبق بعد ايضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الاقامة على الكفر الا أن يقسر على الايمان ويجبر عليه وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء إذ في القهر والاكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان) [2] ، وقال ابن تيمية في آية لا اكراه في الدين : (لا نكره أحدا على الدين والقتال لمن حاربنا فان أسلم عصم ماله ودمه ، واذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله ، ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحدا على الاسلام لا ممتنعا ولا مقدورا عليه ، ولا فائدة في اسلام مثل هذا لكن من أسلم قبل منه ظاهر الاسلام) [3] ، وهكذا

---

(1) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 1 - ص 551.

(2) تفسير الرازي - ج 2 - ص 313.

(3) آثار الحرب في الفقه الاسلامي - وهبة الزحيلي - ص 82 - نقلا عن رسالة القتال لابن تيمية في مجموعة رسائل - ص 123, 125.

يتضح من هذه الآية وغيرها من الآيات ومما قاله المفسرون فيها أن الاكراه على اعتناق الدين شيء مرفوض في الشريعة الاسلامية ، إذ أن العقيدة محلها القلب ولا تستطيع أي قوة أن تغير شيئا استقر في القلب وعلق في الذهن الا بطريق الحجة والاقناع والمنطق ، ولذلك فان مهمة الرسول ﷺ تنحصر في الموعظة بالرفق واللين والمجادلة بالحجة والبرهان ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[1] ﴿ **فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾[2] ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[3] ، الى غير ذلك من الآيات التي تقرر مبدأ حرية العقيدة في الاسلام وتبعد أي أثر من شأنه التسلط أو فرض السيطرة على عقائد الناس حتى ولو كان ذلك من النبي نفسه ، ولذلك وضح القرآن في أكثر من موضع للنبي ﷺ أن عليه أن يبلغ رسالته فقط ثم ليس عليه بعد ذلك أن يكترث أو يهتم بمن دخل في الايمان أو لم يدخل لأن ذلك مسألة شخصية يتحمل وزرها صاحبها ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي**

---

(1) الآية 125 من سورة النحل .

(2) الآية 21 من سورة الغاشية .

(3) الآية 125 من سورة النحل .

لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنـا عليكم بوكيل﴾[1]
ويقول تعالى : **﴿ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهـدي من يشاء ﴾**[2] ويقول أيضا : **﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾**[3] ، هذا ولقد أخبر القرآن أيضا صراحة أن ايمان المكره لا ينفعه ولا يقبل منه بل هو مردود عليه لأنه لم يكن ناتجا عن اقتناع ولم يدخـل هذا الايمـان في قلبه ، يقول تعالى في قصة فرعون لما أدركه الغرق : **﴿ قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل﴾**[4] فرد عليه تبـارك وتعـالى : **﴿ الآن وقـد عصيت قبـل وكنـت من المفسدين﴾**[5] ، وقال تعالى أيضا في آية أخرى : **﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلـت في عبـاده وخسر هنالك الكافرون ﴾**[6] .

كل تلك الآيات تبـين في وضـوح ودونمـا حاجـة الى

---

(1) الآية 108 من سورة يونس .
(2) الآية 56 من سورة القصص .
(3) الآية 40 من سورة الزخرف .
(4) الآية 90 من سورة يونس .
(5) الآية 91 من سورة يونس .
(6) الآية . 84, 85 من سورة غافر .

الاستشهاد بتفسير معين أن حرية العقيدة هي من أبرز الأشياء التي أوجبها الاسلام وحث عليها ، بل وأوجب على المسلمين أن يقاتلوا في سبيل تثبيت هذا المبدأ ، ومن هنا كانت الفتوحات الاسلامية تهدف الى تحطيم سلطة الحكومات التي كانت تقف حاجزا أمام الشعوب ، وتمنعهم من اعتناق أي عقيدة الا تلك التي يدين بها الملك أو الرئيس ، فاذا ما تحقق انتصار المسلمين على تلك الحكومة المتسلطة ترك الأمر بعدها للشعب في أن يختار اعتناق الدين الاسلامي أو أن يبقى على دينه .

ليس من مهمة المسلمين اكراه الناس على اعتناق الاسلام ولو أراد النبي ﷺ ذلك لما كانت هناك حاجة لأن يبرم عهودا ومواثيق مع اليهود في المدينة ، وماذا يمنعه من أن يكره اليهود على اعتناق الاسلام أو أن يبيدهم عن آخرهم ، إنه رجل الدولة الأول ، والمسلمون هم القوة الأولى في الجزيرة العربية ، لا شيء يمنعه من فعل ذلك الا الأمر الالهي لا اكراه في الدين ، لقد جاء في عهده لليهود حين قدم المدينة : (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يرتغ الا

نفسه وأهل بيته)[1] ، تلك هي حرية العقيدة في الاسلام التي تتجلى في مواقف كثيرة للرسول وغيره من الصحابة ، ولعل من بينها أيضا ذلك العهد الذي أعطاه الرسول ﷺ لنصارى نجران في اليمن حين قال : بأنها وحاشيتها في جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم . لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته ، ومن سأل حقا منهم بينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين [2] ، وقد سار الصحابة على نفس النهج الذي رسمه لهم النبي ﷺ ، فكانوا يتجنبون اكراه الناس على تغيير معتقداتهم ، روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر ابن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمدا بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت اليّ قريب فقال عمر : اللهم أشهد وتلا : لا اكراه في الدين[3] .

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ج 1 ـ ص 503.

(2) الحريات العامة ـ د. عبد الحكيم العيلي ـ دار الفكر العربي ـ 1974 م ـ ص 383.

(3) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ ح 3 ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ 1967. م ـ ص 280.

هل بعد هذا يمكن لأحد أن يقول إن المسلمين أجبروا الناس على اعتناق الاسلام ، وإن الانتشار الواسع والنجاح الباهر الذي حققه الاسلام لم يكن ليحصل لولا القوة والاكراه ، ان ذلك كذل وبهتان وافتراء ليس له من الصحة نصيب ، وتكذبه الآيات القرآنية الكثيرة الواضحة ، وتبطله الوقائع التاريخية الكثيرة التي حملت بها كتب التاريخ والتي سجلت للمسلمين تاريخا ناصعا اكتسحوا فيه الأمم والشعوب من أجل أن يدافعوا عن حرية العقيدة ، ولقد أحسن الأستاذ أنور الجندي حين قال : (إذا جاز لنا أن نستعمل كلمة فتح فانما يتم ذلك بمفهوم واحد وهو ازالة القوة التي تقف أمام أمانة عموم الرسالة التي حملها المسلمون عن الرسول ﷺ ، وكانت في تقديرهم : مهمة حياتهم يهبون لها أرواحهم ويستشهدون من أجلها فالفتح هو كسر الحواجز المادية التي يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ اليها الاسلام رغبة في تحقيق اللقاء بين الاسلام وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها) [1].

---

(1) الاسلام وحركة التاريخ ـ أنور الجندي ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة ـ 1968م ـ ص 59 .

وزيادة في الايضــاح وتبيين أن الاســلام لـم ينتشر بالسيف ، وأنه لا علاقة بين الفتوحات الاسلامية وبين انتشار الاسلام ، أقول أين السيف الذي أجبر أوائل المسلمين وحملهم على نبذ الأصنام واتباع ما أتى به الرسـول ﷺ ، أين السيف الذي أجبر بلالا وعمارا وغيرهم من المستضعفـين على تحمـل ألوان العذاب ، ألم يكن سيف الكفـر هو الـذي تسلـط على رقابهم وأذاقهم الويلات من أجـل أن يتـركوا دينهـم ويسبـوا نبيهم ، وأين السيف الذي سلط على أهل المدينة وأجبرهم على أن يعرضوا على النبي ﷺ مهمة حماية الرسالة ، وهـي مهمـة خطيرة تحملهم تبعات كثيرة وكبيرة قد تكلفهم أرواحهم ، ثم أين السيف الـذي أجبـر المهاجـرين على ترك الأهــل والمال والوطن ، إنه فقط سيف الكفر ، ثم ان كان هناك سيف ينشر الاسلام ويكره الناس على اعتناقه فلماذا لم يتجه هذا السيف الى الحبشة رغم قربها من المسلمين ، فكتب التاريخ تحدثنا بأنه لـم تقم حروب بين المسلمين وبين الأحبـاش رغـم اختـلاف الاثنين في الدين ، إن العلة في الحروب الاسلامية وفي الأمـر بالقتال هي المقاتلة وليست الكفر ، فمن شهر سيفـه في وجـه المسلمين وجب عليهم أن يردوه ، وأما غير ذلك فلا يوجد مبرر لاشهار السيف ، وهكذا كان موقف المسلمين مع الأحباش ،

فلو كانت العلة هي الكفر لما ترك المسلمون الأحباش وتجاوزوهم الى الأمم الأخرى ، وكتب التاريخ تحدثنا أيضا أن النبي ﷺ عندما بلغه نبأ تعبئة الروم لجيوشهم على حدود الدولة الاسلامية عبّأ جيشه وجهزه وخرج للقائهم ، ولكن الروم انصرفوا دون أن يقاتلوا ، فما كان من النبي ﷺ الا أن عاد بجيشه من حيث أتى دون أن يتعقبهم رغم ما تحمل المسلمون في ذلك من نفقة الرحلة وأتعابها[1] . مرة أخرى أقول أين السيف الذي أجبر مشركي الجزيرة العربية على اعتناق الاسلام بعد صلح الحديبية ، تلك الفترة التي شهدت دخول الكثيرين في الاسلام ، إنها بكل تأكيد لم تكن فترة حرب بل كانت فترة هدنة وصلح ، ثم أين السيف الذي أجبر القرشيين على اعتناق الاسلام أفواجا بعد فتح مكة وبعد أن أعتقهم النبي ﷺ وعفا عنهم حين قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وأين السيف أيضا الذي أجبر القبائل العربية على أن تأتي للرسول ﷺ في أواخر السنة التاسعة وطوال السنة العاشرة للهجرة وتعلن اسلامها ، ونتيجة لكثرة الوفود التي أقبلت تريد الدخول في الدين الجديد سمي ذلك العام بعام الوفود ، وأين السيف الذي أعمل في رقاب

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ج 2 ـ ص 527.

المصريين حتى جعلهم يقدمون تسهيلات ويرحبون بالعرب الفاتحين الذين خلصوهم من شر الروم وكيدهم ، وأين السيف الذي تسلط على رقاب الكثيرين من نصارى الجزيرة العربية وغيرهم من المسيحيين وجعلهم يعلنون اسلامهم على أيدي الدعاة من المسلمين ، لقد تحدث توماس ارنولد عن هذه الحالات بتفصيل كبير ، وكان في كثير من الأحيان يعلن أن حالات التحول الى الاسلام بين المسيحيين لم تكن تحت ضغط ، ولم تكن تحت تأثير سيف ، بل كانت نتيجة الجهود المكثفة للدعاة المسلمين ، ونتيجة ما عرف عن المسلمين من أخلاق عالية ومعاملة حسنة أخذت ألباب المسيحيين وعقولهم وجعلتهم ينبذون ديانتهم ويعتنقون الاسلام ، وقد أشار الى هذا التأثير توماس ارنولد حين تحدث عن حالات التحول الى الاسلام أثناء الحروب الصليبية فقال : (ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم اليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا الى المسلمين) [1] .

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 111.

وحين الحديث عن المسيحيين وتحولهم الى الاسلام أقول إن كان هناك سيف سلط على الشعوب لاكراهها على الاسلام فما هو التفسير اذا لبقاء الآلاف بل الملايين أحيانا من المسيحيين في الكثير من الأقطار الاسلامية والتي تم فتحها من العرب زمن الفتوحات ، لماذا بقي الآلاف من المسيحيين على دينهم في مصر ولبنان وسوريا والعراق وغيرها من بلاد الاسلام الأخرى ، إن هؤلاء كانوا ولا يزالون حتى اليوم يتمتعون بكامل الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية ، ويتساوون مع المسلمين في كل المزايا رغم أن دين الدولة الرسمي ونظامها هو الاسلام . لقد عبر عن هذه القضية (كيرك) حين قال : (إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع الميلادي كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الاسلام كان قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين)[1] .

ومن أعظم الدلائل وأقواها على تأكيد انتشار الاسلام بالحجة والاقناع وأن السيف لم يكن له دور في نشر الديانة الاسلامية ، ما حدث في القرن السابع الهجري من حوادث هدت الكيان الاسلامي وزعزعت الدولة الاسلامية ، وذلك

---

(1) الاسلام ـ د. أحمد شلبي ـ ص 196 نقلا عن كتاب مختصر تاريخ الشرق الأوسط .

عندما هجم المغول والتتر على البلاد الاسلامية ، وأعملوا في أهلها القتل والسلب والنهب ، ودمروا مدنها وقراها ، ونسفوا كل مظاهر الحضارة التي شيدتها الدولة الاسلامية ، وكانت تلك الحوادث من أكبر ما نزل بالمسلمين من خطوب بل ما نزل بالانسانية عامة ، ولقد بدأ ابن الأثير كلامه على هذه الحوادث بمقدمة حزينة تدل على عظم الفادحة وجسامة الخطب فقال :

(لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا الا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها) [1] ومع أن

---

(1) الكامل ـ ابن الأثير ـ ج 9 ـ ص 329.

المغول استطاعوا أن يفنوا الملايين من البشر ويهدموا مئات المدن وآلاف القرى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يطفئوا شعلة الاسلام التي ظلت مشتعلة في نفوس من بقي من المسلمين الذين استطاعوا ـ وهم مغلوبون ـ أن يصارعوا مبشري البوذية والمسيحية وينافسوهم في اكتساب قلوب هؤلاء الغجر الذين كانوا يدينون بالشامانية[1] ديانة المغول القديمة ، وما هي الا سنوات ـ حافلة بالمساجلات والمناقشات الدينية بين أنصار تلك الديانات ـ حتى استطاع أولئك الدعاة القلة ـ الذين كسر المغول شوكتهم وأزال كيانهم ـ أن يجذبوا الى حظيرة الاسلام أولئك الفاتحين الجدد محطمين بذلك كل التهم والأباطيل التي يروجها أعداء الاسلام من أنه دين انتشر وقام على السيف ، إن تلك الحادثة لا تحتاج الى تعليق ولا تحتاج الى شرح واستشهاد ، فهي وحدها كفيلة برد ما يقذفه المستشرقون من أكاذيب وما يرددونه من دعايات ، فالاسلام قد انتصر حين انهزم أهله ،

---

(1) هي دين بدائي من أديان شمالي سيبيريا ، يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب ، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف ، وبأن هذا العالم لا يستجيب الا للشاهان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ وللسيطرة على الأحداث . والشامانية تعتبر أيضا دين بعض الطوائف من هنود أمريكا الحمر .

انظر : المورد ـ منير البعلبكي . دائرة المعارف البريطانية/ج 6 / ص 107.

والاسلام قد انتشرحين لم يكن له سيف يحميه أو يذود عنه ، بل كان هناك سيف مسلط عليه ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ [1] .

إن انتشار الاسلام بالحجة والاقناع قول تدعمه أدلة كثيرة ، منها ما تقدم ذكره ومنها أن أغلب البلدان التي يكثر فيها المسلمون هي تلك البلدان التي لم تشهد حروبا ولا غزوات ولكن شهدت نشاطا مكثفا من جانب الدعاة المسلمين الذين وهبوا أنفسهم وما يملكون في سبيل الله ، يبلغون دعوة نبيهم ورسالة ربهم الى جميع شعوب الأرض ، متخذين من مبادىء دينهم السامية ، وسلوكهم وتصرفاتهم النبيلة الوسيلة الوحيدة لاقناع الآخرين بصدق دعوتهم وزيف ما عداها من الدعوات الأخرى .

الاسلام في افريقيا : ـ

إن الاسلام قد شق طريقه الى وسط وجنوب القارة الافريقية السمراء بجهود بسيطة وسهلة ، اعتمدت على التجار

---

(1) الآية 32 من سورة التوبة .

المسلمين الذين أحوجتهم ظروف العيش الى دخول هذه البلاد ، وقد رأى الافريقي الوثني أو المسيحي في تصرفات هؤلاء التجار وسلوكهم الشخصي القدوة الحسنة التي أقنعته بصحة هذه الرسالة التي لا تقيم وزنا للون أو جنس أو جاه ، بقدر ما تقيم وزنا لطاعة الله وتوحيده وحسن معاملة الآخرين ، رأى هذا الافريقي في الدين الاسلامي البساطة والسهولة ، رأى فيه دينا ينهي عن التفرقة العنصرية وينهي عن الزنا وشرب الخمر وأكل لحوم البشر ، ويأمر بالصلاة والصدقة ومساعدة المحتاجين ، ومن هنا أقبل الأفارقة على الدخول في الدين الاسلامي دون أن تكرههم سيوف المسلمين أو تخيفهم سلطتهم . يقول الرحالة (جوزيف تومسون) في تقرير له نشرته التيمس في 14/ 11/ 1887 م عند حديثه عن انتشار الاسلام في افريقيا : (اذا بلغنا غربي افريقيا والسودان الأوسط نجد الاسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والاقدام كما كان في أيامه الأولى ، فترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا وتقبل عليه باقبال عجيب شبه أيامه السالفة ، نرى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون وآخذة في انارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت

أعظم فتوحات الاسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفضي الجناح ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجرا ذا همة واقدام يدعي (هوذا أونوبية) كان ذلك الراعي يجهد نفسه لنشر لواء ديانته من بحيرة تشاد الى الأقيانوس الاطلانتيكي ، ونتج عن ذلك أن أشرقت شمس الاسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها) [1] .

ولعل التجار لم يكونوا وحدهم في ميدان الدعوة الاسلامية بل كان يساندهم في جهودهم هذه جهود أخرى تمثلت في تلك الطرق الصوفية الكثيرة التي انتشرت في أرجاء القارة ، وأسست لها مراكز وزوايا لنشر الاسلام وشرح تعاليمه وتعليم القرآن واللغة العربية ، وكان لهذه الفرق دور بارز حيث انها استطاعت أن تجمع حولها الكثيرين الذين حسن اسلامهم وصدقت نياتهم واتقد حماسهم للاسلام حتى انهم أصبحوا دعاة ساهمت جهودهم بدور فعال في نشر الديانة الاسلامية ، وكان منهم من استطاع الذهاب الى الأزهر أو

---

(1) من مقال بعنوان (الاسلام يزحف بقوته الذاتية في افريقيا) ـ أنور الجندي ـ مجلة حضارة الاسلام ـ عدد 4 ـ السنة 10 ـ جمادى الآخرة 1389 هـ ـ آب أيلول 1969 م .

الزيتونة حيث تعلم القرآن واللغة العربية وعلوم الدين ، ورجع بعد ذلك يرشد قومه ويعلمهم ما علم .

وأهم الفرق الصوفية التي كانت أحد العوامل المهمة في نشر الاسلام القادرية في القرن السادس الهجري ، التي كان يتزعمها عبد القادر الجيلاني[1] ، والتي أسست لها مراكز في غينيا والسودان الغربي ، وامتدت أيضا من السنغال الى مصب نهر النيجر . وكانت التجانية أيضا من أهم الفرق الصوفية وقد تأسست في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي على يد أحمد بن محمد المختار بن سالم التجاني[2] ، واتخذت من مدينة فاس بالمغرب مركزا لنشاطها الى جانب المراكز الأخرى التي انتشرت في أرجاء أخرى من القارة[3] . وهاتان الفرقتان كان لهما دور كبير وبارز في نشر الاسلام بين الافريقيين بطرق سلمية بحتة

---

(1) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محيي الدين الجيلاني ، مؤسس الطريقة القادرية ، ولد سنة 471 هـ/ 1078 م وتوفي سنة 561 هـ/ 1166م. انظر الاعلام - ج 4.

(2) هو فقيه مالكي تزعم الطائفة التجانية بالمغرب ، ولد سنة 1150 هـ/ 1737 م - وتوفي سنة 1230 هـ/ 1815 م . انظر الاعلام - ج 1.

(3) انتشار الاسلام في القارة الافريقية - د . حسن ابراهيم - ط 2 - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1963 - ص 42 وما بعدها .

وباقناع بالحجج والبراهين ، ودونما استخدام أي سيف أو ضغوطات أخرى .

ولعله من المفيد لطبيعة هذا البحث أن أفند آراء الغربيين التي تشكك في عملية انتشار الاسلام السريع بآراء غربية مسيحية أخرى لم تجد مناصا من اظهار الحقيقة وابراز الأحداث كما هي ، فها هو الكاتب المسيحي الفرنسي (هوبير ديشان) حاكم المستعمرات الفرنسية بافريقية حتى سنة 1950، يقول : (إن انتشار دعوة الاسلام في أغلب الظروف لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الاقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا الا ايمانهم العميق بربهم وكثيرا ما انتشر الاسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم الى قوم . فكان اذا ما اعتنقته الارستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يسر انتشار الاسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف)[1] .

الاسلام في آسيا : ـ

ولم تكن الطريقة التي دخل بها الاسلام الى آسيا تختلف

---

(1) الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ص 198.

عن الطريقة التي انتشر بها في افريقيا ، فالاسلام قد انتشر في القوقاز وداغستان عن طريق دعاة مسلمين كان في مقدمتهم الشيخ الشافعي ابو مسلمة ، ثم ساعد ظهور الطريقة النقشبندية الصوفية في اذكاء روح الدعوة الى الاسلام واستمرار انتشاره ، وساعدت أيضا القوافل التجارية القادمة من الصين في انتشار الاسلام في جمهورية جورجيا الروسية وما حولها من الأقاليم الاسلامية الأخرى[1] .

ووصل الاسلام الى الصين عن طريق الحملة التي قادها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 96 هـ/ 714 م حين فتح مدينة (كاشغر) ، وتوقف الفتح الاسلامي في هذه الجهة بعد هذه الحملة نظرا لوفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وانشغال المسلمين بأحداثهم الداخلية ، ورغم توقف الفتوحات الاسلامية في تلك المنطقة الا أن امتداد نور الاسلام لم يتوقف ولم تنطفىء جذوته ، وهذا مما يؤكد وباستمرار أنه دين يكثر انتشاره ويزداد عدد معتنقيه عندما لا يكون هناك سيف ، وعندما تضع الحروب أوزارها ، فالروايات التاريخية تحدثنا أنه

(1) انتشار الاسلام والدعوة الاسلامية ـ سامي محمود ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ص 32 وما بعدها .

عندما اضطهد الأمويون الشيعة من أتباع زيد بن علي (زين العابدين) فضل هؤلاء الفرار من ظلم الأمويين ولجئوا الى الصين حيث استقروا هناك وعملوا على نشر الاسلام في بعض المناطق التي زاروها في حلاتهم التجارية ، وكان لسلوكهم الحميد وتصرفاتهم الاسلامية الأثر الكبير في اقناع الكثيرين من الصينيين باعتناق الاسلام[1] .

ووصل الاسلام الى الفلبين في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، وكان ذلك عن طريق بعثة اسلامية وصلت من (مالاقا) برئاسة عالم عربي كبير هو الشيخ (مخدوم) ، وكان هدف هذه البعثة هو نشر الاسلام بالطرق السلمية وبالموعظة الحسنة[2] ، ويرى بعض الباحثين أن الاسلام قد وصل الى الفلبين منذ القرن الأول الهجري ، وتم ذلك عن طريق التجار المسلمين في حضرموت وعمان والملايو والهند[3] ، ولا يعنينا هذا الخلاف في بدء انتشار الاسلام في هذه المنطقة ،

---

(1) من مقال بعنوان (المسلمون في الصين) ـ محمود شاكر ـ مجلة حضارة الاسلام ـ عدد, 7, 8 ـ سنة 9 ـ رمضان 1388 هـ/ ديسمبر 1968 م .

(2) من مقال بعنوان (الاسلام في تاريخ الفلبين) ـ أحمد ألونتو ـ مجلة حضارة الاسلام ـ عدد 8 ـ سنة 7 ـ شعبان 1380 هـ/ فبراير 1961 م .

(3) انتشار الاسلام ـ سامي محمود ـ ص 97.

ولكن المهم هو الوسيلة التي وصل بها الاسلام الى هذه الجهة ، فجميع الأخبار تتفق على أنه وصلها بجهودالتجار وجهود بعض الدعاة الآخرين الذين كان على رأسهم سبعة أخوة عرب كان أشهرهم أبو بكر واسمه في الفلبين (يادوكامها مصاري مولانا السلطان شريف الهاشمي) [1] . واذا كانت قد وقعت بعض الأحداث الحربية في البلدان السابق ذكرها والتي لم يكن لها أي دور في نشر الدين الاسلامي ، فاننا نجد أن أندونيسيا قد وصلها الاسلام وانتشر فيها عن طريق التجار الذين زاروها حوالي القرن السابع الميلادي حيث حطوا رحالهم في جزيرة سومطرة ثم انتقلوا الى بقية الجزائر الأخرى جامعين بين التجارة والتبشير بدينهم ، وقد ساعدهم في مهمتهم هذه سرعة تكيفهم ، حيث تعلموا لغة وعادات وتقاليد أهل البلاد وصاهروهم وصادقوا ولاتهم ، وهكذا استطاع هؤلاء التجار بجهودهم الفردية البسيطة أن ينشروا الدين الاسلامي في معظم أنحاء البلاد[2] ، وقد تحدث الدكتور أحمد شلبي عن كيفية انتشار الاسلام في اندونيسيا وصراعه مع الديانات الأخرى ،

---

(1) نفس المصدر السابق ـ ص 97.

(2) أطلس التاريخ الاسلامي ـ هاري هازارد ـ تر. ابراهيم زكي خورشيد ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ص 42.

حيث قال : إنه عاش في اندونيسيا عدة سنين ورأى بعينيه كيف صمد الاسلام وشق طريقه بين الاندونيسيين رغم ما كانت تقدمه الديانات الأخرى من مغريات ، وما كان يسندها من سلطات ، فالمسيحية كانت تساندها قوة المستعمر وما له من ثروة وسلطان ، والكونفوشية كانت تدعمها ثروات الصينيين الهائلة ، والهندوكية والبوذية كانت تساعدها الروابط الوثيقة بين اندونيسيا والهند ، أما الاسلام فكانت تدفعه وتسانده سماحة مبادئه وجهود أبنائه من الفقراء والمساكين ، وكانت النتيجة أن اندحرت الكونفوشية ولم تجد لها موطىء قدم في اندونيسيا واجتذبت المسيحية والهندوكية بمغرياتهما عددا ضئيلا من السكان ، واقتنعت الغالبية العظمى من السكان بالدين الاسلامي رغم ما عانوه من شقاء وبؤس نتيجة جور المستعمر وشظف العيش[1] .

وانتشر الاسلام في ماليزيا ومالايو بطرق سلمية بحتة ، حيث لم يكن هناك سيف ولا قتال ، بل كان هناك جهود المخلصين من المسلمين من تجار وأتباع طرق صوفية الذين تحاول بعض المصادر التاريخية أن تشوه عملهم هذا عندما تقول

---

(1) الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ص 197.

أن هؤلاء لم يكونوا يقصدون التبشير بالدعوة وانما جاؤوا لمصالح شخصية يبغون جمع المال أو تكوين سلطان سياسي وجاء هدف التبشير بالدعوة عارضا ، ومهما يكن من أمر فان هؤلاء استطاعوا وبدون سيف أن ينشروا عقيدة وينقلوا فكرا وينشئوا حضارة لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا ، والذي دفعهم الى ذلك هو الايمان الصادق الذي غمر قلوبهم ، والايمان القوي بما سيلاقونه من ثواب عند ربهم . ومرة أخرى أقول ان انتشار الاسلام في تلك البقاع يدحض فرية المستشرقين الذين يقولون ان الاسلام لا يصادف نجاحا الا عندما كان يهدف الى الغزو ، فأي غزو حمل الماليزيين والملاويين وغيرهم من شعوب آسيا على اعتناق الاسلام ، وأي قوة أجبرتهم على نبذ ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم والاقرار بصحة هذا الدين ، لا شيء حملهم على ذلك سوى الحقيقة التي أضاءت قلوبهم والايمان الذي نور بصائرهم ، ولقد اعترف بذلك الكثير من مؤرخي ورحالة الغرب الدين سجلوا في وثائقهم الكثيرة أن الاسلام دخل الى تلك البقاع بطرق سلمية خالصة ، بل إن منهم من ينفي أن الاسلام وصل الى ماليزيا من الجزيرة العربية بل وصلها من جنوب الهند ، وفي ذلك يقول (فون رونكل) : (من المعروف أن الاسلام والقسم

الأكبر من التصوف الاسلامي جاء الى الأرخبيل الأندونيسي من جنوب الهند ، وليس من شبه جزيرة العرب ويكفي أن نذكرّ القارىء بالحقيقة التي لا يمكن انكارها وهي أن شكل الاسلام الشعبي وصفته الصوفية وكل الأدب الاسلامـي الرومانطيقـي المهذب ، وشكل الكلمات العربية المستعـارة فيه ، وهندسـة قبور المسلمين . . . . كلها تشير الى أن جنـوب الهنـد كانـت الأرض التي انتقل منها الاسلام الى ماليزيا) [1] .

وهكذاومن خلال ما استعرضت من حقائق حول وصول الاسلام الى كل من افريقيا وآسيا يتضح لكل ذي عقل زيف وافتـراء وتضـليل المستشرقـين الـذين يرون أن السيف كان الوسيلة التي نشر بها الاسلام ، وما قالوا ذلك عن اقتناع أو عن دراسـة علمية صحيحـة وانمـا قالـوا ذلك خدمـة لأغراضهـم الشخصية الحاقـدة ، وخدمـة لمؤسساتهـم الاستعمارية التـي تحاول أن تشوه مفهوم الجهاد وذلك لما ترى فيه من خطر يداهم كيانهم ويحطم مستقبلها ، فمحاولات التشكيك هذه يمكن أن يميع مفهوم الجهاد لدى المسلمين وبالتـالي سيمحـى من ذاكرة

---

(1) الاسلام في الشرق الأقصى ـ د. قيصر أديب مخول ـ تر . نبيل صبحي ـ نقلا عن فون رونكبل في مخطوطة ملاوية بلغـة التـأميل ـ مجلـة الجمعية الملكية الآسيوية رقم 85 آذار 1922

التاريخ ويصبح من الأشياء التي عفا عليها الزمن وهو ما يتمناه المستعمرون وأذنابهم .

الاسلام في أوربا وأمريكا : -

واذا كان الاسلام كما أشرت آنفا قد انتشر في كل من افريقيا وآسيا بالطرق السلمية ، وأن هذا أوضح دليل على أن ما ادعاه المستشرقون عن انتشار الاسلام باطل ولا يستند على حقيقة علمية ، فان انتشار الاسلام أيضا في كل من أوربا وأمريكا شاهد آخر على بطلان ذلك الادعاء .

إن الاسلام وصل بلدان اوربا وأمريكا بطرق كثيرة ومختلفة ، ولكن لم يكن السيف من بينها على الاطلاق ، فقد وصل الاسلام الى المجر عن طريق أفراد ينتمون الى طائفة الاسماعيلية الذين هاجروا واستوطنوا هناك بعد القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري وقد عمل هؤلاء على نشر الدين الاسلامي ، وساعدهم في مهمتهم هذه علاقات بعض المسلمين المغاربة بالمجر الذين كانوا عاملا آخر في ارساء دعائم الدين الاسلامي . ووصل الاسلام الى النمسا عن طريق أفراد من البوسنة والهرسك الذين كانت بلادهم جزءا من امبراطورية النمسا ، كما انتشر الاسلام فيها أيضا عن طريق المسلمين

الذي رحلوا الى هناك وتزوجوا من فتيات نمساويات اعتنقن الاسلام وخلفن ذرية مسلمة . ووصل الاسلام الى فنلدنة عن طريق مجموعة من التجار الأتراك الذين كانوا يجوبون روسيا ، ثم استقر بهم الأمر واستوطنوا في فنلندة وأسسوا جمعية اسلامية سنة 1830 . وبفضل جمعية هيئة الدعوة الأحمدية انتشر الاسلام في كل من ألمانيا وهولندة ، وأسست مساجد وجمعيات اسلامية ، وصدرت صحف تعنى بالشئون الاسلامية حيث ساهمت كل هذه الأدوات في تعريف هذه الشعوب بالدين الاسلامي الأمر الذي نتج عنه اعتناق الكثيرين للاسلام . وابتدأ الاسلام في بريطانيا بجهود بسيطة ، وذلك حينما اعتنق الاسلام اللورد (استانلي أوف الدرلي) السفير البريطاني في تركيا ، واعتنقه أيضا المستر (كويليام) أحد أعيان ليفربول ، وقد حول هذا الأخير قسما من بيته الى مسجد ، وأصدر صحيفتين تهتمان بالشئون الاسلامية وكان لعمله هذا أثر كبير في نشر الاسلام في بريطانيا واظهاره الى الوجود[1] .

ولا أريد أن أذكر أعداد المسلمين وتاريخ وصول

---

(1) المسلمون في العالم اليوم ـ عبد الرحمن زكي ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ 1960.

الاسلام الى كل الأقطار الاوربية فذلك أمر طويل يحتاج الى مؤلفات خاصة ، فالمسلمون قد انتشروا في معظم أنحاء الدنيا ، والاسلام قد عم نوره كل بقاع المعمورة ، ولكني أردت فقط ابراز بعض الشواهد التاريخية التي تبرز حقيقة واقعة وملموسة الى يومنا هذا وهي أن الاسلام دين حرية العقيدة وأنه لا ينتشر الا عندما تغمد السيوف ويعلو صوت العقل ، وأنه دين كثر أتباعه وزاد عددهم في البقاع التي لم يفتحها المسلمون ولم تصلها جيوشهم .

أما أمريكا فماذا يمكن أن يقول المستشرقون عن انتشار الاسلام فيها ، هل لجأ المسلمون الى القوة ، وفرض عقيدتهم على سواهم ؟ إن هذا أمر لا تقره الأحداث التاريخية او العقلية الموضوعية ، لقد بدأ انتشار الاسلام في أمريكا حديثا بعد هجرة الكثير من الأسر العربية التي استقرت وتجنست هناك ، وأصبح لها دور كبير في نشر الاسلام في أوساط المجتمع الأمريكي ، وساعد هذه الأسر في جهودها ما كان يقوم به الشباب المسلم الغيور من الطلاب الذين ذهبوا للدراسة من جهود نشيطة في تعريف الأمريكيين بالدين الاسلامي ، وقد وجدت فيه طائفة الزنوج الدين الذي يدعو الى المساواة وعدم

التفريق بين الأبيض والأسود ، الدين الذي يقدس الحرية بكل جوانبها ، وهما الشيئان اللذان افتقدهما الزنوج داخل المجتمع الأمريكي .

وفي العصر الحاضر تشهد الساحة الأمريكية نشاطا ملموسا في ميدان الدعوة الاسلامية ، وقد شاهدت شخصيا الكثير من الدعاة المسلمين الذين تركوا أولادهم وأموالهم والتزاماتهم الدنيوية ووهبوا أنفسهم لخدمة دينهم واظهار حقيقته للآخرين ، ورغم ما تقوم به الدعاية الصهيونية التي تتحكم في المجتمع الأمريكي عن طريق السيطرة على جميع مرافق الاعلام والمؤسسات الاقتصادية ، ورغم ما تقوم به جمعيات التبشير المسيحية من دعاية ضد الاسلام والمسلمين ، رغم كل ذلك فان الاسلام ينتشر بسرعة مذهلة داخل المجتمع الأمريكي ، وأصبح يضم بين أتباعه الكثير من أساتذة الجامعات الأمريكية ومفكرين لهم وزنهم في ميدان الفكر الغربي ، ونتج عن الاقبال الكبير على الاسلام في أمريكا انشاء الكثير من المساجد والمراكز الاسلامية التي تعنى بتعليم علوم الدين الاسلامي واللغة العربية ، وكان لهذه الحركة أثرها الكبير في المجتمع الأمريكي الذي لم يستطع أن يخفي مشاعره

في التعبير عن خطورة تلك الحركة حيث ظهرت المقالات التي تشير الى نمو وازدياد انتشار الاسلام في أمريكا حتى أنه وصل خلال السنوات العشر الأخيرة الى نسبة 400 ٪[1] .

على أني لست هنا في مجال تقديم دراسة تقويمية للفكر الاسلامي في أوربا وأمريكا وغيرهما ، أو إعطاء صورة وافية عن المسلمين ونشاطهم في هذه البلاد فذلك موضوع آخر ، وإنما كل ما سعيت اليه من وراء الاشارة الى انتشار الاسلام في تلك البقاع هو الرد على مزاعم المستشرقين ، وأن الاسلام غزاهم في بلادهم دون سيف أو جيش جرار .

وخلاصة القول في هذا الموضوع هو أن الاسلام انتشر وسطع نوره في معظم أنحاء الدنيا بطرق ثلاث : -

1 ـ عقب الفتوحات الاسلامية وبعد انتهاء الحرب ، وذلك نتيجة جهود المبشرين من الصحابة والتابعين الذين كان لأخلاقهم الاسلامية وسلوكهم الحميد الأثر الكبير في اقناع الآخرين بحقيقة هذا الدين .

2 ـ التجار والمهاجرون المسلمون الذين استقروا في بلدان

THE DAILY ADVERTISER -PAUL HARVEY (1)

كثيرة والذين استطاعوا أن يعرفوا شعوب الأرض بمحتوى الدعوة الاسلامية .

3 ـ الجهود الكبيرة التي كان يقوم بها متبعو الطرق الصوفية التي انتشرت في كل من آسيا وافريقيا ، والتي كان لها دور بارز في تأسيس الكثير من المراكز الدينية التي أسهمت بدور فعال في جذب الكثيرين الى حظيرة الاسلام .

مناقشة الاتجاه الثاني

نظرة الاسلام الى المال

أما التهمة الثانية وهي أن الفتوحات الاسلامية جاءت ثمرة للعامل الاقتصادي ، فان نقدها يقتضي أولا بيان نظرة الاسلام الى المال ، ثم يأتي بعد ذلك الرد على التهمة . ان الاسلام كدين متكامل اهتم بجميع القضايا التي تمس حياة الانسان وعالجها علاجا بين فيه موضع الداء ووصف فيه الدواء لكل الأمراض التي تصيب الانسان في حياته ، وقد بين القرآن الكريم دستور الاسلام الخالد خطورة فتنة المال وما يتبعه من متاع الدنيا ، وأوضح بأن ذلك شيء خلق للانتفاع المؤقت الذي به تسير أمور الحياة الدنيا ، واذا تعدى هدف الانسان من الانتفاع المؤقت الى الرغبة في التملك والاستئثار بأكثر من الحاجة فان ذلك يصبح أمرا خطيرا في حياة الفرد ، الذي يجب أن يخلص اهتمامه للعمل ليوم الدين ذلك اليوم الذي يجازى فيه كل فرد على ما عمل في هذه الحياة الدنيا .

لقد قرر القرآن أن المال كله لله ﴿ ولله ملك السموات

والأرض ومـا فيهـن ﴾[1] **﴿ وآتوهـم من مال الله الـذي آتاكم ﴾** [2] ، وقرر أن الأموال رغم ما فيها من متعة الحياة الدنيا الا أنها تبقى فتنة لمن لم يزهد فيها **﴿ واعلموا أنمـا أموالـكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾** [3] ووضح القـرآن أيضا أهمية المال والولد في الحياة الدنيا ولكنه قارنهـا بالعمـل الذي ينفع صاحبه في الحياة الأخرى وبين أن الأموال والأولاد أشياء تافهة بالنسبة الى العمل الصالح **﴿ المال والبنون زينـة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابـا وخـير أملا ﴾** [4] ، وحرم القرآن جمع المال وكنزه من غير أن يؤدى منه حق الفقراء والمساكين ومن غير أن يكون عاملا يساعد الآخرين في اجتياز عقباتهم الحياتية ، ويساعد صاحبه في تكوين رصيد من الحسنات يقابل بها ربه يوم الحساب **﴿ والـذين يكنـزون الذهب والفضـة ولا ينفقونهـا في سبيل الله فبشرهـم بعـذاب أليم ﴾** [5] ، وحرض القرآن المسلمين على الانفاق من هذا المال

---

(1) الآية 120 من سورة المائدة .

(2) الآية 33 من سورة النور .

(3) الآية 28 من سورة الأنفال .

(4) الآية 46 من سورة الكهف .

(5) الآية 34 من سورة التوبة .

في كل الظروف والأحوال التي يتأتى لهم ذلك حتى تتطهر نفس المسلم من الشح والبخل وحب المال ، وحتى تتحرر نفسه أيضا من سلطان الحياة الدنيا ونعيمها ، فأوجب الاسلام الزكاة وجعلها فريضة للفقراء بمقدار معلوم تطهيرا لمال الغني ومساعدة للفقراء والمساكين وتقريبا للتفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع **﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾**[1] ، وأوجب التصدق والانفاق بها على الطبقات التي تستحقها **﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾**[2] ، وحث المسلمين على بذل أموالهم في الجهاد تماما كما حثهم على بذل أرواحهم **﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾**[3] وأخيرا فان القرآن يبين أن التمسك في هذه الحياة الدنيا يجب أن يكون بالمبادىء والقيم والمثل العليا والعمل الصالح ، أما الأموال وبقية المتاع الدنيوي فانها لا تنفع صاحبها ولا تنجيه من

---

(1) الآية 20 من سورة المزمل .

(2) الآية 60 من سورة التوبة .

(3) الآية 20 من سورة التوبة .

عذاب جهنم ، ولذلك يجب أن يكون المسلم حريصا على أن يتزود في هذه الحياة الفانية بزاد ينفعه في الحياة الخالدة ﴿ **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا** ﴾[1] ﴿ **ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾[2] ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى** ﴾[3] .

هذه هي نظرة الاسلام الى المال وشهوات الدنيا تلقاها الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، وبلغها الى قومه في صورة آيات منزلة وفي صورة سلوك نبوي زاهد في الحياة الدنيا متعفف عنها ، فتلقاها أصحابه وحولوها الى سلوك عملي ساروا عليه في حياتهم ، وحين اتصلوا بالأمم والشعوب الأخرى كانت أول سمة لوحظت عليهم هي أنهم قوم حرصوا على الموت في سبيل الله ، يتدافعون كل يريد أن يسبق الآخر في نيل الشهادة والموت من أجل أن يبقى الدين الاسلامي شعلة خالدة لا تنطفىء أبدا ، وأنهم قوم زهدوا في الحياة الدنيا ونعيمها ، لا حرص لهم على مال وفير أو طعام شهي أو كسوة

(1) الآية 17 من سورة المجادلة .
(2) الآية 85 من سورة التوبة .
(3) الآية 37 من سورة سبأ .

فاخرة أو مركوب مريح ، يكفي الواحد منهم ما يسد رمقه ويستر عورته ويعينه على الوصول إلى هدفه ، لا يعرف الأجنبي منهم الرئيس ولا المرؤوس ، فالجميع متساوون في المظهر ، وحين عرفت الشعوب فيهم هذه الحقيقة أيقنت أنهم حملة رسالة وطلاب حق وأصحاب مبادىء ، أما الملوك والأمراء والقياصرة فحين عرفوا خصالهم هذه أصابهم الذعر والفزع ذلك أن هذه الصفات لا تتلاءم مع الكرسي والجاه والمنصب والثراء والنعيم ومن ثم حركوا الجيوش لترد المسلمين وما جاءوا به من مبادىء حتى يتسنى لهم الاستمرار في شهواتهم وملذاتهم .

ان التهمة التي يحاول المستشرقون الصاقها بالفتوحات الاسلامية ليست جديدة أبدا ، فهذه تهمة قد سجلها التاريخ لمشركي مكة كما يسجلها اليوم لمستشرقي ومشركي أوربا وغيرهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما بلغ رسالة ربه وظهر بها على الملأ خافت قريش من هذه الرسالة وأيقنت أن ذلك سوف يهدد كيانها ، وأن محمدا ﷺ انما فعل ذلك بسبب فقره ويتمه ، وأنه بفعله هذا يريد أن يبني لنفسه كيانا في المجتمع القرشي ، ومن هذا المنطلق أرسل زعماء قريش عتبة

ابن ربيعة ليساومه في عقيدته ، وليعرض عليه الثراء والجاه والنعيم من أجل أن يتخلى عن هذه الرسالة لقد قال عتبة : (يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها قال : فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع قال : يا ابن أخي ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه)[1] ، ماذا يفعل الرسول ﷺ أمام هذا الأغراء الكبير ، المال ، الجاه ، السلطان ، انها الحياة بكل ألوان نعيمها يقدمها زعماء قريش للرسول ﷺ مساومة له في مقابل أن يتنازل عن عقيدته وظنا منهم أن هدفه

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحق . محمد محيي الدين ـ جـ 1 ـ ص 313.

المال والجاه والنعيم تماما كما يظن المستشرقون أن المسلمين انما جاهدوا من أجل ثروة القياصرة والأكاسرة .

لقد رد الرسولﷺ ردا خالدا سوف يبقى دفعا لهذه التهمة الى يوم الدين ، لقد قال الرسولﷺ لعتبة (أقد فرغت يا أبا الوليد قال : نعم ، قال : فاستمع مني قال : أفعل فقال : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه** ﴾ ثم مضى رسول اللهﷺ فيها يقرؤها عليه)[1] ، لقد تأثر عتبة بهذا الرد الالهي وأخبر قومه بأن تهمتهم باطلة وأن الرجل سيكون له أمر عظيم ، ولكن قريشا لم تقتنع وظنت أن عتبة قد سحر ، ولذلك لم ييأس أشرافها من معاودة العرض ومحاولة الاغراء فاجتمعوا في الكعبة واستدعوا الرسولﷺ معيدين ما قاله عتبة فقال لهم الرسول ﷺ : (ما بي ما تقولون ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ،

---

(1) نفس المصدر السابق ـ ص 314

فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)[1] ثم ان قريشا قد حاولت التوسط عن طريق عمه أبي طالب الذي جاءه أشراف مكة طالبين منه كف ابن أخيه عن الاستمرار في ما يدعو اليه وله ما يريد ، وحين عرض أبو طالب ذلك على النبي ﷺ رد النبي ﷺ برده الخالد الذي أيأس المشركين وخيب آمالهم في اسكات صوت الدعوة وقال قولته المشهورة : (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)[2] ، وهكذا يبين الرسول ﷺ أن هدفه أسمى من المال والجاه ، وأنه مبلغ رسالة لا طالب دنيا ، ولما عرفت قريش ذلك تحولت من اغرائها له بالمال والجاه الى تدبير الخطط والمؤامرات للقضاء عليه .

لقد عرف عن رسول الله ﷺ ـ حتى بعد أن تكونت الدولة الاسلامية وأصبحت ذات سيادة في الجزيرة ـ أنه كان زاهدا في الدنيا معرضا عنها لا توضع له الموائد ولا توجد عنده

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص 316.
(2) نفس المصدر السابق ـ ص 278.

الملابس الفاخرة ، لقد عاش فقيرا كما عاش الكثير من صحابته ولم يكن ذلك عن عدم قدرة ، لقد كان في مقدوره أن يجمع من متاع الدنيا ما يريد ، فهو الرسول والقائد والأمير له الطاعة المطلقة ، ولكن أخلاق النبوة كانت تعرض عن المتاع الزائف ففي ذلك تربية لصحابته وسنة لأمته بأن لا يكون للدنيا في قلوبهم أهمية ولا للثراء والنعيم في عقولهم مكان خصوصا حين يعلموا أن رسولهم خرج من الدنيا ولم يشبع في يوم مرتين .

يقول ابن سعد : (أخبرنا موسى بن اسماعيل ، أخبرنا سليمان ابن عبيد المازني أبو داود ، أخبرنا عمران بن زيد المدني ، حدثني والدي قال : دخلنا على عائشة ، رضي الله عنها فقلنا سلام عليك يا أمه ! فقالت وعليك السلام ! ثم بكت ، فقلنا : ما بكاؤك يا أمه ؟ قلت : بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواء يمرئه ، فذكرت نبيكم ، ﷺ ، فذلك الذي أبكاني ، خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين ، كان اذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز ، واذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر ، فذاك الذي أبكاني)[1] .

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت ـ جـ 1 ـ ص 406.

هذه هي أخلاق وسيرة صاحب الدعوة التي عرفها فيه أصحابه الذين ساروا على نهجه من بعده ، كيف يمكن أن يقال ان الفتوحات الاسلامية هدفها المغنم وصاحب الدعوة قد عرضت عليه المغريات من كل جانب ولكنه أبى الا أن يعيش فقيرا زاهدا ، لم يكن الرسول ﷺ فقيرا قبل البعثة فلقد عرف عنه أنه اشتغل بالتجارة ورحل الى الشام من أجل ذلك ، وكان له ما يكفيه ويسد حاجته بزيادة ، ولكن الرسول افتقر بعد البعثة وقلت موارده حين انصرف الى التبشير بالدين الجديد ، وزادت حاجته حين كثرت تبعاته ومسئولياته ، لقد كان في وسعه ـ وقد دانت له الجزيرة العربية بأسرها ـ أن يكون الثري الأول في تلك البقعة ، ولكنه لم يأت طمعا في الثراء أو جمعا للمال ، وانما جاء من أجل تبليغ دعوة وارساء دعائم حضارة جديدة .

ولم يكن الرسول وحده في ذلك فلقد تبعه في تلك السيرة أصحابه الذين اهتدوا بهديه ، وجاهدوا بأموالهم قبل أن يجاهدوا بأنفسهم ، فأبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله كان يملك يوم أن أسلم أربعين ألف درهم ولم يأت يوم هجرته مع رسول الله ﷺ الى المدينة الا ومعه خمسة آلاف درهم فقط ،

فلقد أنفق ما كان معـه على المستضعفـين والعبيد الـذين كان يشتريهم ويعتقهم في سبيل الله[1] ، أما حين ولي الخلافة فانه حسب ما تشير به المصادر لم يكن يملك شيئا ، فلقد استمر بعد توليه الخلافة يشتغل بالتجارة ولكنه حين رأى كثرة أعبائه ومسئولياته أيقن أنه لا يمكن له أن يستمر في التجارة ، ولذلك فقد عرض الأمر على أصحاب رسول الله ﷺ الذين فرضوا له نصيبا من بيت مال المسلمين يسد حاجته وحاجة عياله ، ولو كان له مال مدخر لما اضطر لأن يسأل الصحابة أن يفرضوا له شيئا ، أما حين حضرته الوفاة فقد قال : ردوا ما عندي من مال المسلمين فاني لا أصيب من هذا المال شيئا ، وان أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك الى عمر ولقوح وعبد صيقل وقطيفة ما يساوي خمسة دراهم فقال عمر : لقد أتعب من بعده[2] .

أما عمر فان الروايات التاريخية قد عجزت عن أن تسطر تلك الصفحات الخالدة من سيرته وعدلـه وعفافـه وزهـده في

(1) من بحث بعنوان (الجهاد بالمال في نظر الاسلام) ـ د . محمد عبد الله ماضي ـ المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الاسلامية ـ مارس 1970 م ـ القاهرة .

(2) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ جـ 3 ـ ص 186

الدنيا ، لقد عاش وهو الأمير الذي فتحت في عهده الممالك والامبراطوريات التي يتحدث عنها المستشرقون عاش حياة البساطة والكفاف ، وسار على نهج الرسول وأبي بكر في التضييق على نفسه خوفا من عذاب ربه ، وفي ذلك يروي ابن سعد : (أخبرنا يزيد بن هارون وأبو أسامة حماد بن أسامة قالا : أخبرنا اسماعيل بن أبي خالد عن مصعب بن سعد قال : قالت حفصة بنت عمر لأبيها ، قال يزيد يا أمير المؤمنين وقال أبو أسامة يا أبت ، انه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير فلو طعمت طعاما ألين من طعامك ولبست لباسا ألين من لباسك فقال : سأخاصمك الى نفسك ، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش ؟ قال فما زال يذكرها حتى أبكاها ، ثم قال : اني قد قلت لك اني والله لئن استطعت لاشاركنهما في عيشهما الشديد لعلي ألقى معهما عيشهما الرخي . قال يزيد بن هارون : يعني رسول الله وأبا بكر)[1] .

وعن عثمان يصدق نفس القول الا أنه اختلف عن أصحابه بكثرة ماله ، فلقد كان رجلا موسرا صاحب تجارة

---

(1) نفس المصدر السابق – ص 278.

ولكنه لم يكن يحسب للمال نصيبا في حياته ، فلقد أنفق ماله في الذود عن الدعوة الاسلامية وحمايتها ، وكانت له المواقف المشهودة في تاريخ الاسلام ، ومن أروع مواقفه رضي الله عنه تجهيزه لجيش العسرة في غزوة تبوك وذلك حينما قدم من خالص ماله ثلاثمائة بعير وألف دينار[1] ، ترى هل كان يطمع سيدنا عثمان رضي الله عنه ـ وهو يجهز جيش العسرة ـ أن يرد له ذلك المال عندما تفتح الممالك والامبراطوريات ، كلا لقد وهبها في سبيل الله وأراد بها ابتغاء وجه ربه وهكذا كان أبو بكر وعمر قادرين على أن يجمعوا في أيديهم كل ما يحصلون عليه من غنائم ، وأن يستخدموا ذلك في توفير حياة رغدة وادعة كتلك التي يحياها الملوك والأمراء من الشعوب التي لا عقيدة لها ، ولكن هؤلاء كانوا على يقين كامل بأن جهادهم هو من أجل اعلاء كلمة الله ومن أجل افساح المجال أمام الشعوب لتصلها دعوة محمدﷺ ، ولم يكونوا أبدا ينوون تبديل حياة بأخرى أو ضم أرض جديدة أو الاستيلاء على مراكز الثروة في العالم فذلك مما لم توص به عقيدتهم ولم يسر عليه نبيهم ، بل ان العقيدة نهت عن التكالب على الدنيا والسعي وراء ملذاتها

(1) الكامل ـ ابن الأثير ـ جـ 2 ـ ص 190.

وشهواتها . فاذا كان هؤلاء وهم من تقلدوا أمور المسلمين وفي زمن قوة الفتوحات الاسلامية وعنفوانها على تلك الحال من العفة في الدنيا وأهوائها فكيف يكون اذا حال البقية من المسلمين الذين قامت على أكتافهم حركة الفتوحات الاسلامية ، كيف يمكن لهم أن يخرجوا من الجزيرة يبتغون ثروات القياصرة والأكاسرة وهم تحت قيادة أولئك الأمراء الذين تحدثت عنهم سابقا ، انه من المستحيل جدا أن يكون هدف الجنود غير هدف القائد وهم يسيرون جنبا الى جنب وخطوة بخطوة تحت راية واحدة وكلمة واحدة ، من المستحيل جدا أن يسيل لعاب الجنود المسلمين لثروة الممالك الأخرى ويدفعون بأنفسهم الى ساحات الموت وهم يعلمون جيدا أنه ليس لهم في هذه الثروة ـ ان غنموها ـ الا ما يسد حاجتهم وحاجة عيالهم .

ولقد برزت تهمة المستشرقين هذه في عقول الفرس أيضا الذين ظنوا أن المسلمين انما جاءوا يقصدون الغنيمة فقط وليس لهم هدف غير ذلك ، ومن هذا المنطلق فان المسلمين عندما اصطدموا بالفرس في القادسية أرسل لهم رستم قائد الفرس يطلب منهم توجيه أحدهم اليه ليساومه فأرسل سعد بن أبي

وقاص المغيرة بن شعبة الذي قال له رستم : قد علمت أنه لم يحملكم علي ما أنتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون ، ولم يعبأ المغيرة بهذا العرض الذي أبداه رستم فلقد تعلم من نبيه أن الدعاة دائما يقابلون بالتهم والتشكيك وأن ظن رستم في ذلك لم يكن جديدا ولذلك لم يشأ المغيرة أن يخاصمه فيما قال بل اكتفى بأن قال له : ان الله بعث الينا نبيهﷺ اتبعناه فيما أمر وها نحن ننفذ تعاليمه فان شئت فاختر واحدة من ثلاث : الاسلام أو الجزية أو القتال[1] . ذلك ما رد به المغيرة على تهمة رستم ، ولو كان الأمر كما يقول المستشرقون من أن المسلمين انما دفعتهم الحاجة للحروب ، لقبل المغيرة العرض ورجع المسلمون غانمين سالمين ، ولم الحاجة الى تعريض أرواحهم للموت ؟ خصوصا اذا عرفنا أن جيش المسلمين كان أقل عددا وعدة .

وترددت هذه التهمة مرة أخرى على لسان يزدجرد ملك الفرس حين أتاه وفد من المسلمين يفاوضه فقال لهم : (إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات

---

(1) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ تحقيق . صلاح الدين المنجد ـ جـ 2 ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ص 315.

بين منكم قد كنـا نوكل بكم قرى الضواحـي فيكفوننـاكم لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وان كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم)[1] ، ومرة أخرى يصمد المسلمون أمام الاغراء المادي ، مثبتين لكل المشككين أنهم انما خرجوا للتبشير بالدعوة وازالـة الحواجز من أمامها ، ولم يخرجوا من أجل طلب ما يقتاتون به أو يلبسونه ، فلقـد قال له المغـيرة بن زرارة ان الرسـول ﷺ قال : ان ربكم يقول : ﴿ **من تابعكم على هذا (أي الدين الاسلامي) فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبـى فاعرضـوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم . فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومـن بقـي منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك** ﴾[2] ، وهكذا يرتفع الصوت المؤمن قويا مجلجلا في ساحة ملك الفرس وأمام جنده وحاشيته مرددا فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، لقد ضرب هؤلاء أروع الأمثال في الشجاعة والايمان

---

(1) تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير ـ جـ 3 ـ ص 499

(2) نفس المصدر السابق ـ ص 500

والثبات ، لقد رفضوا الدنيا التي عرضت عليهم على لسان يزدجرد ملك أكبر دولة في العالم آنذاك وصاحب أكبر ثروة أيضا ، رفضوا ذلك لأنهم لم يخرجوا من أجله ، وانما خرجوا من أجل واحدة من ثلاث : الاسلام أو الجزية أو السيف ، ذلك فقط ما يبغيه المسلمون ، أمّا ما تبقى بعد ذلك فهو بحكم عقيدتهم الراسخة يتولاه الله الذي بيده مقاليد الأمور ان شاء أعطى وان شاء مسك ان شاء أغنى وان شاء أفقر .

ومرة أخرى تتجدد التهمة سنة ست وتسعين عندما غزا قتيبة بن مسلم الباهلي الصين ، حيث طلب ملك الصين أن يأتيه وفد من المسلمين يعرف منهم مطلبهم ويعرض عليهم ما يرضيهم من متاع الدنيا لعلهم بذلك يكفوه شر القتال ومرارة الهزيمة ، فأرسل اليه قتيبة وفدا برئاسة هبيرة بن مشمرج ، وحين قدم على الملك قال له الملك : (انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له : ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه)[1] وهنا يبرز الموقف واضحا هذه المرة فان كان المسلمون يقصدون جمع الثروات فقد كفاهم ما وجدوه عند الممالك التي فتحوها ، فلماذا يجاوزوا هذه

---

(1) تاريخ الطبري ـ محمد بن حرير ـ جـ 6 ـ ص502.

المهالك ويكلفوا أنفسهم مشقة السفر وأتعاب الرحلة وتكاليفها ، لقد رد هبيرة وبوضوح على تهمة ملك الصين حيث قال : (كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادكم وآخرها في منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ! وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه)[1] هذا هو الجواب الواضح الذي لا يحتاج الى تعليق يدحض تهمة ملك الصين ، ويدحض ما يأتي بعدها من تهم المستشرقين وأكاذيبهم الذين حاولوا أن يرموا الاسلام بكل نقيصة ويلصقوا به أي تشويه .

لقد حارب النبي ﷺ وأصحابه سنين طويلة داخل الجزيرة العربية ، حاربوا قريشا واصطدموا معها مرات عديدة ، وحاربوا اليهود في المدينة بمختلف قبائلهم ، وحاربوا من عاهد قريشا وحالفها من القبائل الأخرى المنتشرة في الجزيرة ، وحارب المسلمون في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه المرتدين وما نعي الزكاة ، لقد خاض المسلمون كل هذه الحروب في داخل الجزيرة العربية وهي كما يقول

(1) المصدر السابق .

المستشرقون أرض جدباء قاحلة ، واذا كان الأمر كما يقولـون فأين خزائن الذهب التي أسالت لعابهـم في هذه الحـروب ؟ وأين الحدائق والبساتين والقصور التي كانوا ينتظرونهامن هذه الحروب ؟ أين الثراء والنعيم الذي حصل عليه المسلمـون أو على الأقل توقعوا أن يحصلوا عليه وحاربوا من أجله ، أليس في هذه الحروب ما يقنع المستشرقـين بزيف آرائهـم وبطلانهـا ، أليس فيها شاهد واضح على أن المسلمين انما حاربوا من أجل اعـلاء كلمـة الله وتبليغ دعوتـه ، وأن الـدنيا لم تكن تدور بخاطرهم عندما كانوا يحملون سيوفهم ذودا عن العقيدة .

لقد قلت سابقا ان هذه التهمة قديمة جدا ، وأن تفنيدها والـرد عليهـا قديم أيضـا ، ولكنـه استمـر لفتـرات تاريخية طويلة ، فلقد رد على هذه التهمـة كما عرض هاجس يوحـي بها ، وها هم رسل المقوقس الى عمـرو بن العـاص يسألهـم المقوقس عن صفات هؤلاء المسلمين الذين قدمـوا لفتـح مصر فيجيبونه : (رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهـم من الحياة ، والتواضع أحب اليه من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا تهمة انما جلوسهم على التراب وأكلهـم على ركبهـم وأميرهـم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من

العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم)[1] ، هؤلاء هم المسلمون الذين خرجوا - كما يقول المستشرقون - يريدون الغنيمة والثراء وصفهم المصريون الذين كانوا على غير دينهم ، ولكنهم وصفوهم بصدق كما شاهدوهم في حقيقة أمرهم ، وعندما تأكد المقوقس من حقيقة هؤلاء القوم عرف أنهم على حق وأنهم أصحاب عقيدة ورسالة ، ومن كان كذلك هانت عنده الأمور وصغرت أمامه الدنيا بمغرياتها فلا يهمه اذا الا تحقيق هدفه ، ولذلك قال المقوقس : (والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد)[2] .

ان المسلمين لم يكونوا يهدفون الى الغنيمة أبدا بدليل أنهم ردوا الكثير من الغنائم في بعض الغزوات كغزوة حنين مثلا ، وحصلت فتوحات لم يحصل فيها المسلمون على غنائم مطلقا ، وذلك كما حصل في فتح مكة مثلا ، وكان المسلمون اذا قدموا الى بلاد عرضوا على قادتها الاسلام أولا باعتبار ذلك هو الشيء الوحيد الذي يهمهم والذي أخرجهم من جزيرتهم

---

(1) فتوح مصر وأخبارها - أبو القاسم بن عبد الحكم - تحقيق . عبد المنعم عامر - لجنة البيان العربي - القاهرة - ص 97.

(2) نفس المصدر السابق .

فهم دعاة أولا وقبل كل شيء ، ثم اذا لم يحصل ذلك تركوا الأمر بيد أعدائهم وخيروهم بين ثلاث لا بد من قبول واحدة منها ، فاما الاسلام وهو الشيء الذي به تعمد السيوف وتعود الجيوش الى مواقعها ويترك تدبير أمور الدولة بيد أهلها ، واما الجزية وهي المقدار البسيط من المال الذي به يستطيع أهل الكتاب البقاء على دينهم آمنين سالمين دون التعرض لأي خطر ، واما القتال وهو الوسيلة التي بها يمكن كسر جدار العزلة بين الدعوة الاسلامية وبين الشعوب المغلوبة على أمرها .

ولنفرض جدلا أن الفرس أو الروم عندما عرض عليهم المسلمون هذه الأمور الثلاثة قبلوا منها الجزية فماذا يكون موقف الجيوش الاسلامية حينئذ ؟ هل يمكن لهم أن يتجاوزوا ذلك وينهبوا خزائن الفرس أو ذخائر الروم ؟ كلا فالاسلام الذي خرجوا للتبشير به ينهاهم عن ذلك ، فقد بين لهم القرآن وبصراحة أنه لا عمل لهم بعد قبول الكفار الجرية الا أن يتركوا للناس عقائدهم وأموالهم وديارهم وكل ممتلكاتهم ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾[1] فاذا أعطوا الجزية أو

---

(1). الآية 29 من سورة التوبة .

قبلوا الاسلام فقد عصموا دماءهم وأموالهم ، وهنا أعود فأقول : ان كان المسلمون حقا خرجوا بقصد تحسين أوضاعهم المادية فان الجزية لا تكفيهم أبدا لقلتها وكثرة عددهم ، وقد بين التاريخ في كثير من المواقف أن المسلمين قد رضوا بالجزية في كثير من المرات ، وصالحوا الكثير من الشعوب على هذا المبدأ ، واذا ثبت ذلك فقد ثبت بطلان دعوى المستشرقين ، وثبت زيف آرائهم وفسادها .

الجزية وأثرها في اعتناق الاسلام :

وحين الحديث عن الشق الثاني من التهمة وهو أن الكثير من أهل الذمة انما دخلوا الاسلام فرارا من دفع الجزية أقول : ان هذا القول يعوزه الدليل ويحتاج الى اثبات ، ولا سبيل إلى اثباته ، ذلك أن الذي يعتنق دينا أو مذهبا انما يعتنقه بقلبه وتصدق ذلك جوارحه وأفعاله ، ولا يعلم ما في القلوب الا الله سبحانه وتعالى ، فربما اعتنق الانسان دينا أو مذهبا خوفا من سلطان جائر أو هروبا من ظرف قاهر أو طمعا في مال وثراء ، ولكن تلك الأسباب التي أدت به الى ذلك تظل حبيسة في نفسه لا يعلمها الا خالقه ولو صرح بها لما قبل منه اعتناقه هذا ولرد عليه بل ربما عوقب أو قتل ، واذا كان الأمر كذلك فما هو

الدليل الذي يورده هؤلاء المستشرقون على دعواهم هذه ؟ هل هناك نصوص تثبت أن هؤلاء قد صرحوا بأن اسلامهم كان هروبا من الجزية ؟ هل هناك دلائل تشير على أن هؤلاء قد ظلوا على دينهم القديم بعد اعفائهم من الجزية ؟ ليس هناك دليل يقوم على صحة هذه الدعوى الا ذلك الدليل الثابت البطلان الذي يردده بعض المستشرقين من أن الجزية كانت باهظة ولا سبيل للهروب منها الا بالتظاهر باعتناق الاسلام .

ان الجزية مأخوذة من الجزاء ، أي أن أهل الكتاب انما أخذت منهم الجزية جزاء ما يقدم لهم من خدمات ، فهؤلاء حين يعاهدون على الجزية تكون أرواحهم وأموالهم وجميع ممتلكاتهم في حماية المسلمين ، لا يمكن لأحد أن يمسها بسوء ، فهي ضريبة مقابل امتياز مثلها مثل الكثير من الضرائب التي تأخذها الحكومات اليوم مقابل تقديم خدمات معينة ، والدليل على أنها كذلك هو أن المسلمين قد ردوا لأهل الذمة ما أخذوه منهم من جزية حين علموا أنهم غير قادرين على حمايتهم ، وقد حدث ذلك حينما بلغ أبو عبيدة أن الروم تجمع جحافلها لغزو المسلمين ، فكتب الى نوابه أن يردوا الجزية الى من أخذت منهم وأمرهم أن يعلنوهم بهذا البلاغ : (انما رددنا عليكم

أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم اشترطتم علينا أن نمنعكم . انا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا اللهَ عليهم)[1] . ومما يدل أيضاً على أنها مقابل الحماية والمنعة هو أنها لا تؤخذ الا من القادرين على حمل السلاح فقط ، يقول الماوردي : (ولا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراري)[2] .

هذا ما كان من سبب فرضها ، أما من حيث قيمتها فان الجزية لم تكن أبدا باهظة فهي لا تؤخذ الا من القادر عليها أي الذي له موارد مالية يستطيع من خلالها دفع الجزية ، أما الفقير الذي لا يملك مالا ولا يقدر على دفعها فهو معفى تطبيقا لمبدأ ﴿ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ﴾[3] وقد فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين رفع الجزية عن رجل كبير من

---

(1) غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ـ د . يوسف القرصاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ص 35

(2) الأحكام السلطانية ـ الماوردي ـ ط1. ـ 1909 م ـ ص 144.

(3) الآية 286 من سورة البقرة .

أهل الذمة رآه يسأل الناس [1] . والجزية أيضا لا تؤخذ الا مرة واحدة في السنة تماما كما يؤخذ من المسلمين فريضة الزكاة ، وهي أيضا مقدار بسيط لا يتجاوز في أكثر الأحوال ثمانية وأربعين درهما [2] .

كيف يقال اذا ان الجزية كانت سببا في ارهاق الذميين حتى أكرهتهم على اعتناق الاسلام ، ألم يعلم هؤلاء أن باسلام هؤلاء تسقط عنهم الجزية وتجب عليهم الزكاة ، فما الفائدة اذا ؟ ان الزكاة ربما زادت في مقدارها عن الجزية فالجزية مقدار معين ومعلوم وثابت ، أما الزكاة فهي نسبة معينة تزيد وتنقص بحسب زيادة المال ونقصانه ، ثم ان الذمي اذا أسلم صارت عليه تبعات جديدة لم تكن عليه في السابق ، فبحكم اسلامه يجب عليه الانخراط في الجيش الاسلامي والدفاع عن الديار الاسلامية ، وذلك أمر عظيم لم يكن مكلفا به حين كان ذميا فقد تكفلت الجزية باعطائه حق الحماية والمنعة ، فهل يصدق بعد هذا أن يكون الذميون قد اعتنقوا الاسلام فرارا من

(1) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام ـ د . عبد الكريم زيدان ـ ط 2 ـ جامعة بغداد ـ 1976 م ـ ص 141

(2) الأموال ـ ابن سلام ـ تحقيق : محمد خليل هراس ـ دار الفكر ومكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ 1975 م ـ ص 50

الجزية ، ان هذا قول ليس له نصيب من الصحة وليس له أي هدف سوى أن المستشرقين يريدون أن يبينوا وبطريق خفي أن الاسلام لا يصلح دينا يعتنقه الناس وأن الذين اعتنقوه انما فعلوا ذلك بسبب أتعاب ومصاعب مادية .

ان اعتناق الاسلام هروبا من دفع الجزية أمر لا يتأتى مطلقا فالذمي اذا اعتنق الاسلام وهو غني موسر فان اسلامه سيضاعف من تبعاته المالية حين تجبى منه الزكاة وان كان الذمي فقيرا ليس له قدرة على دفع الجزية فقد تكفل الاسلام باسقاط الجزية عن من لا يستطيع دفعها ، ففي أحكام الجزية أنها تسقط عن الفقير الذي يتصدق عليه والشيخ الذي لا يستطيع العمل والأعمى والأعرج والمريض والمغلوب على عقله الا اذا كان غنيا ، وأعفي من دفعها أيضا المترهبون في الأديرة والصوامع الذين يعيشون على الصدقات[1] .

ان الجزية ترفع عن الذي أعلن اسلامه دون نظر الى الدافع الذي من أجله أسلم الانسان ، لأن الدين الاسلامي يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ولا يهم أن كان الشخص

---

(1) الاسلام وأهل الذمة ـ د . علي الحربوطلي ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ـ 1969 م ـ ص 73.

أسلم فرارا من الجزية أم لا فأمره الى الله ، وقد ورد أن رجلا غير عربي أسلم ولكن الوالي لم يرفع عنه الجزية ، فقدم الرجل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : اني أسلمت والجزية تؤخذ مني ، فقال عمر : لعلك أسلمت متعوذا ، فقال : أما في الاسلام ما يعيذني ؟ فقال عمر : بلى فكتب عمر أن لا تؤخذ منه الجزية [1] .

وهكذا ومن خلال الكثير من الحقائق التي مرت يثبت أن الكثيرين من أهل الذمة الذين دخلوا الاسلام انما دخلوه اقتناعا ورغبة في انقاذ أنفسهم من الضلالات ومن زيف الأديان الأخرى وأباطيلها ، وأنهم لم يفعلوا ذلك الا بعدما شاهدوا بأعينهم حقيقة الاسلام متجسدة في سلوك معتنقيه ، الذين أظهروا تسامحا فريدا لم تظهره الديانات الأخرى حتى ان مسيحيي الشام حين رد لهم أبو عبيدة الجزية التي أخذت منهم لما علم أن المسلمين غير قادرين على حمايتهم ، دعا هؤلاء المسيحيون بالبركة على رؤساء المسلمين وقالوا : (ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شيء بقي لنا) [2] .

---

(1) نفس المصدر السابق ـ ص 72

(2) غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ـ د. يوسف القرضاوي ـ ص 59.

ولا يفوتني في نهاية الكلام على هذه الشبهة أن استشهد برأي عالم غربي اعترف بنزاهة المسلمين وصواب رأيهم في فرض الجزية فقد قال توماس ارنولد : (ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام ، وانما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين)[1] .

التعامل التجاري وأثره في اعتناق الاسلام :

أما الشق الثالث من تهمة العامل الاقتصادي في الفتوحات الاسلامية والذي يرى بأن التعامل التجاري بين المسلمين وغيرهم كان سببا من الأسباب التي أدت بالكثيرين الى التحول الى الاسلام ، فان ذلك قول غير صحيح ويصدق عليه الكثير من الكلام الذي أوردته في موضوع الجزية ، ورغم أنه لم يقل به الا قليل جدا من المستشرقين الا أني أردت أن

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس اربولد ـ ص 79.

أشير اليه اشارة عابرة نظرا لعدم أهميته وعجز أصحابه عن اقامة الدليل عليه .

أما الدليل على أن ذلك غير صحيح فهو أن الكتابيين بصفة عامة وأهل الذمة بصفة خاصة كانوا يتساوون مع المسلمين في أحكام المعاملات وأنه يجوز لهم الاتجار بحرية تامة تماما كما يجوز للمسلمين ذلك ، ولم يشترط فقهاء المسلمين شرط الاسلام في الكثير من أحكام العقود والمعاملات ، فقد قال الحنفية بأن الذمي كالمسلم في التزامه أحكام الاسلام في ما يرجع الى المعاملات لأنه من أهل دارنا ، وان الذميين في المعاملات والتجارات كالبيوع وسائر التصرفات كالمسلمين الا ما استثنى ، وصرح الحنفية أيضا في باب الاجارة بأن اسلام العاقدين ليس بشرط أصلا ، وفي باب الشفعة ان اسلام الشفيع ليس بشرط لوجوب الشفعة ، وفي باب البيوع صرحوا بأن اسلام البائع ليس بشرط لانعقاد البيع ولا لصحته ، وكذلك قالوا في باب المزارعة وباب المضاربة[1] ، ولم يتفرد الحنفية بذلك بل قال بهذه الآراء أيضا الشافعية فقد قال الامام

---

(1) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام ـ د . عبد الكريم زيدان ـ ص 547 ، وما بعدها .

الشافعي : (ونبطل بينهم (أي أهل الذمة) البيوع التي تبطل بين المسلمين كلها)[1] ، ومثل ذلك قاله الحنابلة والمالكية والزيدية والامامية ، فالجميع يتفقون على أن المسلمين وأهل الذمة والمستأمنين يتساوون في أحكام المعاملات من بيع وشراء وغيرها ، حيث لم يتعرض الفقهاء للتفريق بين المسلم وغيره الا في المعاملات التي تقع في الأشياء المحرمة [2] ، واذا ثبت ذلك فكيف يحتاج الكافر الى أن يعتنق الاسلام من أجل المعاملات التجارية مع المسلمين التي هي مباحة له حتى وهو غير مسلم ، ان هذا القول غير جدير بالمناقشة أصلا لأنه لا يستند الى وجهة نظر يمكن أن تكون موضوعا للحوار والنقاش العلمي ، ومن ثم أكتفي بما أوردته عنه .

---

(1) الام ـ الشافعي ـ جـ 4 ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ 1973 م ـ ص 211.

(2) انظر في هذا الموضوع :

أ ـ جواهر الاكليل ـ جـ 2 ـ باب البيوع ـ ط دار الفكر .

ب ـ النهاية ـ الطوسي ـ كتاب المتاجر ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

جـ ـ مواهب الجليل ـ الحطاب ـ دار الفكر ـ بيروت ـ باب البيوع .

مناقشة الاتجاه الثالث

المسيحيون في العهد العثماني والتشكيك في سبب إسلامهم

وحين الانتقال بالمناقشة الى الاتجاه الثالث فان أول ما يطالعنا هو تلك الأسباب الواهية التي عددها توماس سميث وجعلها أسبابا رئيسية لدخول كثير من المسيحيين في الاسلام في العهد التركي أو كما اشتهر بالعهد العثماني ، والدارس الفاحص لهذه الأسباب يجد أنها لا تقوم على دليل مقبول ، ولا تعرف الموضوعية ولا تنهض على شواهد تاريخية ، وسيتضح ذلك بعد مناقشتها .

ان أول سبب يذهب اليه توماس سميث هو أن فريقا من المسيحيين أسلم بدافع اليأس البالغ وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفار ، هذا هو السبب الأول وهو واضح في كونه كلاما عاما غير محدد لا يهدف الا الى التشويه وذلك عن طريق الايماء بأن هناك عبودية وظلما أديا الى يأس المسيحيين الذين لم يجدوا مفرا للهروب من تلك العبودية وذلك الظلم الا باعتناق الاسلام ، وحين وضع هذا الرأي

تحت المجهر التاريخي في محاولة لايجاد ما يثبت ذلك يتضح أنه كلام لا أساس له من الصحة وانه كلام صدر عن روح صليبية حاقدة حتى ان توماس ارنولد صاحب كتاب الدعوة الى الاسلام حين قدم هذا الرأي قال : (ويتحدث توماس سميث الذي كان في القسطنطينية سنة 1669 عن عدد الداخلين في الاسلام من المسيحيين حوالي هذه الفترة . ولكنه ينسب اليهم بواعث أكثر خسة)[1] .

أما عن العبودية والسفاهات التي يتحدث عنها سميث فأقول ان المسيحيين كانوا في ظل الحكم العثماني على درجة كبيرة من الاحترام والتقدير ، فمنذ قيام الدولة العثمانية توطدت العلاقات بين الحكومة الاسلامية والكنيسة المسيحية ، واهتم بعض سلاطين الدولة باضفاء طابع الرعاية الكاملة على المسيحيين وذلك شيء افتقده المسيحيون في عهودهم السابقة ومع حكوماتهم التي تدين بدينهم ، يقول توماس ارنولد في ذلك : (ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني ، بعد سقوط القسطنطينية واعادة اقرار النظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 193.

الاغريقية فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ومنح البطريق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق . وقد تسلم جناديوس أول بطريق بعد الفتح التركي ، من يد السلطان نفسه عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية وحصان محلى بطاقم فاخر وكان يتميز بركوبه في خلال المدينة تحف به حاشيته . ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم ، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة فكان من عمل البطركية أن يفصل في القضايا التي تتعلق بالاغريق بعضهم مع بعض ، فكان لها أن تفرض الغرامات ،وتسجن المجرمين في سجن معد لها ، بل كان لها أن تحكم بالاعدام في بعض الأحيان . بينما صدرت التعليمات الى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام : وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنسية (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقا بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريق وأعضاء المجمع الأعظم ، وكان في استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء ،

كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة ، ولما كان هذا البطريق معترفا به موظفا من موظفي الحكومة السلطانية كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان الى أعمال الحكام الظالمين)[1] ، ذلك بالضبط ما يقوله كاتب غربي مشابه لتوماس سميث ولكنه يمتاز عليه بأنه يتجرد أحيانا من مسيحيته وعصبيته الدينية ولا يتردد في قول الحق خصوصا اذا وجد نفسه أمام دلائل تاريخية ثابتة لا مجال للالتواء فيها ، فأين الظلم والعبودية التي يدعيها توماس سميث ، وأين القهر والمعاناة التي دفعت المسيحيين الى اليأس البالغ حتى دفعهم ذلك الى ترك ديانتهم واعتناق الاسلام ، لقد تمتع المسيحيون في ظل الحكم العثماني بميزات عظيمة وكثيرة حتى ان ذلك دفعهم الى الموافقة على تغيير سادتهم وايثار سيادة السلطان العثماني على أية سلطة مسيحية أخرى وذلك لما وجدوه من عدل وتسامح خصوصا في عهد بايزيد ومراد الثاني اللذين اشتهرا برعايتهم الفائقة للمسيحيين واعطائهم حرية كاملة خصوصا في ممارسة

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 170, 171.

شعائرهم الدينية وما يتبعها من طقوس واحتفالات خاصة بهم [1] .

ولقد آثرت أن أورد هنا رأي توماس ارنولد دون غيره ، وبخاصة من العلماء المسلمين حتى لا أدع مجالا لمقال حول ما ذهب اليه توماس سميث ، فارنولد كاتب غربي لا يعنيه أن يدفع عن الاسلام تهمة ما لأنه لا يدين به ، فاذا رد ما زعمه سميه في المعتقد كان أبلغ في ابطال التهمة وآكد في أن الاسلام لا يؤمن به الناس الا عن رغبة ذاتية وقناعة قلبية وعقلية ، وليس كما يزعم الزاعمون ويفتري الداهمون .

أما السبب الثاني الذي يورده توماس سميث لاسلام المسيحيين في العهد العثماني فهو أن فريقا آخر أسلم نتيجة مهزلة سقيمة هوجاء ليتبوؤوا مكانة يملكون بها ناصية الحكم وينزلون الاهانة بغيرهم من الناس ، وهذا السبب أوهى من سابقه وأسخف فهو يظهر أولا وقبل كل شيء أن المسيحيين لم يكونوا مقتنعين بدينهم ولا متحمسين للاعتصام به ، فالذي يرضى بترك دينه وعقيدته ـ وهي أهم ما يعتز به الانسان ـ مقابل الفوز بمنصب وظيفي أو مكانة مرموقة في ذلك المجتمع الذي

---

(1) الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ ص 170 وما بعدها .

عرف بأنه لا يفرق بين المسلم وغيره في تصريف شئون الحياة ، ليس انسانا جديرا بالتقدير ولن يحترم العقيدة التي آثرها على عقيدته ، ويقول توماس سميث ان هذا المنصب الذي سعى اليه المسيحيون ودفعوا مقابله عقيدتهم سوف يستخدمونه في اذلال غيرهم من الناس والحاق الاهانة بهم ، فهم لم يستخدموه ـ كما استخدمه المسلمون ـ في التسامح واقامة العدل والمساواة وتقريب الهوة بين أتباع الديانات المختلفة ، وتفتيت الأحقاد والضغائن الناتجة عن الاختلاف الديني أو السياسي أو الاجتماعي ، لقد أساء سميث بكلامه هذا للمسيحيين أكثر مما أساء للمسلمين الذين أراد تشويههم والصاق التهم بدينهم الحنيف ، أما ما يفهم من كلامه من أن المسيحيين كانوا بعيدين عن المناصب لكونهم غير مسلمين ، فذلك شيء طبيعي وعادي ، فالدولة العثمانية دولة اسلامية ونظام الحكم فيها اسلامي ، ولذلك فانه من الطبيعي جدا أن يتولى المسلمون مقاليد الأمور في هذه الدولة ، ومن غير الطبيعي أن يترك تصريف أمور الدولة الاسلامية لأفراد غير مسلمين ، واذا حدث ذلك فهو اما بسبب عجز المسلمين عن القيام بذلك وهو الأمر الذي لم أعثر له على مسند تاريخي ، واما من قبيل التسامح واضفاء طابع المساواة على جميع أفراد

الشعب دون تفريق ديني أو طائفي وهو أمر قد يوجد ما يثبته تاريخيا ، ومن ذلك ما يقوله (مارتن كروسيوس) : (من الغريب أننا لم نسمع مطلقا أن شيئا من الجرائم أو المظالم قد وقع بين البرابرة (الأتراك) وبين البقية الباقية في هذه المدينة الكبرى ، فالعدالة ممنوحة لكل فرد . لذلك وصف السلطان القسطنطينية بأنها ملجأ العالم كله : ذلك لأن جميع التاعسين يختبئون هناك في أمان ، ولأن العدالة توزع على الناس جميعا ، على أقلهم شأوا وأعظمهم نفوذا على المسيحيين والكفار سواء بسواء)[1] ، وزيادة في الايضاح أقول ان كلام توماس سميث مردود من ناحية أخرى وهي أن النصارى واليهود كانوا يعاملون معاملة الجماعات المستقلة ذاتيا[2] ، واذا كان ذلك كذلك فليس هناك مبرر لأن يغير المسيحيون عقيدتهم من أجل الحصول على مناصب قد تكفل لهم حتى وان لم يتحولوا الى مسلمين ، ولذلك أقول ان كلام سميث ليس له أي وجهة منطقية أو مسند تاريخي ، ولا يحتاج في الرد عليه الى أكثر مما أشرت اليه .

---

(1) الدعوة الى الاسلام - توماس اربولد - ص 173.

(2) دائرة المعارف الاسلامية - كرامرز - جـ 5 - مادة ترك - ص 174.

أما السبب الأخير الذي يذكره سميث وهو أن فريقا أسلم بدافع التخلص من ألوان العقاب والبلاء جزاء بما ارتكبوه من الجرائم ، فهو سبب ليس له من هدف الا الاشارة الخفية الى أن الاسلام معقل المجرمين والقتلة بدليل أنه ذكر بعد ذلك معللا لفعل هؤلاء أنهم لينعموا بالحريات التي تنطوي على الوحشية والتي قدّسها محمد باعتباره مثلا اقتدى به أتباعه : ذلك فقط ما يريد توماس سميث اثباته ، أما أن المسيحيين دخلوا الاسلام بقصد التخلص من عقوبات الجرائم التي ارتكبوها فذلك أمر ثانوي أتى به بقصد الوصول الى غايته بطريق غير مباشر ، وليس هو المقصود لأنه يعلم بالطبع أن الاسلام قد سن من العقوبات والقوانين الرادعة لكل ألوان الجرائم التي قد يرتكبها الانسان دون نظر الى عقيدة المجرم أو حيثيته ، فالعقوبات في الاسلام يخضع لها كل من يخضع للدولة الاسلامية اللهم الا بعض الحدود كالخمر لأن غير المسلمين يعتقدون أنها حلال ، وان كنا اسلاميا لا نقرهم على ذلك ، ولكنه التسامح الذي لم يعرفه دين سوى الاسلام ، واذا كان سميث يقصد بالعقاب ذلك الذي يكون يوم الدين والذي يتعلق بذمة الجاني ، والذي قد يغفره الله باعتبار أن المجرم قد فعل ذلك وهو كافر وأن الاسلام يجب ما قبله فذلك أمر جائز

ومحتمل ، أما العقاب الدنيوي المتمثل في صورة قانون العقوبات فذلك أمر لا مفر من تنفيذه لأن فيه انصافا لحق الأفراد أو الهيئات التي وقع عليها الاعتداء نتيجة فعل المجرم ، ولو ترك المجرم دون عقاب بحجة أنه كان كافرا وأسلم لأصبحت المسألة أمرا فوضويا قد يهدم صرح العدالة والأمن الذي يجب أن يتوفر في المجتمع .

والخلاصة أن آراء توماس سميث تعكس مفاهيمه المضطربة عن الاسلام ، وأهوائه الحاقدة عليه ، وأنه في دراسته لانتشار الاسلام لم يأخذ نفسه بالمنهج العلمي والبحث الموضوعي ، وأن كل هذه الآراء لا تدعمها حجة مقبولة أو برهان معقول .

الحاجة الى الزواج وأثرها في اعتناق الاسلام : -

والشق الثاني من هذا الاتجاه هو ما يقوله (مارشال هودجسون) من أن الذين اعتنقوا الاسلام من المسيحيين كانوا يعيشون تحت ضغوطات متنوعة دفعتهم الى اعتناق الاسلام ، ومن هذه الضغوطات ما يواجهه المسيحيين في علاقاتهم الاجتماعية مع المسلمين وبالأخص الزواج الذي كان عاملا هاما

في تحول المسيحيين والمسيحيات الى الاسلام ، ويلاحظ أن هذا الباحث لم يكن جازما فيما ذهب اليه من رأي بدليل أنه ساقه في عبارة تحمل ظلالا من الشك وعدم القطع ، ومع هذا لا أرى مانعا من مناقشته لما في ذلك من جلاء الصورة عن موقف المسلمين من العلاقات الاجتماعية التي قد تنشأ بين المسلم والكافرة أو العكس .

ان القرآن قد حدد هذه العلاقة وفصلها ، وهي إما أن تكون علاقة بين مسلمين ومشركين وهذه قد حرمها القرآن بدليل قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾[1] ، وقد بين القرآن أيضا علة هذا التحريم بقوله : ﴿ **أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه** ﴾[2] ، فالمشركون لا دين لهم ، ومن لا دين له لا شيء يردعه من فعل المنكر والقبيح وبالتالي فكيف يمكن أن يستأمن على مسلمة تريد أن تحفظ دينها وتؤدي شعائره . واما أن تكون العلاقة بين مسلمين وأهل

(1) الآية 221 من سورة البقرة .

(2) نفس الآية السابقة .

كتـاب وهـو ما فصلـه القـرآن الـذي أبـاح زواج المسلـم من الكتابية ـ وهو أمر اعترف به ذلك الباحث أيضا ـ بدليل قوله تعالى : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامـكم حل لهـم والمحصنـات من المؤمنـات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهـن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخـذى أخـدان ﴾[1] ، وحرم زواج الكتابي من المسلمة بدليل قوله تعـالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفـار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾[2] وقد علل بعض الفقهاء لهذا التحريم بأن الكتابي اذا تزوج مسلمة كانـت له الـولاية عليها ووجبت عليها طاعته وامتثال أوامره وهو ما يخالف قوله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾[3] ، ثم إن هذا الزواج أمر غير ممكن لما فيه من الاختلاف في جوهر العقيدة التي قد يترتب عليها أمور تعكر صفو الحياة الزوجية ، فالكتابي لا يعترف بالدين الاسلامـي ولا بالقـرآن ولا بالنبـي

---

(1) الآية 5 من سورة المائدة .

(2) الآية 10 من سورة الممتحنة .

(3) الآية 141 من سورة النساء .

ﷺ ، وبهذا الاختلاف فان الأمور لا تستقر بينهما علاوة على أنه قد يتعرض لدينها بسب أو حرمان من أداء الفراض وعلى العكس من ذلك المسلم اذا تزوج كتابية فانه يعترف بصحة رسالتها ويعترف بصدق نبوة رسولها ويصدق بكتابها ، ولا يتم ايمانه الا اذا اعترف بدينها ، وهو بالتالي لا يمكن له أن يتعرض لدينها أو يحرمها من أداء واجباتها وطقوسها[1] ، بصرف النظر عن أن أتباع هذا الدين قد حرفوا وبدلوا ومن ثم أنكروا نبوة محمدﷺ وعموم رسالته ، فذلك أمر يتحملون وزره يوم يقوم الناس لرب العالمين . وهكذا تتبين نظرة الاسلام الى العلاقات الاجتماعية بين متبعي الديانات المختلفة ، ويتبين أيضا أنه دين يهدف الى ازالة الحواجز بين الأمم والشعوب حتى يحصل التقارب والتعارف والتآلف الذي قد يؤدي في النهاية الى اظهار حقيقة الاسلام لمن لم يعرفه وذلك وسيلة من وسائل نشر الاسلام والتعريف به ، ولا أظن أن أحدا ينكر على الاسلام هذه الوسيلة السلمية التي تقوم على الدعوة بالحكمة والقدوة الحسنة .

وإذا سلمنا جدلا بأن العامل الاجتماعي كان وسيلة من

---

(1) فقه السنة - السيد سابق - جـ 2 - ط 1 - دار الفكر - بيروت - 1977م - ص 94.

وسائل نشر الاسلام فانه من الخطأ البين أن يسمى ذلك بالضغوط الاجتماعية التي يفهم منها معنى القوة والغلبة ، أي أن الاسلام قد فرض هذه القيود من أجل الاعتراف به ولذلك فلا مفر من التسليم والاذعان لهذه القيود من أجل الظفر بالمطلوب ، وهذا المفهوم الذي يتبادر الى الذهن هو ما يرد على هذا المستشرق وذلك لمخالفته لواقعية الاسلام الذي لم يفرض ضغوطا اجتماعية وانما فرض شروطا تحفظ للمسلمة عزتها وتمسكها بدينها وتصونها من عبث من لا يعترف بدينها ، وحين نعرف ذلك نفهم أن لفظ ضغوطات اجتماعية هو أمر مردود ، وأن محاولة هذا الباحث اظهار الاسلام بالدين الذي لا يصلح لأن يعتنق ، وأن الذي فرضه ونشره بين الناس هو ظروف مختلفة ، هي أيضا محاولة غير مسلمة ، فالاسلام انما نشرته سماحة مبادئه وصدق تعاليمه وواقعيتها .

بين القومية والدين : -

أما الشق الثالث من هذا الاتجاه فهو يتمثل في اضفاء الطابع العنصري القومي على الفتوحات الاسلامية ، حيث يرى فيليب حتي أن الغلبة في الفتوحات الاسلامية كانت للعرب وأن الحماس الذي وصل بالاسلام الى معظم بقاع الدنيا

كان نتيجة شعور قومي سيطر على نفوس المسلمين الأمر الذي ذابت معه العاطفة الدينية ، وكانت النتيجة كما يرى الفوز للقومية العربية وليس للدين الاسلامي . ذلك بالضبط ما يفهم من كلام حتي وهو أمر بعيد عن المنطق العلمي الذي يستند الى استقراء التاريخ ودراسة تعاليم الدين الاسلامي نفسه . ان الاسلام الذي ظهر في الجزيرة العربية ـ تلك البيئة التي عرفت بعصبيتها المفرطة ـ كان يضع حسابا كبيرا للأثر الذي يمكن أن تحدثه تلك العصبية ـ اذا تركت ـ من تفتيت للوحدة التي يجب أن تسود بين جميع معتنقيه على اختلاف بيئاتهم وأنسابهم وألوانهم ، ومن هذا المنطلق أراد الاسلام أن يتربى أتباعه على ازالة كل النعرات الطائفية والقبلية ، وأن يلتزموا برابطة واحدة فقط وهي رابطة الأخوة الأسلامية ، بل قد ذهب الاسلام الى أبعد من ذلك حين غرس في نفوس أتباعه رابطة الأخوة الانسانية التي لا ترتبط بدين ولا مذهب ولا قبيلة ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾[1] ﴿ **يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم**

---

(1) الآية 1 من سورة النساء .

عند الله أتقاكم ﴾[1] ، لقد أشعر الاسلام أتباعه بأهمية تلك الرابطة من أجل أن تنشأ دولة الاسلام قوية متماسكة لا تهددها الخلافات ولا تفتتها النزاعات المذهبية والعرقية التي ان ظهرت في مجتمع مزقته وأذابته ، يقول الرسولﷺ مبينا أهمية تماسك المجتمع الاسلامي وتكاتفه على اختلاف طوائفه وأنسابه وألوانه : **﴿ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ﴾**[2] .

لقد ظهرت النعرة القومية التي يشير اليها فيليب حتي في كثير من المناسبات في عهد الرسولﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين ولكن الموقف منها كان حازما وشديدا والتأنيب عليها كان فظيعا ، فمن ذلك ما يروى من أن أبا ذر الغفارى وهو عربي تغاضب مع بلال وهو حبشي وتطور النزاع بينهما الى أن أخذت أبا ذر الحدة فقال لبلال : يا ابن السوداء ، فشكاه بلال الى الرسولﷺ فقال لأبي ذر أعيرته بأمه ؟ انك امرؤ فيك جاهلية ! فندم أبو ذر على ما فعل حتى أنه أمر بلالا أن يطأه على

---

(1) الآية 13 من سورة الحجرات .ـ

(2) رواه مسلم ـ كتاب البر ـ حـ 16

وجهه مبالغة في التوبة والندم[1] ، ومما يروى أيضا أن قيس بن مطاطية جاء الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي وقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ، فقام اليه معاذ بن جبل وأخذ بتلابيبه وأتى النبيﷺ وأخبره بمقالته ، فقام الرسولﷺ غاضبا حتى أتى المسجد وأمر بأن ينادى في الناس حيث خطب فيهم وقال : يأيها الناس ان الرب واحد والأب واحد وان الدين واحد[2] . وهكذا يتضح من خلال تعاليم الاسلام وسلوك نبيه أنه دين لا يقيم وزنا للافتخار بالنسب ، ولا للاتكاء على القومية بجعلها سبيلا الى الأثرة والتعالي على الآخرين ، ولا بالتمسك بها حتى تكون المسيطر على النفس والمحركة للشعور .

انه لا غضاضة في أن أقول ان العرب كان لهم الشرف في القيام بحمل عبء الرسالة ، وكان لهم الشرف أيضا في تحمل تبعات نشرها في منبتها الأول ، وكان لهم الشرف أيضا في تكوين الدولة الاسلامية وبناء صرحها ، وكان لهم الشرف

---

(1) من روائع حضارتنا ـ د . مصطفى السباعي ـ ط 2 ـ المكتب الاسلامي ـ دمشق ـ 1977 ـ ص 65.

(2) نفس المصدر السابق .

أيضا في أن تكون لغتهم هي لغة الدعوة ، وأن يكون صاحب الدعوة عربيا من أشرف بطون العرب ، ذلك ما يفضل به العرب غيرهم من بقية المسلمين ، أما ما عدا ذلك فالجميع سواء (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى)[1] .

ولعل الروايات التاريخية الكثيرة كفيلة بالرد على هذه الفرية ، فالعنصر العجمي كان له دور واضح منذ بداية الدعوة ، فها هو بلال الذي تحمل في سبيل الدعوة الكثير نراه يأخذ مكانه الطليعي في معظم الغزوات والمعارك منذ بداية الدعوة وحتى نهاية أجله ، وها هو الرسول ﷺ يشرفه دون غيره من سادة العرب بأن يعتلي الكعبة في فتح مكة ويؤذن للصلاة ، وكأنه بذلك يومىء الى العرب بأن الاسلام لا يعترف بحسب ولا نسب وأن الجميع أمام الله سواء ، ومثل ذلك كان سلمان الفارسي وصهيب الرومي مناضلين في سبيل نشر راية الاسلام ورفع لوائه ، وكان لسلمان الفضل الكبير في أن ينقذ الاسلام والمسلمين من خطر محدق وذلك بما أشار به على الرسول ﷺ من حفر للخندق الذي حفظ المدينة من مداهمة الكفار لها في غزوة الخندق ، وهي خطة حربية فارسية عمل بها الرسول ﷺ

(1) رواه الامام أحمد ـ جـ 5.

حين عرف صوابها .

وحين الاسترسال قليلا في تقليب صفحات التاريخ سوف تتضح الأمور أكثر ، ويصبح الأمر غير محتاج الى نقاش ، فالعجم كان لهم دور القيادة والزعامة في الدولة العباسية حتى أصبح دور العربي أمامهم ثانويا ، فأبو مسلم الخراساني كان له الدور البارز في تأسيس الدولة وفي تولي أمر جزء مهم منها وهو إقليم فارس ، وكان ذا شوكة كبيرة في الدولة العباسية حتى اصبح خطرا يهدد الخليفة نفسه ، ومثل ذلك الحال كان في عهد الرشيد حيث تسلمت أسرة البرامكة كل مقاليد السلطة وأصبح بيدها الأمر والنهي في تصريف كل أمور الدولة ، واذا وقع ذلك في فترة حاسمة من فترات التاريخ الاسلامي امتدت فيها الفتوح وازدادت توسعا ، وكانت تحت قيادة الأعاجم فلمن يا ترى يكون الفوز للقومية العربية كما يقول حتي أم للقومية الفارسية والعجمية كما يتبين من ظاهر الحوادث التاريخية ؟ ان الفوز والغلبة لم تكن لهذا ولا لذاك ، فقد كانت الغلبة للدين الاسلامي ولمبادئه وأهدافه السمحة التي وحدت الصفوف وصهرت الجميع في بوتقة واحدة حتى أخرجت منهم العنصر المسلم ، وهو العنصر الجديد الذي لا

يعرف تعصبا ولا يرى فضلا يفوق فضل الاسلام والتقوى .

لماذا لم يتذكر حتي - حين قال ذلك - قيام الدولة العثمانية وظهورها ؟ أين دور العرب في قيام هذه الدولة وفي تصريف شئونها ؟ ألم تقم بجهود الأعاجم وسيطر فيها الأعاجم سيطرة كاملة ، ومع ذلك استمرت الفتوح وازداد اتساع رقعة الاسلام . فأين القومية العربية في ذلك ؟ . واليوم يقوم بجهود نشر الدعوة والتبشير بها رجال مسلمون غالبيتهم من العجم وعلى الأخص من الباكستان والهند ، وجهود هؤلاء كبيرة وواضحة يتضاءل أمامها دور العرب في هذا الميدان ، ومع ذلك يقول حتي ان الفوز كان للقومية العربية لا للدين الاسلامي ، ان ذلك زور وبهتان فالفوز كان للدين الاسلامي الذي حمل لواءه العنصر الاسلامي الذي هو مزاج من العرب وغيرهم من بقية الشعوب التي دخلت الاسلام وسارت جميعا في ركب واحد تردد شعارا واحدا هو لا اله الا الله محمد رسول الله ﷺ ، وترفع علما واحدا وتأتمر بامرة قائد واحد ، ذلك هو بالضبط ما كانت عليه حالة الفتوحات الاسلامية ، أما ما عدا ذلك من محاولة ايجاد تفسيرات وتعليلات واهية ليس لها ما يؤيدها فذلك أمر واضح في أنه ليس له هدف سوى رمي

الاسلام بكل نقيصة ومحاولة تشويهه بكل ما أمكن ، وهو أمر نتج عن أحقاد صليبية لا يستطيع أحد أن ينكر أن لفيليب حتي نصيبا وافرا فيها .

بين الدين والدولة : -

والاستنتاج الثاني الذي يحاول فيليب حتي أن يستشفه من الفتوحات الاسلامية هو أن الغلبة في الفتوح الاسلامية هي للدولة الاسلامية كمفهوم سياسي وليس للدين الاسلامي ، فهو يقول ان الاسلام الذي فتح أراضي الشمال لم يكن الدين بل كان الدولة . وهذا الكلام غير صحيح وذلك لأنه لا يوجد في الاسلام فصل بين الدين والدولة ، وانما يوجد نظام اجتماعي شامل متكامل ينظم أمور الدنيا والدين معا ، وعلى العكس من ذلك تماما عرف الغرب هذه التفرقة كرد فعل لاضطهاد الكنيسة وتدخلها في كل الأمور ، ومن ثم كفر الغربيون بكل تعاليم الكنيسة وسلطانها وأقروا مبدأ فصل الدين عن الدولة . ان هذا الكاتب يحاول أن يستخدم هذا المبدأ في دراسته للتاريخ العربي والاسلامي حتى يستطيع في النهاية أن يصل الى نتيجة يريدها وهي أن الاسلام كدين بعيد كل البعد عن تحريك الفتوحات الاسلامية واذكاء جذوتها ، وأن المحرك الأساسي لها

هو النظام السياسي الذي أقامه الرسول ﷺ ومن بعده خلفاؤه ، وبهذه النتيجة يصل الى وصف الدولة الاسلامية بالدولة الاستعمارية التي يكون طابعها دائما اكتساح مواطن الشعوب واحتلال أراضيها .

ان كلام فيليب حتي في هذا الموضوع مردود من حيث أن الأمة الاسلامية بجميع طوائفها وشعوبها لم تعرف شيئا اسمه دولة وآخر اسمه دين ، وانما عرفت نظاما يضم الاثنين على حد سواء ، والأمة الاسلامية أيضا لم تعرف الا الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامي الذي يتخذ من القرآن دستورا يستمد منه كل التعاليم الدينية والدنيوية ، وعلى أساس ذلك انطلقت الفتوح الاسلامية وجاب المسلمون كل بقاع المعمورة ، فالمحرك في الفتوح الاسلامية ليس أمرا سياسيا عسكريا وانما كان أمرا الهيا بايصال الدعوة الاسلامية الى كل الشعوب وتكسير جميع الحواجز التي تقف في طريقها ، ولذلك كان النصر حليفهم في معظم المواقع لأن الله معهم والايمان يعمر قلوبهم ، وعلى العكس من ذلك لو كانوا ينفذون أمرا سياسنيا أو عسكريا ليس لديهم اقتناع به فقد تقع الكارثة وتحل الهزيمة ، وهذا يتضح في صراع الدولتين الفارسية والبيزنطية

سنين طويلة دون أن يتحقق لاحداهما الغلبة على الأخرى رغم ما توفر للاثنتين من عدد وعدة ومن تنظيم سياسي محكم ، ولكن عندما ظهر الاسلام استطاع أن يكتسح الاثنتين معا رغم أنه أقل منهما عددا وعدة ، وذلك أمر حير الباحثين والمفكرين الذين ذهلوا أمام عظمة تلك الانتصارات التي حققها المسلمون وكان يغلب على الظن أن الهزيمة ستلحق بهم نتيجة لعدم التكافؤ .
فما هو يا ترى السر في هذه الانتصارات وتلك الفتوحات ؟ أهو القرار السياسي الذي أصدرته الدولة الاسلامية وطبقه المسلمون ؟ أم هو القرار الذي نزل به القرآن واستقر في قلوب المسلمين وسرى في دمائهم ؟ ان الجواب واضح بكل تأكيد ولا ينكره الا كل جاحد لفضل الاسلام وتأثيره في سلوك أتباعه من أمثال فيليب حتي ومن شايعه من الذين غفلوا عن الحقائق فلم يجدوا ملجأ الا أن ينسبوا هذا الانتصار للنظام السياسي ويبعدوه عن الدين ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[1] .

---

(1) الآية 32 من سورة التوبة .

مناقشة الاتجاه الرابع
الجهاد وظروف العصر

يعتمد هذا الاتجاه الذي يتزعمه المستشرق الانجليزي اندرسون على اضفاء طابع العصرية على موضوع الجهاد ، وذلك انطلاقا من الواقع المعاش الذي يرى التسليم بالأفكار العصرية والحديثة والقبول بها حتى ولو كانت خاطئة أو على حساب أفكار قديمة أكثر منها صحة ، وذلك ناتج من دراسة نفسية المسلمين وخصوصا الشباب منهم الذين جرفهم تيار الفكر الغربي وجذبهم باضفاء طابع العصرية على كل الأفكار التي يلقي بها في نفوسهم .

إن أول ما يراه هذا المستشرق هو أن الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على قاعدة تتغير الأحكام بتغير الأزمان ، وهذا التعليل غير صحيح لأن قاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان ليست ـ كما ذهب الأصوليون ـ عامة في كل الأحكام ، وإنما تدور غالبا فيما يتعارف عليه الناس من معاملاتهم اليوم دون أن يتعارض ذلك مع نص صريح أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، أما قضية الجهاد فليست من قبيل الأحكام التي

تخضع للعرف أو لظروف العصر ، إنه ماض الى يوم القيامة ، فقد شرع في بادىء الأمر لرد الظلم والاعتداء الواقع على الجماعة البشرية المؤمنة من جماعة بشرية أخرى كافرة ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير** ﴾[1] ، ثم بين الله للمسلمين أنه لا يحل لهم أن يقاتلوا أحدا الا من بدأ بمقاتلتهم والاعتداء عليهم ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين** ﴾[2]، ثم أبيح للمسلمين أن يقاتلوا من أجل نصرة المظلومين والدفاع عن المضطهدين حتى لا تكون هناك فتنة تهدد الفرد في حريته ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[3] ، ثم كانت الفتوحات الاسلامية ـ الذي كان فرض الجهاد أساسها الأول ـ تبليغا للدعوة الالهية الخاتمة للشعوب ، وتكسيرا للجدار الحاجز بين هذه الدعوة والشعوب ، وحماية لحرية الفرد الدينية التي حرم منها تحت حكم القياصرة والأكاسرة وسيطرة المذاهب الفاسدة الأخرى .

هذا هو فرض الجهاد في المنظور الاسلامي فهل في ذلك

---

(1) الآية 39 من سورة الحج .
(2) الآية 190 من سورة البقرة .
(3) الآية 39 من سورة الأنفال .

ما يخل بروح العصر كما يدعي اندرسون ، ألم تدّع المدنيات والدساتير الحديثة أنها تقدس وتصون حرية الفرد وتضمن له جميع حقوقه ، فما بال الانسان يضطهد في بقاع كثيرة من العالم ، في فلسطين ولبنان والفلبين وأمريكا وجنوب افريقيا ، أين تلك المواثيق والعهود والاعلانات التي توقع كل يوم في أروقة الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الأخرى الدولية وغير الدولية ، أهي عاجزة عن حماية هذا الانسان الذي يضطهد كل يوم ، أم أن تلك المواثيق انما جعلت لمجرد الدعاية والتضليل وذر الرماد في العيون فقط . إن الاسلام لا يعرف التضليل والمخادعة وحين فرض الجهاد ربطه بأسباب ودواع يمكن أن تحدث في كل زمان ومكان ، وها هي الأسباب التي شرع الجهاد من أجلها تتوفر اليوم في الكثير من بقاع العالم ، تتوفر في فلسطين حيث حرم هذا الشعب من العيش فوق أرضه وطرد من بلاده ودياره وسلبت خيراته ، وتتوفر في الفلبين حيث الاضطهاد الصليبي الذي يسلب من الفلبيني حرية المعتقد ، فالمسلمون يموتون هناك بالآلاف نتيجة الابادة الجماعية التي تقوم بها حكومة ماركوس ، وتتوفر في الولايات المتحدة حيث يحرم الانسان من كل مقومات العيش ويطارد من مكان الى آخر لا لشيء إلا لأنه هندي أحمر صاحب الأرض الأصلي ، ويحرم

الزنجي أيضا من كثير من الامتيازات والحقوق لا لشيء الا لأنه أسود ، ومثل ذلك الحـال في جنـوب افـريقيا حيث يضطهـد الافريقيون أصحاب الأرض الأصليون ، وتسلـب خيراتهـم من قبـل حفنـة من البيض ليس لهـا حق في تملك الأرض او التمتع بها .

ها هي شروط الجهاد تتوفر في الكثير من الأماكن ، وها هو الظلم قد أحاط بالانسان من كل جانب ، والاسلام ينادي برفع الظلم ورد الاعتداء فهل ذلك لا يتفق مع روح العصر ، وها هي الحرية قد انتزعت والكرامة قد انتهكت والاسلام يدعو لحرية الفرد وكرامته ، ويوجب الجهاد مع أجلها فهـل في ذلك ما يناقض روح العصر ، وها هي المسـاواة قد انعدمـت بـين الأفـراد واستحـل التمييز العنصري والمذهبـي والطائفـي والعرقي ، والاسلام يدعو الى المساواة والاخاء والعدالـة بـين جميع الأجناس والطوائف والألوان ، ويوجب القتال من أجل فرض هذا المبدأ فهل في ذلك ما يخل بروح العصر ، كلا إن دواء الانسانية اليوم هو الجهاد ، ووسيلة الأفراد لنيل حقوقهم هو الجهاد ، ذلك أنه أمر شرعه الباري عز وجل وهـو خالـق البشر وهو الخبير بأمراضهم وعلاجها .

إن محاولة اندرسون اضفاء طابع العصرية على مفهوم الجهاد واتخاذ ذلك وسيلة لالغاء فرضيته أمر لا يوجد له ما يبرره ، بل على العكس كان اضفاء طابع العصرية على الجهاد أمر يثبت هذا الفرض ويدعمه ويجدد الدعوة الى الرجوع الى هذا الفرض ابراء للبشرية من سقامها واثباتا لحق الفرد في الحياة الحرة الكريمة ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [1] .

هذا في ما يتعلق بالجانب الأول من كلام اندرسون ، أما الجانب الثاني وهو أن الجهاد وسيلة لحمل الناس على الاسلام ، وأوضاع الحرية ورقي العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة ، فذلك أمر سبق الرد عليه وسبق تناوله بالبحث والمناقشة ولا حاجة لاعادته ، ذلك أنه يدخل تحت الاتجاه الأول الذي يرى بأن الاسلام فرض بالسيف .

الجهاد وميثاق الأمم المتحدة : ـ

أما الجانب الثالث وهو التناقض بين ميثاق الأمم المتحدة

---

(1) الآية 70 من سورة الاسراء

والجهاد فهو كلام مردود من عدة وجوه : -

أولاً : إن الجهاد تشريع الهي فرضه الله تعالى ، وميثاق الأمم المتحدة تشريع بشري وضعته عقول بشرية قاصرة ، وشتان بين تشريع الخالق والمخلوق ، فالخالق يشرع وهو خبير بأحوال المخلوقين عارف بخبايا نفوسهم ، أما المخلوق فانه يشرع وفي نفسه تأثيرات متعددة تجعل خروج التشريع بدرجة الكمال أمرا مستحيلا .

ثانيا : إن ميثاق الأمم المتحدة جاء كرد فعل للحروب الواقعة في تلك الفترة ، وحاول أن يضع أسسا لاقرار السلام الدولي تمهيدا لاطفاء نار الحرب ، ولا شك أن موقف الاسلام من الحروب واضح وقد سبقت الاشارة اليه ، فهو يحرم الحرب التي تقوم من أجل استعمار الشعوب وسلب خيراتها ، وهو يحرم أيضا الحرب التي تقوم على اختلاف سياسي أو مذهبي أو عرقي ، ويقر فقط الحرب من أجل رد الاعتداء واقرار الحرية والمساواة وضمان كرامة الشعوب وهوما يمكن أن أقول ان الميثاق قد عبر عنه في الديباجة وفي الفقرة1 من المادة 1 حين قال : (وأن نكفل بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ألا

تستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة)[1] ، وبذلك أقول ان الميثاق لم يأت بجديد ، وأن الاسلام قد سبقه في تقرير هذا المبدأ السامي .

ثالثا : لقد ورد في الديباجة الاشارة الى أن الجميع يجب أن يعملوا على اقرار مبدأ السلام والتعايش السلمي ، وورد ذلك أيضا في الفقرة 1, 2 من المادة 1 ، والفقرة 3, 4 ، ، من المادة الثانية[2] ، وهذا المبدأ سبق الاسلام في تقريره بل العمل به حيث يقول القرآن الكريم : **﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾**[3] **﴿ وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾**[4] **﴿ فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾**[5] . وهكذا فانه لا يوجد تعارض بين أحكام الاسلام في الحرب وبين ميثاق الأمم المتحدة وانما توجد أسبقية الاسلام في تقرير ذلك

---

(1) نقلا عن/ النظام الدولي والسلام العالمي ـ اينيس كلود ـ تر . د. عبد الله العريان دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ 1964 م ـ الملحق الخاص بميثاق الأمم المتحدة ص 654.

(2) نفس المصدر السابق .

(3) الآية 208 من سورة البقرة .

(4) الآية 61 من سورة الأنفال .

(5) الآية 90 من سورة النساء .

والأسبقية تقتضي التفضيل قطعا ، فضلا عن أن المبادىء الاسلامية لها قداستها واحترامها ، على حين أن المبادىء البشرية لا تلقى الاحترام الا بمقدار ما يعود على الناس من الزامهم بها من فوائد ومنافع ، ولذلك تنتهك هذه القوانين كل يوم ولا تنفع القرارات في منع هذا الانتهاك .

رابعا : إن الاسلام حين وضع أحكام الجهاد وما يتعلق به من أمور الحرب والسلم قام أيضا بتطبيق تلك الأحكام وتنفيذها على أرض الواقع ، وقد سجلت المصادر التاريخية أروع الحوادث عن محافظة الاسلام على السلم ودوره في حقن الدماء والمحافظة على النفس البشرية ، أما الأمم المتحدة فقد وضعت الميثاق ولم تضع ما يضمن تطبيقه واستمراريته ، وها نحن اليوم نرى السلام الدولي مهددا في أجزاء كثيرة من العالم ، حيث الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين ، والعبث الأمريكي بمقدرات الشعوب واللعب بمصيرها ، والتدخل الأجنبي في كثير من الأقطار ، كل ذلك يجري دون أن يحرك ميثاق الأمم المتحدة وواضعوه والموقعون عليه ساكنا ، أو يعملون أي شيء يمكن أن يحفظ السلام الدولي أو أن يكف الدول الكبرى عن بطشها ، ولذلك أقول انه لا مجال للمقارنة

بين أحكام الاسلام في الجهاد وبين ميثاق الأمم المتحدة ، ذلك أن الميثاق عبارة عن حبر على ورق ووسيلة للضغط على الشعوب الصغيرة التي تحاول أن تقف أمام طغيان الدول الكبرى ، وذلك بالطبع شيء لم يعرفه الاسلام فلم تكن فيه قوة كبرى ولا قوة صغرى ، وإنما وجدت فيه أمة واحدة ذات نظام وحضارة خالدة استطاعت أن تتكيف مع مختلف الحضارات ، وأن تعيش معها على أساس احترام حرية الفرد وكرامته وضمان حقوقه .

وبناء على ما تقدم أقول : إن الجهاد لا يتعارض مع الأحكام النظرية الجيدة في الميثاق ، وإنما يتعارض الجهاد مع الثغرات التي وجدت في الميثاق وحدثت بعد توقيع الميثاق ، وهي الثغرات التي كانت سببا في اهانة الانسان وسلبه لحقوقه وحريته ، وكانت سببا في تقسيم العالم الى دول كبرى ودول صغرى وعالم ثالث وغير ذلك ، فكل ذلك لا يقره الاسلام ولا يقيم له وزنا ويفرض الجهاد من أجل منع ذلك .

الجهاد واعلان حقوق الانسان : ـ

ومثل ما قيل عن الجهاد وميثاق الأمم المتحدة يمكن أن يقال عن الجهاد واعلان حقوق الانسان ، ذلك أن الميثاق

والاعـلان ينبعـان من منبـع واحـد ، ويتسـاويان في الهـدف والنتيجة . إلا أنه عند الحديث عن اعلان حقوق الانسان يجب ملاحظة الآتي :

أولا : إن التناقض واضح في الاعلان منـذ البـداية ، فبينما تعتـرف المادة الأولى بأن جميع النـاس يولـدون أحـرارا متسـاوين في الكرامـة والحقـوق ، وكلهـم قد وهـب الرشـد والضمير وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الاخـاء[1] ، بينما تقول المادة الأولى ذلك نرى في الديباجة التي تسبقها اعترافا واضحـا بالعبـودية والاسـتعمار واحتـلال الأراضي وحـكم الآخرين بالقوة ، حيث ورد في الديباجة أن على جميع الأعضاء العمل على صيانة هذه الحقوق والحريات : (والمحافظة عليها محافظة فعالة سواء بين شعوب الدول الأعضاء نفسها أو بـين شعوب البلاد الواقعـة تحـت حكمهـا)[2] وفي هذا التنـاقض الواضح والاعتراف بالعبودية والاستعمار للبشر والأرض أقول اني أوافق المستشرق اندرسون في أن الجهاد يتناقض مع اعلان

---

(1) قصة الأمم المتحدة ـ ليونارد . س. كنـوورذي ـ تر . محمد ابراهيم زكي ـ مؤسسة سجل العرب ـ 1964 م ـ الملحق رقم 3 الخاص باعلان حقوق الانسان ـ ص 220 .

(2) نفس المصدر السابق .

حقوق الانسان حيث ان الجهاد فرض وشرع من أجل ضمان حرية الانسان وليس من أجل استعباده .

ثانيا : تقرر المادة الأولى أن جميع الناس يولدون أحرارا وهو أمر فطري طبيعي اعترفت به جميع الأمم والأديان ، وقد نقل عن (أوليان) الروماني قوله : (لا يجوز في القانون الطبيعي أن يولد الناس الا أحرارا ، وإنه باسم هذا القانون لن يكون لنا الا اسم واحد هو الأناس ، إن العبيد وان عدوا موجودين في نظر القانون ـ الروماني ـ ليسوا موجودين في نظر القانون الطبيعي الذي يقرر أن الناس جميعا متساوون)[1] ، وحين جاء الاسلام أكد هذا المبدأ في كثير من المناسبات لعل أشهرها قول عمر رضي الله عنه : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)[2] ، وبناء على ذلك لم يأت الاعلان بجديد وليس في تشريع الجهاد ما يناقض هذا المبدأ .

ثالثا : حين استعراض بقية مواد الاعلان نجد أن الحقول التي استهدفها الاعلان قد أقرها الاسلام قبل ذلك

---

(1) الاسلام وحقوق الانسان ـ زكريا البري ـ مجلة عالم الفكر ـ عدد مارس 1971 م .

(2) اخبار عمر ـ علي الطنطاوي/ ناجي الطنطاوي ـ ط 1 ـ دار الفكر ـ دمشق ـ 1959 م ـ ص 182 وما بعدها .

بكثير واعترف بها وطبقها ، فقد كفل الاسلام الحرية الدينية ﴿ لا اكراه في الدين ﴾ [1] ، وكفل الحرية الفكرية بل أمر بإعمال النظر والعقل بحرية كاملة ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ [2] وكفل الحرية الشخصية التي بها يكون الانسان حرا في تصرفاته وأعماله ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [3] ، وكفل للمرأة والرجل على حد سواء اختيار شريكه في الحياة ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ [4] ، وفرض المساواة بين جميع الأجناس والألوان دون تمييز عنصري أو عرقي ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [5] ، وحرم التعرض للانسان بأذى بغير حق ﴿ كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ﴾ [6] ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا

---

(1) الآية 256 من سورة البقرة .
(2) الآية 46 من سورة الحج .
(3) الآية 46 من سورة فصلت .
(4) الآية 232 من سورة البقرة .
(5) الآية 13 من سورة الحجرات .
(6) رواه الترمذي في كتاب البر .

بالحق ﴾ [1] وكفل الاسلام أيضا للانسان حرية الاشتراك في تسيير شئون بلاده ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ [2] وكفل له أيضا حرية التعبير والنقد ، وفي ذلك يقول أبو بكر رضي الله عنه بعد أن تمت مبايعته : (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم . فان رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فان عصيته فلا طاعة لي عليكم) [3] ، وفوق كل ذلك أمر الاسلام بالعدل بين الناس في جميع الأمور المتعلقة بحياتهم ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [4] . لقد كفل الاسلام للانسان كل هذه الحقوق واعترف بكل هذه الأشياء ، وحين شرع الجهاد لم يكن فيه ما يعارض هذه الحقوق بل كان فيه الوسيلة التي تحققها وتثبتها وتدافع عنها ، واذا ثبت ذلك فليس هناك تعارض بين الجهاد واعلان حقوق الانسان على الاطلاق .

---

(1) الآية 33 من سورة الاسراء .

(2) الآية 38 من سورة الشورى .

(3) الكامل - ابن الأثير - ج 2 - ص 224

(4) الآية 90 من سورة النحل .

رابعا : الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرد منه الاتهام على الاسلام في هذا الموضوع هو ما ورد في المادة الرابعة من أنه لا يجوز استعباد أي انسان أو استرقاقه فالرق والاتجار بالعبيد محرمان في كافة أشكالهما ، فالبعض يتهم الاسلام بأنه أباح الرق ، والبعض الآخر يرى أن الجهاد كان سببا في وجود رقيق الحرب ، والحقيقة التي يمكن أن تقال في هذا الموضوع هو أنه لا توجد آية واحدة في القرآن تبيح الرق والاستعباد ، وليس من الصحيح أن ينسب نظام الرق للاسلام ، فالرق نظام وجد قبل الاسلام ، وعرفته الأمم قبل ظهور الاسلام بكثير ، وحين ظهر الاسلام فتح أمام العبيد جميع أبواب الحرية وأدخل عتق الرقبة وتحرير العبد في كثير من المناسك والقرب ، وجعلها تطهيرا للكثير من الأخطاء والآثام ، فقد جعل عتق الرقبة في كفارة اليمين : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة** ﴾[1] وجعلها في كفارة الظهار ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ [2] وجعلها في كفارة

---

(1) الآية 89 من سورة المائدة .

(2) الآية 3 من سورة المجادلة .

القتل ﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) [1] وجعلها كفارة للفطر بالجماع في رمضان -، فقد روى أبو هريرة أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال :(هلكت يا رسول الله ، قال : ما شأنك ؟ قال : وقعت على امرأتي في رمضان ، قال : فهل تجد رقبة تعتقها ، قال : لا . . . الخ)[2]، وجعل عتق الرقبة وجها من الوجوه التي تصرف فيها الزكاة : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم و في الرقاب والغارمين و في سبيل الله وابن السبيل** ﴾ [3] وجعل تحرير العبد قربة من القرب التي بها يصل الانسان الى ربه ﴿ **فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة** ﴾ [4] ﴿ **وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين و في الرقاب** ﴾ [5] ، ويقول الرسول ﷺ : (من اعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار) [6] . وهكذا لم يترك الاسلام منفذا الا وفتحه أمام العبيد للحرية ، ولم

---

(1) الآية 92 من سورة النساء .
(2) رواه البخاري في أبواب/ الصيام/ الهبة/ النفقات/ الكفارات .
(3) الآية 60 من سورة التوبة .
(4) الآية 13 من سورة البلد .
(5) الآية 177 من سورة البقرة .
(6) رواه البخاري في كتاب الكفارات .

يترك وسيلة لانهاء الرقيق الا حث عليها وأوجبها ، فكيف بعد ذلك يمكن القول إن الاسلام دين الرقيق ، أو كيف يمكن أن يقال ان الجهاد قد كان الوسيلة للرقيق والحال أنه نظام عرف قبل الجهاد وقبل الاسلام أيضا[1] .

---

(1) الاسلام وحقوق الانسان ـ زكريا البري ـ مجلة عالم الفكر .

شهادات المنصفين

في نهاية هذا الفصل الذي استعرضت فيه اتجاهات المستشرقين بوجه عام من انتشار الاسلام مع نقدها ، أرى أنه لا بأس من أن أثبت بعض آراء المنصفين من هؤلاء المستشرقين ، فضلا عما أوردت منها سابقا ، وكل هذه الآراء المنصفة لا تعنينا كمسلمين يؤمنون بدينهم ، ولا يخالطهم ريب في صدق مبادئه وعدالة تعاليمه ، وإنما الغاية من ايراد هذه الآراء هو الرد على المستشرقين من أقوال بعضهم ، ولعل في ذلك ما يصحح مفاهيم بعض المسلمين الذي تأثروا بالمستشرقين ، ورددوا مزاعمهم دون فهم أو ادراك واع لأهدافها .

يقول توماس كارلايل في كتابه الأبطال حين الحديث عن النبي ﷺ : (إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم . إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل سيفه ليقاتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته . فاذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن

يقدروا عليها) [1] . ويقول (جيمس متشنر) : (اعتقد الغرب أن توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون الى السيف ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأي . فالقرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة والدليل قوي على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية) [2] . وتقول المستشرقة (لورافيشيا فاغليري) : (إن أحدا لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذي يمهد السبيل أمام الاسلام ـ على العكس ـ ففي الأصقاع التي كانت في يوم من الأيام دولا اسلامية تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنتسب الى أديان أخرى ، وعملت في أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية ، ومع ذلك فان هذه الحكومات وتلك المنظمات لم توفق الى زحزحة الاسلام واقصائه عن حياة الشعوب الاسلامية) [3] . ويقول (جوستاف لوبون) : (لم ينتشر القرآن بالسيف . . . . بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب) [4] . ويقول أيضا : (سيرى

---

(1) المستشرقون والاسلام ـ زكريا هاشم ـ ص 43, 44.
(2) نفس المصدر السابق ـ ص 50.
(3) دفاع عن الاسلام ـ لورافيشيا فاغاري ـ ص 40.
(4) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ تر . عادل زعيتر ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ص 8.

القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم)[1] .

ويقول (الكونت هنري دي كاسترو) : (فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب)[2] .

وبعد ، فهذه بعض آراء المنصفين من المستشرقين أوردتها دون تعليق عليها لأنها غنية عن التعليق ، وأطمع أن أكون فيما قدمت في هذا الفصل قد كشفت النقاب عن اتجاهات المستشرقين من الاسلام من حيث انتشاره وايمان الناس به ، وأكرر ما ذكرته في المقدمة من أن الموضوع واسع جدا ، والآراء فيه لا حصر لها ، وإنما حاولت جمع ما استطعت من الآراء ، ولعلها تحقق الغاية في رسم الاطار العام لموقف المستشرقين من ظاهرة انتشار الاسلام .

---

(1) نفس المصدر السابق . ص 145
(2) الاسلام في قفص الاتهام ـ شوقي أبو خليل ـ ص 126

خاتمة

وبعد ، فما هي أهم نتائج هذه الدراسة وما المقترحات التي ترشد اليها . ان النتائج التي يمكن استنباطها هي :

أولاً : يختلف الاسلام عن غيره من الأديان التي خلت قبله بعمومه وأنه خاتم الرسالات الالهية .

ثانياً : تعد المعجزة القرآنية الخالدة ، وتعاليم الكتاب العزيز التي تواثم الفطرة الانسانية من أهم دلائل صلاحية الاسلام الدائمة للتطبيق .

ثالثاً : كان الايمان بعالمية الدعوة هو الحافز الأول لخروج العرب من شبه الجزيرة للتبليغ والانذار دون أن يكرهوا أحدا على الدخول في الاسلام لأنه لا اكراه في الدين .

رابعاً : نشأ الاستشراق في رعاية الكنيسة ، وخضع لسياسة علمية مدروسة غايتها غزو المسلمين فكريا ، واخضاعهم لقوى البغي والاستعمار .

خامساً : كان انتشار الاسلام السريع في فترة زمنية

وجيزة مرده الى وضوح مبادئه ، وأخلاق دعاته ، وظروف العالم السياسية والاجتماعية والفكرية .

سادساً : تعددت اتجاهات المستشرقين في تعليل ظاهرة انتشار الاسلام ، ولكن يجمع بينها كلها أنها لا تقوم على الموضوعية ، وتحاول تلمس الشبهات للتشويه والتزييف .

سابعاً : إن ما يذهب اليه عامة المستشرقين من أخذهم بالمناهج العلمية في دراسة الاسلام وانتشاره وحضارته غير مسلم ، ويدحضه تلك الآراء المبثوثة في دراساتهم عن الاسلام والمسلمين .

ثامناً : لقد اعترف بعض المستشرقين بالحق في انتشار الاسلام وان لم يؤمنوا بهذا الدين ، وهو اعتراف يزيد من دفع تلك الاتجاهات المنحرفة في فهم الاسلام وتاريخه .

أما ما يمكن أن ترشد اليه هذه الدراسة من اقتراحات فهي تتلخص في الآتي :

1- ضرورة اغناء مكتباتنا بالأبحاث والمقالات التي تصدر في معظم بقاع العالم عن الاسلام والمسلمين .
2- من المستحسن توجيه الدراسات العليا في قسم الدراسات

الاسلامية الى دراسة الفكر الاسلامي والتيارات المختلفة التي حاولت الامتزاج به .

3 ـ ضرورة تعريف طلابنا عن طريق مناهجهم التعليمية عن فكرة الغربيين عنهم وعن دينهم وعن تراثهم وحضارتهم .

4 ـ أرى أن تتبنى جامعة الفاتح طرح فكرة انشاء دائرة معارف اسلامية ، يكتبها كتاب مسلمون ومن جميع الأقطار الاسلامية المختلفة ، حتى تعطي صورة حية للاسلام تمحو تلك الصورة المشوهة التي عرضتها دائرة المعارف الاسلامية التي كتبها المستشرقون .

ولا يسعني في ختام هذه الدراسة الا أن أكرر ما أسلفت الاشارة اليه وهو أن الموضوع واسع الأرجاء ، كثير الآراء ، وقد بذلت ما استطعت ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، ولا أعتقد أن عملا بشريا يخلو من هنات ، ولعلها تكون معدودة ، ويشفع لي أنها أول محاولة في مجال البحث العلمي وأطمع أن تكون البداية موفقة ومن سار على الدرب وصل .

والحمد لله أولا وأخيرا

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا : الكتب العربية

1 ـ آثار الحرب في الفقه الاسلامي ـ وهبة الزحيلي ـ ط 3 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1981.

2 ـ أجنحة المكر الثلاثة ـ عبد الرحمن حسن الميداني ـ ط 1 ـ دار القلم ـ دمشق ، بيروت ـ 1975 م .

3 ـ أوربا والاسلام ـ عبد الحليم محمود ـ مطابع الأهرام التجارية ـ القاهرة .

4 ـ الأحكام السلطانية ـ الماوردي ـ ط 2 ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 1966 م .

5 ـ أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام ـ عبد الكريم زيدان ـ ط ٢ ـ جامعة بغداد ـ 1976م .

6 ـ أطلس التاريخ الاسلامي ـ هاري هازارد ـ تر. إبراهيم زكي خورشيد ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة .

7 ـ الأم ـ الشافعي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ 1973 م .

8 ـ امبراطورية العرب ـ جان باجوت جلوب ـ تر. خيري حماد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1966 م .

9 ـ الأموال ـ ابن سلام ـ تحق . محمد خليل هراس ـ دار الفكر ومكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ 1975 م .

10 ـ أعلام الموقعين ـ ابن القيم ـ دار الجبل ـ بيروت ـ 1973م .

11 ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ط ٣ ـ بيروت ـ 1969 م .

12 ـ إنسانية الاسلام ـ مارسيل بوازار ـ تر. عفيف دمشقية ـ دار الآداب ـ بيروت ـ 1980 م .
13 ـ إنتاج المستشرقين ـ مالك بن نبي ـ مكتبة عمار ـ القاهرة ـ 1970 م .
14 ـ انتشار الاسلام والدعوة الاسلامية ـ سامي محمود ـ المكتبة العصرية ـ بيروت .
15 ـ انتشار الاسلام في القارة الافريقية ـ حسن إبراهيم ـ ط 2 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1963 م .
16 ـ أساليب الغزو الفكري للاسلام ـ علي جريشة وآخر ـ ط ١ ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ـ 1977م .
17 ـ أسباب نزول القرآن ـ أبو الحسن الواحدي ـ تحق . السيد صقر ـ دار الكتاب الجديد ـ لجنة إحياء التراث الاسلامي ـ 1969م .
18 ـ الاسلام ـ أحمد شلبي ـ ط ٥ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1977م .
19 ـ الاسلام دعوة عالمية ـ عباس محمود العقاد ـ ط 1 ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974 م .
20 ـ الاسلام وأهل الذمة ـ علي الخربوطلي ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ 1969 م .
21 ـ الاسلام وحركة التاريخ ـ أنور الجندي ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة ـ 1968 م .
22 ـ الاسلام والحضارة الانسانية ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974 م .
23 ـ الاسلام والحضارة العربية ـ محمد كردعلي ـ ط 3 ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .

24 ـ الاسلام والحضارة الغربية ـ محمد محمد حسين ـ ط 1 ـ دار الارشاد ـ بيروت ـ 1969 م .

25 ـ الاسلام نظام إنساني ـ مصطفى الرافعي ـ ط 2 ـ مكتبة الحياة ـ بيروت .

26 ـ الاسلام في وجة التغريب ـ أنور الجندي ـ دار الاعتصام ـ القاهرة .

27 ـ الاسلام في عظمته الأولى ـ موريس لومبار. تر. يس الحافظ ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ 1977 م .

28 ـ الاسلام في قفص الاتهام ـ شوقي أبو خليل ـ ط ٣ ـ دار الفكر ـ دمشق ـ 1977 .

29 ـ الاسلام في الشرق الأقصى ـ قيصر أديب مخول ـ تر. نبيل صبحي .

30 ـ الاسلام ضرورة عالمية ـ زاهر عزب الزغبي ـ الهيئة المصرية للتأليف ـ القاهرة ـ 1971 م .

31 ـ الاسلام والثقافة الغربية ـ أنور الجندي ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة .

32 ـ أسلوب الدعوة في القرآن ـ محمد حسين فضل الله ـ ط 2 ـ دار الزهراء ـ بيروت ـ 1972 م .

33 ـ الاستشراق والمستشرقون ـ مصطفى السباعي ـ ط 2 ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ 1979 م .

34 ـ أخبار عمر ـ الطنطاويين ـ ط 1 ـ دار الفكر ـ دمشق ـ 1959 م .

35 ـ آيات الجهاد في القرآن الكريم ـ كامل سلامة الدقس ـ دار البيان ـ الكويت ـ 1972 م .

36 ـ بداية المجتهد ـ ابن رشد ـ ط 3 ـ مطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ـ 1960 م .
37 ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ الفيروزابادي ـ تحق. محمد النجار ـ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ 1387 هـ .
38 ـ الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله القرطبي ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ 1967 م .
39 ـ الجهاد ـ أحمد الحوفي ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ 1970 م .
40 ـ جواهر الاكليل ـ الجزيري ـ ط دار الفكر ـ بيروت .
41 ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدي ـ ط 3 ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ 1971 م .
42 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الشنتناوي وآخرون ـ انتشارات جهان ـ تيران .
43 ـ الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد ـ تر. حسن ابراهيم وآخر ـ ط 3 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1970 م .
44 ـ دفاع عن الاسلام ـ لورافيشيا فاغليري ـ تر. منير البعلبكي ـ ط 2 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1963 م .
45 ـ الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية ـ رودي بارث ـ تر. مصطفى ماهر ـ القاهرة .
46 ـ دراسات في حضارة الاسلام ـ هاملتون حب ـ تر. إحسان عباس وآخرون ـ ط 2 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1974 م .
47 ـ دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ السيد عبد العزيز سالم ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية .

48 ـ الوحدة الاسلامية ـ محمد أبو زهرة ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ 1971 م .
49 ـ حياة محمد ورسالته ـ مولانا محمد علي ـ تر. منير البعلبكي ـ ط 3 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1976 م
50 ـ الحرب والسلام في شرعة الاسلام ـ مجيد خدوري ـ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت ـ 1973 م
51 ـ حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوي ـ دار المعرفة ـ بيروت .
52 ـ حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ تر. عادل زعيتر ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .
53 ـ الحريات العامة ـ عبد الحكيم العيلي ـ دار الفكر العربي ـ بيروت ـ 1974 م .
54 ـ الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت .
55 ـ الكامل ـ ابن الأثير ـ دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ـ 1965 م .
56 ـ لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة الخطيب ـ ط 2 ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1977 م .
57 ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ط 5 ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ 1964 م .
58 ـ مواهب الجليل ـ الحطاب ـ دار الفكر ـ بيروت .
59 ـ موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ أحمد شلبي ـ ط 7 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1977 م .
60 ـ من روائع حضارتنا ـ مصطفى السباعي ـ ط 2 ـ المكتب الاسلامي ـ دمشق ـ 1977 م .

61 ـ المنتقى من دراسات المستشرقين ـ صلاح الدين المنجد ـ ط 2 ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ 1976 م .

62 ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ـ مجموعة من المستشرقين ـ مطابع بريل ـ ليدن ـ 1965 م .

63 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار مطابع الشعب ـ القاهرة .

64 ـ معالم الشريعة الاسلامية ـ صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1975 م .

65 ـ المسلمون في العالم اليوم ـ عبد الرحمن زكي ـ مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ـ 1960 م .

66 ـ مسند الامام أحمد ـ أحمد بن حنبل ـ ط دار صادر والمكتب الاسلامي ـ بيروت .

67 ـ المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ط 3 ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ 1946 م .

68 ـ المستشرقون والاسلام ـ عرفان عبد الحميد ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ـ 1979 م .

69 ـ المستشرقون والاسلام ـ زكريا هاشم ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ 1965 م .

70 ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامي ـ علي حسني الخربوطلي ـ سلسلة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ عدد 111 ـ مطابع الأهرام التجارية ـ القاهرة ـ 1970 م .

71 ـ المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ـ محمد صالح البنداق ـ دار الآفاق الجديد ـ بيروت ـ 1980 م .

72 ـ المغني ـ ابن قدامة ـ مكتبة الجمهورية العربية ـ القاهرة .

73 ـ النهاية ـ الطوسي ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .
74 ـ نيل الأوطار ـ الشوكاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة .
75 ـ النظام الدولي والسلام العالمي ـ اينيس كلود ـ تر. عبد الله العريان ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ 1964 م .
76 ـ نظام الاسلام ـ وهبة الزحيلي ـ ط 2 ـ منشورات قاريونس ـ بنغازي ـ ليبيا ـ 1978 م .
77 ـ نظرات استشراقية في الاسلام ، محمد غلاب ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة .
78 ـ صحيح مسلم ـ الامام مسلم ـ ط 1 ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ 1955 م .
79 ـ العقد الفريد ـ إبن عبد ربه ـ تحقيق. أحمد أمين وآخرون ـ ط 3 ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ 1965م .
80 ـ العقيدة والشريعة في الاسلام ـ أجناس جولد زيهر ـ تر . محمد موسى وآخرون ـ دار الكاتب المصري ـ القاهرة ـ 1946م .
81 ـ العرب ـ إدوار عطية ـ تر . محمد قنديل ـ الشركة العربية للطباعة ـ القاهرة ـ 1961 .
82 ـ العرب وظهور الاسلام ـ محمد النجار ـ الجامعة الاسلامية ـ البيضاء ليبيا .
83 ـ فجر الاسلام ـ أحمد أمين ـ ط 9 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1946 .
84 ـ في الثقافة الاسلامية ـ محمد الدسوقي ـ ط 2 ـ منشورات جامعة الفاتح ـ طرابلس ليبيا ـ 1977م .
85 ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ محمد البهي ـ ط 6 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1973 م .

86 ـ فقه السنة ـ السيد سابق ـ ط 1 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1977 م .
87 ـ فتوح البلدان ـ البلاذري ـ تحق . صلاح الدين المنجد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .
88 ـ فتوح مصر وأخبارها ـ أبو القاسم بن عبد الحكم ـ تحق . عبد المنعم عامر ـ لجنة البيان العربي ـ القاهرة .
89 ـ فتح الباري ـ العسقلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 1959 م .
90 ـ قاموس المورد ـ منير البعلبكي ـ ط 13 ـ دار العلم للملايين ـ 1979 م .
91 ـ القاموس المحيط ـ الفيروزابادي ـ ط 2 ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 1952 م .
92 ـ قصة الأمم المتحدة ـ ليونارد . س . كنوورذى ـ تر . محمد ابراهيم زكي ـ مؤسسة سجل العرب ـ 1964 م .
93 ـ روح الاسلام ـ سيد أمير علي ـ تر . أمين الشريف ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ 1961 م .
94 ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحق . مصطفى السقا وآخرون ـ ط 2 ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 1955 م .
95 ـ السلام العالمي والاسلام ـ سيد قطب ـ ط 3 ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة .
96 ـ السلام رسالة السماء ـ محمود النبوي الشال ـ دار الفكر العربي ـ 1978 م .
97 ـ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ـ مصطفى السباعي ـ ط 2 ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ 1976 م .

98 ـ تاج العروس ـ الزبيدي ـ ط دار صادر ـ بيروت ـ 1966 ـ الناشر دار ليبيا ـ بنغازي .
99 ـ تاريخ الاسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ ط 9 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1975 م .
100 ـ تاريح الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ـ أبو زيد شلبي ـ ط 3 ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ 1964 م .
101 ـ تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير ـ تحق . محمد أبو الفضل ـ ط 2 ـ دار المعارف ـ القاهرة
102 ـ تاريخ مسلمي اسبانيا ـ دوزي ـ تر . حسن حبشي ـ دار المعارف ـ القاهرة .
103 ـ تاريخ العرب ـ فيليب حتي وآخرون ـ ط 4 ـ دار الكشاف ـ بيروت ـ 1965 م .
104 ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ تر . نبيه فارس والبعلبكي ـ ط 6 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1974 م .
105 ـ التبشير والاستعمار ـ عمر فروخ والخالدي ـ ط 3 ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ 1964 م .
106 ـ التواريخ الهجرية ـ اللواء محمد مختار باشا .
107 ـ تحديات أمام العروبة والاسلام ـ صابر طعيمة ـ دار الجيل ـ بيروت ـ 1976 م .
108 ـ التفسير الكبير ـ فخر الدين الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1978 م .
109 ـ تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ط 2 ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1970 م .

110 ـ غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ـ يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة .
111 ـ تفصيل آيات القرآن الحكيم ـ جون لابـوم ـ ط 1 ـ دار إحياء الكتب ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .

ثانياً : ـ الدوريات العربية

1 ـ مجلة الأزهر	القاهرة
2 ـ مجلة الدوحة	قطر
3 ـ مجلة حضارة الاسلام	دمشق
4 ـ مجلة كلية الآداب	جامعة فارق الأول مصر
5 ـ مجلة كلية الدراسات الاسلامية	بغداد
6 ـ مجلة كلية اللغة العربية	البيضاء/ ليبيا
7 ـ مجلة لواء الاسلام	القاهرة
8 ـ مجلة مجمع البحوث الاسلامية	القاهرة
9 ـ مجلة المجمع العلمي العربي	دمشق
10 ـ مجلة عالم الفكر	الكويت
11 ـ مجلة عمر المختار	بنغازي/ ليبيا
12 ـ مجلة العربي	الكويت
13 ـ مجلة الرسالة	القاهرة

ثالثاً : ـ الكتب والدوريات الاجنبية

1 . The World Book Encyclopedia – Fiald Enterprises Educational Corporation U. S. A. 1964

2 . The American Educator Encyclopedia – The United Educators, INC - Tangley - Oaks Education Center LAKEBLUFF. ILLINOIS U. S. A.

3 . Orientalism Edward. W. SAID - NEWYORK 1979.

4 . The spread Of Islam MICHAEL ROGERS EL SEVER FHAIDOH.

5 . The Arabs In History LEWIS HARBER And Row Publishers, NEWYORK 1958.

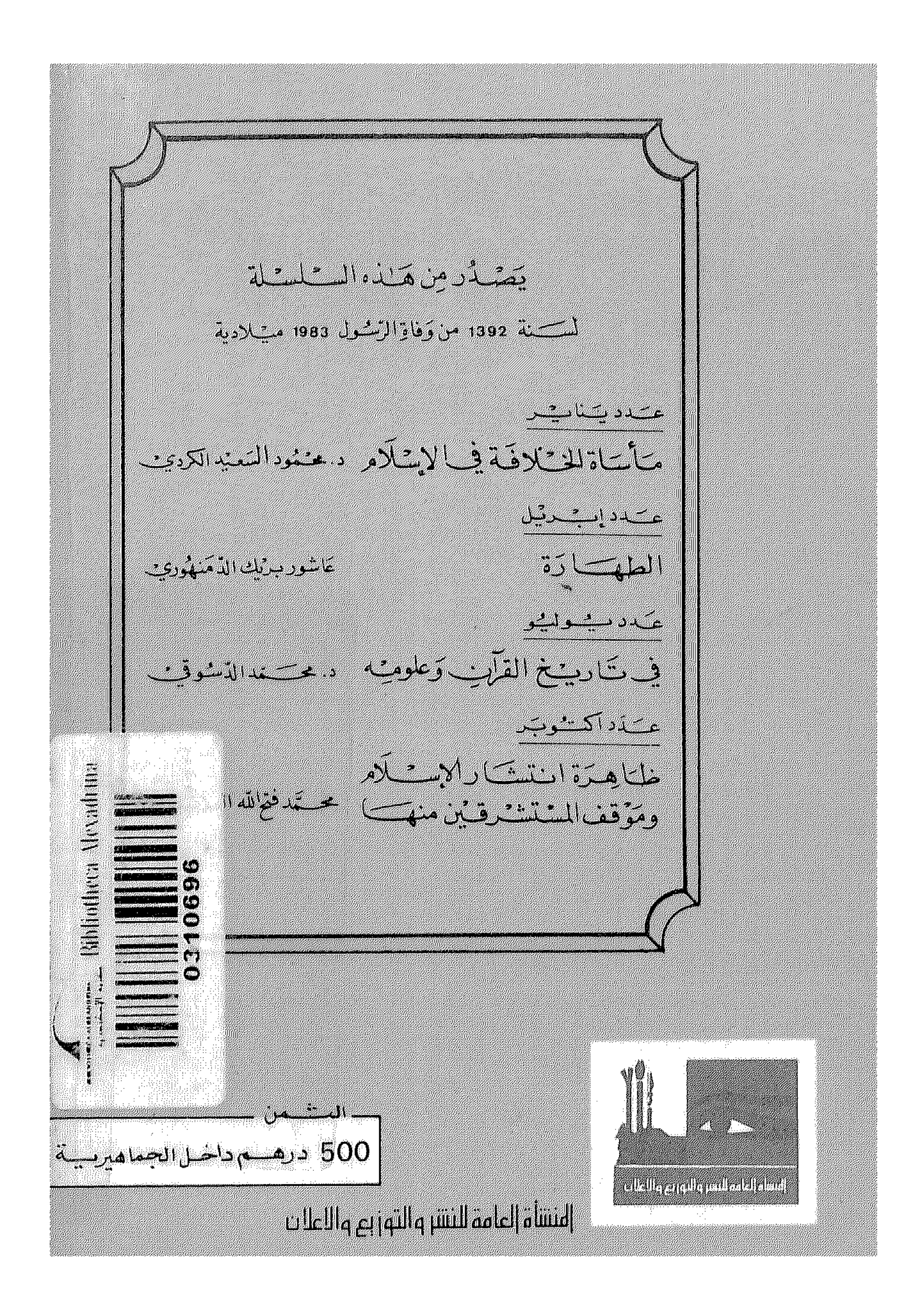
6 . The Venture Of Islam MARSHALL HODGSON CHICAGO 1974.

7 . Encyclopedia Britannica – WILLIAM BENTOR Publisher - U. S. A. - 1974.

8 . The Daily Advertiser PAUL HARVEY.

9 . Second Critique Of English Speaking Orientalists A. L. TIBAWI LONDON 1979.

فهـرس المـوضوعـات



يصدر من هذه السلسلة

لسنة 1392 من وفاة الرسول 1983 ميلادية

عدد يناير

مأساة الخلافة في الإسلام — د. محمود السعيد الكردي

عدد إبريل

الطهارة — عاشور بريك الدمنهوري

عدد يوليو

في تاريخ القرآن وعلومه — د. محمد الدسوقي

عدد اكتوبر

ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها — محمد فتح الله ا

الثمن

500 درهم داخل الجماهيرية

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان